دكتورة نعمات أحمد فؤاد

شعراء ثلاثة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصميم الغلاف : حسين أبو زيد

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

شعراء ثلاثة

- إبراهيم ناجي
- أبو القاسم الشابي
- الأخطل الصغير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

مقدمة

فى هذا العصر الذى تتصارع فيه الحكومات والشعوب بل أبناء الشعب الواحد فى وطنهم الواحد ٠

فى هذا العصر الذى يلهث فيه الكل حتى الأغنياء وراء المال والمادة بألوانها ٠٠ فى هذا العصر الذى تتهدد الانسان ، فيه ، الحروب الباردة والساخنة ، القنابل الذرية والنووية ٠٠

فى هـذا العصر الذى يقاسيه الانسان اذ يتهدده الجوع والجنـاف والأمراض الوبيلة التى لم يتوصل علماؤه بعد ، الى علاج كامل حاسم لهـا لأن الأقوياء يصرفون على حرب الكواكب ، الوقت ٠٠ والمال ٠٠ والاهتمام ٠

فى هذا العصر الذى أصبح فيه ، الحب ، رياء ٠٠٠ والكلمة رثاء ، والنعيق غناء ٠٠

فى هذا العصر الذى أصبحت فيه الأعصـاب مشـدودة والنفوس مكدودة ، وأصبح فيه العيش كربا ، والسلام الظاهر حربا ٠٠٠

فى هذا الوقت الثقيل الوطأة ، لا نجاة للانسان الا بالعودة الى :

الدين و الفـن

انى أجل العلم بما خفف من عذابات الأمراض بانجازات بارعة فى الطب ، وانجازات باتعة فى الصناعة ولكنه حين أعطى الانسان أزرارا كبيرة تسهل حياته المادية ، فشل فى اعطائه السعادة ٠

العلم انجازاته محسوبة رقمية ولكن الدين أعمق ، والفن أرحب ٠

فالدين ارواء لظمأ الروح ، وفيه اضفاء على الكيان ، واعلاء للنفس ٠٠٠ وفى الفن « تحضير » للحياة ، وتنضير للعيش يجعله يستحق أن يعاش ٠

الدين يطيب لروح الانسان ، والفن يهدهدها ويمسح عليها فتتوازن بعد معاناة ومكابدة ٠

لهذا طال شوق الانسان المحروب المكروب الى الغناء وهنا يشتد أو يشتعل الحنين ، بعد الهجير ، الى راحة الواحة حيث الماء سائغ والظل فينان ٠٠٠ وينفض انسان العصر رهقه بعد أن سافر قلبه طويلا فى الزمان والمكان فاذا الكل باطل وقبض الريح ٠

ويعود من جديد الى الشعر الرومانسى ، روعته وطلاوته ٠٠ وحلاه ورؤاه ٠٠٠ ويقرؤه الانسان وكأنه يغنى أشواقه هو ٠٠٠

وما أعذب الأشواق ٠

وما أكثر العشاق ٠

ودراسات الشعراء الثلاثة التى يضمها هذا الكتاب ، أصحابها يحتلون مكانا متميزا فى خريطة الأدب العربى ويتمتعون (بالحضور) على ساحته العريضة بالشعر مقروءا وملحنا ومرنما ٠٠٠

فناجى صاحب الأطلال قمته وقمة أم كلثوم وكفى ٠

وبشارة الخورى قد شاغل الأوتار بقصيدته (الصبا والجمال ملك يديك) أما أبو القاسم الشابى فشاعر المجد وشاعر الوجد ٠٠ أما المجد فقد ناداه ببيته الذائع :

اذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

وأما الوجد ، فقد ناغاه بشعره الرائع فى قصيدته (صلوات فى هيكل الحب) ٠

أنت أنشودة الأناشيد غنا
ك اله الغناء ، رب القصيد

أنت قدسى ومعبدى وصباحى
وربيعى ونشوتى وخلودى

والخالدون كما يقول شوقى أربعة :

شاعر سار بيته ٠٠ ومصور ضحك زيته ٠٠ ومثال نطق حجره ٠٠ وموسيقى بكى وتره ٠٠

وقد أنطق الشابى ، شاعرا ، الحجر ٠٠ وأبكى الوتر فاعجب وأطرب ٠

والدراسات كما كتبتها أول مرة مع أن عندى ما يضاف ويداف ولكنى أريد أن أحتفظ ببكارة الاحساس ٠٠ احساسى عند القراءة الأولى والكتابة الأولى ٠

سـكون

لنستمع الى الغناء من :

ناجى الشابى الخورى

د ٠ نعمات أحمد فؤاد

- إبـراهيم نـاجى

مقدمة

لقد كتب الكاتبون قبلى عن الدكتور ابراهيم ناجى الشاعر أو الروح الحساسة الرفافة المعبرة ··· واليوم سوف أضيف الى رأيهم الجميل فيه ، رأى النقد ···

لقد شكا الطبيب الشاعر من ظواهر غريبة بدت فى الجو الأدبى أولها : ابهام فى القيم ، وغموض فى المقاييس ، وثانيها : وهو المهم اختفاء النقد بالذات من عالم الأدب ···

هناك انتاج أدبى ضخم بدون شك ، ولكن هذا « الترف من الفوضى » على حد تعبير جوفرى ويست ، أو بعبارة أخرى هذه البضائع المكدسة فى أسواق الأدب ، بلا ضابط ولا صيرفى يبين صحيحها من زائفها ــ يدل على أننا فى عصر متسم بخاصية من عدم المبالاة ، وعدم الالحاح فى ايجاد روابط ، وضوابط (١) ·

هذه الصرخة التى ندت عن شفتى الشاعر تحفزنى الى نقد شعره استجابة لدعوته وتلبية لندائه ··· تحفزنى الى نقد شعره ذلك النقد الذى وصـــفه بأنه « وعى الفن » ··· ان « ناجى » يرى أن (الفن يبلور القيم الانسانية ، أما النقد فيجلو هذه القيم المتبلورة للأنظار) (٢) ·

على ضوء هذا التعريف الصادق للنقد ، سأمضى باذن من الله وتوفيق ، فى نقد شعر ناجى الذى حسب أن الناس ستنساه ··· وأفزعه هذا الخاطر عندما مرض وشعر أنه ينتهى فقال :

---

(١) كتاب رسالة الحياة للدكتور ناجى ص ٧٩ ــ ٨٠ ·
(٢) المرجع نفسه ص ٨٣ ·

قف تأمل مغرب العمر واخفاق الشعاع
وابك جبـــار الليالى هده طول الصراع
واضياع الحزن والدمع على العمر المضاع
وهتاف القلب بالشـكوى على غير انتفاع
ما يهم الناس من نجم على وشك الزماع
غاب من بعد طلوع وخبا بعد التماع (١)

لقد كان ناجي نجما خبا بعد التماع ، ولكن اسمه عندنا لم يخب له ضياء ، ولعل هذه الصفحات تطمئنه في مثواه على اهتمام الناس به وحفظهم لتراثه وذكراه ، مادام الحزن لايجدى ، والدمع لايغنى شيئا عن العمـر المضاع ...

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٥١ .

لمحة من حياة

حقول خضر ، ومروج فيح ، تنبسط على مدى الطرف غناء متماوجة ، وعلى جانبيها قامت الأشجار ، كأنها متجردة لحراسة النعمة التى أغدقها الله فى تلك البقعة بغير حساب …

وفى وسط تلك الجنة بنوارها وأشـــجارها وغدرانها وطيورها الغريدة ، قام بيت ، عليه من النعمة جمال ضاف ، وظل فينان · وكأن تلك المروج لم تشبع الحاسة الفنية فى أهله ، فأحاطوها بحديقة نسقوها على هواهم ، ووشوها بذوقهم ، لتزيد جمال المكان كله اشراقا ، وخضرته نضرة ، ونعيمه راحة ، وترفه فنا وعطرا وسحرا …

وكان فى الحديقة ساقية تئن ، لأنها تروى هذا الجمال كله وتنميه ، وبها حاجة الى ارواء ·· مسكينة تلك الساقية تمتلىء بالماء لتسكبه ثم لا يبقى فى جوفها شيء … ما أقرب حالها وأشبه حظها بالعيس التى يقتلها الظمأ والماء على ظهرها محمول ·· ان الأشياء كالناس : فيها السعيد وفيها الشقى … وفيها الحران وفيها من يزيد على حاجته الرى·

ولكن ساقية الحديقة لا تدرك هذا ، فهى تئن أنينا متصلا يضيع فى زحمة النهار وصخبه ، ويتميز فى الليل الساجى ، حتى ليخيل اليك أنه ينبعث لساعته رتيبا حزينا شجيا … ولماكان الأسى يبعث الأسى فان ساقية الحقل كانت من وراء جدران الحديقة تتجاوب مع زميلتها بمثل أنينها وشكواها ، هنا يفضفضان اذ يظنان أنهما فى الليل حيث لا يراهما أحد ، ولا يسمعهما أحـد …

فى ذلك البيت بجوه الفاغم ، وأنسه الناغم ، ولد ابراهيم ناجى ، فزاد أهل شبرا واحدا ، وزاد أهل مصر زيادة لا تحصى ، لأن الوليد

شاعر ... وما بالقليل فى الأمة أن يولد فيها شاعر ، فقد انتصر الألمان على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فهان نصرهم فى عين أحد الفرنسيين الذى تهانف قائلا : « وما قيمة هذا النصر ماداموا ليس عندهم شاعر كفيكتور هوجو يغنى نصرهم ويخلده ؟ » .

ودرج الوليد مع الأيام وبدأ يتعرف على مافى البيت حوله ... ماهذا ؟ انها مكتبة ضخمة ، صنفها والده بنفسه ، وقد قرأها كتابا كتابا .

ووعى الغلام هذا الجواب حتى اذا تعلم القراءة هرول الى المكتبة ... يقرأ ... انه الآن يفتح كتابا هو قصة (عذراء الهند) لمؤلفها أحمد أفندى شوقى بالمعية السنية .. ها هو ذا الصبى تستغرقه القصة واذا بوقع أقدام فى الخارج ، ثم يدخل والده عليه .. ويرى الوالد القراء ابنه الصغير على تلك الهيئة فتلمع عيناه ويحمد مولاه ، ويربت على الغلام ويتعرف على الكتاب الذى فى يده ، ثم يأخذ مكانه الى جواره ليحدثه عن قصة عذراء الهند ، ويتطرق الحديث بالطبع الى المؤلف أحمد أفندى شوقى ، فيقول الوالد : « هذا يا ابنى شاب ستسمع عنه كثيرا فتذكر ما أقوله لك » ، ثم يضيف : « انه فلتة من فلتات الطبيعة » (١)

أرأيت ؟ كيف يفتح الآباء الأبناء ، وكيف يوحون اليهم ؟

وذات يوم صحب الوالد ابنه الى طنطا فى مولد السيد البدوى ، فمرا بكتبى رأى فى المولد فرصة ذهبية لتصريف ما عنده ... ووقف الأب يتفقد النفيس المجهول ، فعثر بين الكتب المبذولة بالعرض الغافل على ديوان حافظ ابراهيم ، فالتقطه ونقد الكتبى الثمن ، ثم التفت الى ابراهيم وقال له : « اقرأ هذا أيضا ولو أن الفرق بينه وبين شوقى كبير ـ كبير جـــدا ... » (٢) .

وفى يوم آخر اصطحب الوالد ابنه الموهوب لزيارة قريب قاطن بحى الامام الحسين رضى الله عنه ـ وفى عودتهما اشترى له ديوان الشريف الرضى ، وأقبل عليه يقول فى صوت النجى : (هذا رجل عظيم وشعره شعر رجال ، عليك بدراسته جيدا) (٣) .

ومضيا فى طريقهما حتى مكتبة أمين هندية ، فأشار الأب الى المكتبة وعرف ابنه بها ، وقال له : « سأشترى لك ديوان خليل مطران ليكون عندك فكرة كاملة عن شعراء مصر) (٤) .. ثم تمهل قليلا وقال : (أما المتنبى فسنقرؤه معا ...) .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الوقائع من مقال للدكتور ناجى من تاريخ حياته .

أتدرى كم كان عمر الغلام فى ذلك الحين ؟ تخيل ! ان طفلنا كان يبلغ من سنيه اثنى عشر عاما تقريبا ··· مستحيل ، لماذا ؟ ان الموهوبين كالأهلة لا تحتاج السنين الطويلة لتستدير ، بل يكفى بضعة عشر يوما ليصير الواحد منها بدرا كاملا ···

وحبذا الموهبة يفتحها التلقين المبصر ، ويزكيها التبصير الواعى المدرك ، ويصقلها التعهد الفنان ···

وهكذا كان والد ابراهيم ·· كان قراء يعرف ماذا يقرأ وكيف يقرأ ، كما يعرف قيمـــة الوقت وكيف ينفقه وكيف يضـــن به على التضييع ···

كان بيته منتدى له ولأولاده يجلس بينهم ، ثم تتحلق حوله من فلذاته الندوة ··· هنا جو القلب ، وهنا أكرم الحب ، وهنا يعذب السمر ويطيب الحديث ··· وعلى مثل هذه الجلسات يطل الله من عل ليباركها ويضفى عليها السلام والرضا والطمأنينة ··· ما أهنأ وما أصفى ···

نعم ما أهنأ وما أصفى ، ولكن التاريخ يحلو له أن ينزل ضيفا على بيوت صانعيه ، ولا يتحرج من مشاركتهم فى شئونهم الخاصة · وحجته أنهم ملكه أكثر مما هم ملك أسرهم أو حتى ملك أنفسهم · وهكذا يأخذ التاريخ مكانه فى تلك الندوة الى جوار الطفل ناجى ليسجل ···

على كل حال كان الأب مشغولا عن هذا كله ·· ان همه أن يقرأ لأولاده روائع الأدب من الشرق والغرب ... ويقرأ حينا ويفسر آنا ويتحدث أحيانا ويكركر فى (الشيشة) آونة أخرى ··· ويظل فى مجلسه حتى يحين ليل ويهوم على الأجفان الصغيرة النعاس ، فيفض الوالد المجلس قبل أن تستسلم للنوم ···

ويأوى الأطفال الى سررهم لينعموا بأحلام الطفولة السعيدة ، ويأوى معهم أخوهم ابراهيم ولكن ··· ولكنه لا ينام ··· انه مسحر بما سمع ، وفى نفسه بقية شوق ··· ان الحظ حفى به · فقد جعل نصيبه الغرفة المجاورة لغرفة والده ·· ان فى مقدوره الآن أن يتابع الاصغاء الى الصوت الهادىء الجميل الذى يعرف كيف يصور ببدع ساحر ويلون بريشـــة فنان ما عنده من فنى الفن وطرائف الأدب ·

وهكذا يظل صاحبنا الصغير ساهرا لا يغمض له جفن ، يسمع من وراء الجدران ما يقصه والده على أمه مما يكون قد قرأه بنهار ··· ويود ابراهيم لو استرسل الوالد السمير يتحدث كشهر زاد الى الصباح · ولكنه

بعد فترة قد تطول أو تقصر يسمع مفتاح النور وهو يمن بنعمته ، فاذا الغرفة ظلام وسكون فيفهم ابراهيم أنها تتهيأ للنوم ٠٠٠

وعلى هذه الطريقة ، طريقة الانتساب الى الغرفة المجاورة ، سمع شاعرنا وهو طفل (أوليفر تويست) كما سمع كل قصص شرلوك هولمز ، وأغلب قصص رايدار هاجارد ٠٠٠ وكثيرا سواها ٠

تفتح الشاعر الموعود للأدب العربى بعد أن تفجر نبعه أمامه ، فاقبل عليه يعب منه عللا بعد نهل ، فلا هو يروى ولا هو يسلو الرشيف ٠٠٠

واطمأن الوالد وقرت عينه ورأى من كمال الصواب أن يتجه به الى ناحية أخرى ٠٠٠ الى الأدب الغربى وهو زلال سائغ يلذ الشاربين ٠٠٠

وفكر الوالد مليا بماذا يبدأ ؟ ولم يلبث أن اختار الكاتب الانسان (ديكنز) وأخذ الوالد يقرأ ديكنز ويعلق عليه ويشرحه ٠٠ والولد ينظر وقد اتسعت حدقتاه من العجب والاعجاب معا ٠٠٠ انه القصص الذى يسمع به من الغرفة المجاورة ويشتهى أن يسترسل والده فيه ٠٠٠

وفى يوم من أيام الشتاء خرجا معا ٠٠٠ ثم حدث أن جادتهم السماء بالقطر ثم انهمر الغيث ، فأظل الوالد ابنه بمظلته ، وسار الاثنان تحت مظلة واحدة كما تجاورا فى الحياة غصنين فى دوحة واحدة ، ودلفا الى مكتبة بمصر القديمة ٠٠٠٠

أتعرف هذا الكتاب الذى يحمله الوالد ٠٠٠ دا ٠٠ فيد ٠٠ مه ! انه دافيد كوبر فيلد ٠٠٠ احدى روائع ديكنز صديقه الجديد ٠ ليت ابراهيم يلتفت الينا ليرى ٠٠٠

* * *

عندى لك مفاجأة أخرى ٠٠٠ لقد دفع الرجل الثمن وحمل الكتاب ليمضى به والتفت الى ابنه فاذا به مشغول بقراءة ورقة فى يده ٠٠٠ وحلا للوالد أن يعرف مافيها ٠٠٠ أتدرى مافيها ٠٠٠ أتدرى ماذا ؟ لقد كانت قصيدة غزل ! نظمها هذا الشويعر الصغير ٠٠٠ أتصدق ؟ على كل حال لقد ضبطه أبوه متلبسا بها ٠٠٠ وأخذ الرجل الأديب يقرأ وهو يخفى ابتساما يصر على التبدى والافشاء ٠٠٠ ووشى بغبطة الرجل افترار ثغره ، ونم على سروره طلاقة وجهه ، ولكنه تكلف الجد على عادة الآباء وقال له : « هذا أكبر من سنك » ٠٠٠ ولكن هذه العبارة مدح سافر ، قد يغرى غرور الحداثة فى ابراهيم بالتمادى فى غزل حين لا يريد الأب هذا ٠٠٠ ماذا يفعل لقد أردف قائلا : (لاتمعن فى الغزل ، بل أكثر من شعر الحماسة والوطنية) ٠٠٠

* * *

ان ابراهيم الآن لا يفكر فى شعر الغزل أو شعر الحماسة والوطنية .. لقد حبس نفسه فى غرفته أياما طويلة . ومعه دفيد كوبر فيلد والقاموس وأقبل على القصة يقرأ فى نهم على الرغم من اعتراض سيل من الألفاظ الصعبة عليه ، ولكن ما عمل القاموس اذن ؟ كان يكشف عن كل لفظة تنبهم عليه حتى لا يفوته شىء من المعنى وظل على هذا المنوال حتى التهم القصة كلها التهاما ... التهمها بعينه ولسانه وعقله ... كأن الثلاثة فى سباق ... العين تحدق ، واللسان يرتل ، والعقـــل يعى ويختزن ويتمثل ...

وحفظ ابراهيم قصة دفيد كوبر فيلد وحفظ بحفظها محصولا من كلمات اللغة الانجليزية كان رصيده على الأيام ، حتى استطاع أن ينظم الشعر بالانجليزية قبل العربية .. وحتى استطاع أن يشترك فى مسابقة شعرية ، كانت جائزتها حدس ... ما هى الجائزة ؟ ... وحدس أيضا من الفائز ...

الفائز ابراهيم ناجى ! مرحى .. مرحى ... بقى عليك أن تتخيل معى الجائزة ؟ لا عليك .. سأنبئك بها ... انها مؤلفات .. دكنز .. ومن بينها بالطبع القصة المرموقة دفيد كوبر فيلد !

دفيد كوبر فيلد القصة التى كتب عنها فى حرارة وايمان ..

بعد هذا :

الذى انطبع فى ذهنى هو دافيد كوبر فيلد . لا أعـــرف السر فى ذلك ، ولكنى أعتقد الآن أن قوة هذه القصة فى أنها سيرة صادقة لديكنز بالذات ، عبر فيها أصدق التعبير عن انفعالاته ، وشرح فيها الحب العفيف الراقى أوفى شرح ، وكنت أنا اذ ذاك فى بدء محاولاتى للشعر (١) ، فلم يكن عجيبا أن ينتعش ديكنز فى خيالى بسمو روحه ونقاء قلبه ، مع أنه لم يكن شاعرا ، ولكن الذى كتبه نثرا هو فى الحق أرفع وأغلى من شعر ألوف من الشعراء ..

وماذا فى قصة دافيد كوبر فيلد ؟ انها تذكرنى — أو على الأقل تجرى فى خيالى — مع عودة الروح لتوفيق الحكيم ... لاشىء غير الصدق والواقع ... قصة غرام قد تنتهى للاشىء ولكنها فى الحياة كل شىء ...

قصة غرام ديكنز بالفتاة (دورا) .. دورا التى كان لا يقول انها حبيبته بل كان يسميهـــا وجـــوده العزيز .. أبدع وصف فى لغـــة الهوى

(١) يضم ديوان الدكتور ناجى (وراء الغمام) قصيدة قالها وهو فى الثالثة عشرة مما يدل على أن محاولاته بدأت قبل هذا .

الرفيع ‥ لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعا ‥ كونه الملهم ، وحبه الصافى (١) ٠

ان (ناجى) يصور شعوره بالقصة اذ قرأها أول مرة ‥ عندما كان غلاما فوق العاشرة بقليل ، لقد نفذ وقتئذ الى ما فى تعبير ديكنز عن الحبيبة بالوجود العزيز .. لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعا ‥ كونه الملهم ، وحبه الصافى ‥

أرأيت شفافية الطفل وذكاء حسه ، وصفاء نفسه المطبوعة على الحب ، المهيأة له ؟

« لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده جميعا) ٠٠٠

لقد غاص الصغير فى أعماق الفنان الكبير وعرف سره ووعى قصده ٠ وما بالقليل وما باليسير هذا ٠٠٠ ان المتذوق يكاد يرتقى الى مرتبة الفنان، وهيهات أن يتذوق العمل الفنى شخص عادى غير مزود ولو بقبس مماوهبه الفنان من موهبة الفن بماتقوم به من حس ونفاذ (٢) ٠

وهكذا كان اليافع ابن الثانية عشرة يدرك مرامى القول الفنى ويحس جماله ‥ كانت نفسه طلعة وروحه متلهفة تحس وقدة الظمأ ، تواقة تهفو الى ٠٠٠ شىء ‥ والفن يخايلها على صورة مكتبة وقارىء ذواق ‥ ان جدران البيت لا تعترف بغير زينة الكتب ، وصاحب البيت لا يغالى بشىء فيه كتلك المكتبة ‥ وهو يحاول جهده أن يغرس فى ولده حب الفن ، ويورثه اعزازه للمكتبة ٠

---

(١) مقال للدكتور ناجى بعنوان : (كتب أثرت فى حياتى) ‥ الجمهور المصرى بتاريخ ١٩٥٣/٢/١٦ ٠

(٢) يقول كولنجوود R. G. Collingwood « ان الفنان يضع فى الصورة الوانا لا نابث أن نجدها حالما نبصر الصورة ٠ فهل هذا هو كل ما فعله ، أعنى تلوين الصورة ؟ كلا طبعا ، فهو عندما كان يلونها كان يعيش تجربة نفسية تختلف تمام الاختلاف عن مجرد رؤية الألوان التى يضعها على اللوحة ، كان يعيش تجربة خيالية تكشف عن نشاط كلى وتشبه فى كثير أو قليل ما نشيده لانفسنا عندما نتأمل لوحاته ٠ فاذا عرف كيف يصور ، واذا عرفنا كيف ننظر الى الصورة فان التشابه بين التجربة الخيالية لديه وتجربتنا الخيالية التى تحصل لنا من تأمل عمله يوشك ان يكون تاما ٠ ومن هنا نستطيع ان نقول : ان التجربة التى تحصل لنا من مشاهدة هذا العمل لا تكون هبة نتلقاها بقدر ما هى فعل نبذل الجهد فى انجازه ٠ ومن هنا صح القول بأن المتذوق يلزمه ان يبذل من الجهد ما يكافىء جهد الفنان » ٠

النص منقول من كتاب (الأسس النفسية للابداع الفنى) للاستاذ مصطفى سويف ص ١٦٦ ــ ١٦٧ ٠

وفي الحق أن مهمته لم تكن بالعسيرة ، فان الصبي كان شديد الاصغاء اليه سريع الوعى عنه ، سريع التنفيذ لما يقول ٠٠

وانصرم الشتاء ليخلى بين الدنيا وبين فصليها الأثيرين الربيع فالصيف ٠٠ وكان والده يؤثر فى الصيف مكس الاسكندرية حيث يلتقى فى هذه الآونة من كل عام بصفيه خليل مطران ٠٠

ولم يفت ناجي المفتوح العين دلالة الاختيار ، فسأل أباه عن سر غرام مطران بالمكس ٠٠ فأسر اليه الوالد الصديق ان (مطران) له قصيدة طويلة عند صخرة المكس ، ثم قرأ له قصيدته الخالدة « المساء » ٠

وطرب الصغير ناجي للقصيدة أيما طرب ٠٠ وسرعان ما طلب ديوان الخليل ليستزيد ٠٠ ولكنه نفد ٠٠ ولم يتبق منه الا نسخة وقد أخذت مكانها بالفعل فى مكتبة المرحوم عبد الهادى (باشا) فأعطاه ابن عمه هذه النسخة ، لا ليقرأها فحسب ولكن ليتعلم منها الشعر الجيد ٠٠ وهنا يتواضع ناجي فيقول : (ولست أعلم ان كنت قد نفذت هذا الشرط ؟)

ومضى الغلام بالنسخة حفيا بها ، وانكب عليها حتى حفظها حفظا واعيا ٠٠ ثم تولت الأيام بدورها توثيق صلته بالخليل حتى صار يدعوه يا « عمى » ٠

وكأنما عز على الأيام أن تتكلف عناء توثيق الصلات ، فأنست الناس خليل مطران حتى صاروا لا يذكرونه كثيرا فى مغرب عمره ٠٠ ألم تمنحه مودة ناجى ٠٠ لها بعد هذا أن تسلب ما تشاء ٠٠ هذا هو منطقها ٠٠ أو على الاصح هو دستورها ٠٠

★★★

اجتمع ناجى الذى تميزت شخصيته الآن بالشاعر الكبير فى منزل صديق ٠٠ وكان مطران شاحب الوجه ، ضارع الجسم كسير القلب ، بادى العلة ولكن الذى كان يمضه أكثر من سواه « الجحود » جحود الذين أطربهم فشجاهم فكان جزاؤه منهم « النسيان » ٠٠ النسيان فى العمر الذى تتوج فيه أكاليل الغار مفارق حملة المشاعل فى طريق الانسانية ٠٠

ان « ناجى » فى مجلسه الان يعتصر من أجل مطران ، ماذا تراه فاعلا ؟ أيسرى عنه ؟ وماذا وراء التسرية وما جدوى العزاء ؟ هل فى بضع كلمات دواء الداء ؟ اذن ما أيسر ٠٠

صه ! لقد لمعت فى ذهن ناجى فكرة ٠٠ ولم يتريث فى الأخذ بها اذ انطلق ينشد شعر مطران من أوله ٠٠ فلا ينتهى من قصيدة الا ليبدأ

الخزى والحاضرون مأخوذون ٠٠ بجمال الشعر ، أو بروعة المفاجأة لست أدرى ٠٠ ولكنهم مسمرون ٠٠ ولكنهم مبهورون ٠٠٠ ولكنهم فى صمت بليغ السكون لم يقطعه الا نشيج مطران الذى بكى من فرط التأثر ، وأخذ يقبل ناجى وهو يقول فى راحة المطمئن ورضا الآمن بعد خوف

الآن أموت مسرورا ٠٠٠

ولاء ٠٠٠ لا بل وفاء ٠٠٠ سم صنيعه ما شئت من أسماء ، ولكنه عندى ارهاص العبقرية ، التى تزمع الظهور ، وتمضى فى التكوين

★★★

وممن قرأهم ناجى وتأثر بهم « شكسبير » لقد كان يحفظ رواياته كلها بل كان يجيد تمثيلها وطالما حاضر عنه ٠

ومن طرائف ناجى أنه دعى مرة للمحاضرة عن شكسبير فى المعهد البريطانى الذى كان فى المنيا ٠٠٠ وحل الميعاد وهو ذاهل عنه ، ولكن عليه أن ينهض الى الصعيد ٠٠٠ فركب القطار وأخذ يحاول الكتابة فلم يوفق الا للنوم الذى غلبه ودفعه فى سخرية الغالب أن يسطر حروفا لم يستطع هو نفسه حل رموزها فيما بعد ٠٠٠

وقد تعجب اذا علمت أن ناجى الخالى من موضوع المحاضرة قد ذهب الى المعهد المنتظر ٠٠٠ وحل موعد المحاضرة ! ٠

وتقدم رئيس النادى اليه طالبا نسخة مما سيقول ٠٠ وهنا جلله الخجل وقال له فى صوت خفيض (عندى « بضعة أسطر ») ، وبهت الرجل وامتقع وجهه ، ولكنه ضبط نفسه ولم ينبس بكلمة واحدة ٠٠٠

واحتشد الجمهور الذى تدافع الى المكان فى سباق متلهف على سماع المحاضرة القيمة ، لقد أفلحت الدعاية الطنانة التى سبقت ركب ناجى الى المنيا فى جذب الجموع الغفيرة ٠٠٠

وامتلأت الصفوف ، وأتلعت الأعناق ، واشرأبت الرؤوس الى رئيس النادى ، وهو يقدم المحاضر العظيم الدكتور ابراهيم ناجى ٠٠٠

أتدرى ماذا قال الرجل ؟ لقد ذكر الحقيقة كاملة ٠٠٠ لقد ذكر أن المحاضر نسى أن يعد المحاضرة وأنه حضر من القاهرة الى المنيا ببضعة أسطر ٠٠٠

هل نلوم الرجل ؟ كلا ٠٠٠ أنقسره على الكذب ؟ أم نورطه فى وعد الجمهور بسماع مالا أذن سمعت ؟ لو فعلنا لكنا ظالمين ٠٠٠

وعرت ناجى دهشة حار معها ، ماذا يقول وكيف يتصرف ... أيعتذر ؟ .. أنه عندئذ العذر الذى يصفونه بأنه كالذنب فى الخلقة أو أقبح ... أيرتجل ؟ .. انه الارتجال غير المقصود من صاحبه ، وغير المألوف له فى هذا الجو المشحون الذى لا يعين عليه ...

لم يبق الا أن يزعم ناجى للحــاضرين أنه نعمد الا يكتب عن شكسبير ، لأنه ليس بحاجة الى الكتابة عنه بعد أن عاش معه فى كتبه زمنا ليس باليسير . فكيف يتحدث عنه من ورقة ؟ .. لباقة بلا شك .. اليس كذلك ؟

ومن الغريب أن (ناجى) صدق زعمه ونسى نفسه ، وأخذ يتحدث ويفيض وكأنه يغترف من نهر ، وسحر بما صار اليه ، فلا هو يتوقف ولا الكلام يغيض ...

تعال معى الى الصفوف المتواكبة ... الا ترى السامعين يكادون يحبسون أنفاسهم حتى لا تفوتهم كلمة ؟ ولكن دعهم وانظر الى ذلك الذى يحملق الى المحاضر فى ذهول عجيب . ألا تعرفه ؟ انه رئيس النادى الذى قدم (ناجى) منذ ساعة كاسفا آسفا ، وان دارى ... ولكن حسبه أن يقول : ان المحاضر نسى المحاضرة ولم يكتب الا بضعة اسطر ... لتفهم الحقيقة كلها ...

على أى حال ان الرجل الآن لا يكاد يصدق ...

واســترسل ناجى حتى أوفى ، فاذا بالتصفيق يـدوى فى المكان كله ، واذا بالرئيس المذهول يثب الى المسرح ويضم (ناجى) ويقبله ويطرى : « المصرى الذى يعرف شكسبير كل هذه المعرفة » .

★ ★ ★

أما قصة (التلميذ) للكاتب الفرنسى بورجيه فلها قصة سادع ناجى يرويها لك حتى لا يفوتك ما فى طريقته من اطراف .

(ملخص الموضــوع أنى كنت أعرف الانجليزية فقط لأن القسم العلمى فى التعليم الثـانوى لا يعــلم الفرنسية ، ولكن ما حيلتى وأنا «مضطر» للتفاهم بالفرنسية مع أعز مخلوقة فى الوجود ! وهى لا تعرف غير الفرنسية ، وهى لا تحب غير بورجيه ، وتعتقد أن (التلميذ) قصة خالدة ... وتتمنى لو قرأناها معا بالفرنسية !

أمنية عزيزة ، ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ على أن أتعلم بسرعة ، وأقرأها معها بسرعة ، والا فات الوقت !

لست أعرف فى تاريخ « الضرورات » أغرب من هذه الحكاية ٠٠٠ قلت لنفسى : أتعلم كما يتعلم الطفل ٠٠٠ أحفظ الكلمات ، ثم أتعلم ربطها ، ثم أتكلم ، كلمات أولا ، ثم جملا ٠٠٠ وهذا هو الذى حدث ٠٠٠ ففى الشهر الأول أخذت أحفظ كلمات فرنسية ٠٠٠ وأتعلم نطقها من قاموس خاص بالنطق ، ثلاثين كلمة كل يوم ٠ بعد شهر كان محصولى ألف كلمة ٠٠٠ أحفظها حفظا تاما ٠

وفى الشهر الثانى اخذت أقرأ (آجرومية) اللغة وربط الكلمات التى أعرفها ببعضها ، وفى الشهر الثالث أخذت أحاول تطبيق هذا على قصة (التلميذ) ، فى المحاولة الأولى لقراءتها ولم أفهم شيئا ، وفى القراءة الثانية فهمت قليلا ، وفى الثالثة فهمت أكثر ، وفى الرابعة ازداد فهمى لها ٠٠٠ وفى المرة الثامنة فهمتها تماما ٠٠٠

وعدت الى صديقتى ، فقرأت معها قصة التلميذ لبورجيه وهى لا تكاد تصدق !) (١) ٠

لقد طغى حب الأدب على ناجى حتى غلب فى نفسه على سائر الميول الأخرى فما عدا عما بدا ؟ ما الذى حدا به الى الطب ؟ ٠٠٠ هنا فقط أترك لشاعرنا الحديث ٠٠٠

« كانت نزعتى للأدب طاغية ، وكنت أعد نفسى لمستقبل أدبى ، ولم يكن عندى أية فكرة عن الناحية العلمية الرياضية ، غير أن الأقدار تلعب دورها بدون أن تعلم ٠٠٠ ففى السنة التى قررت فيها أن ألتحق بالقسم الأدبى أرسل الله لنا معلما سوريا ، لم يكد ينظر الى حتى توسم فى شيئا لا أعلمه جعله يؤمن بأننى قد أكون نابغة فى الرياضة ، فوجه اهتماما الى ، وكان قاسيا جدا ، اذ كان يضربنى ويشتمنى وكثيرا ما دخل الفصل وهو ثمل ثم أخذ يبسط هذا الظل بالضرب و « النريقة » والشتم واللعن . وأنا صابر لا أتفوه بكلمة ، وكان رحمه الله طيب القلب يخفى خلف هذه القسوة نفسا من الذهب ، فكان يلاطفنى بعد قسوته ، ويمد يده الى (بواجبات) خاصة منه لى ٠٠٠ ثم يعود فى اليوم الثانى فيسألنى فى خشونة « هل عملت الواجبات » فلم أخيب ظنه مرة واحدة ٠٠٠ وقد كان تقدمى سريعا ، جعله يزهو ويفخر بى ٠٠ ثم أخذت قسوته تختفى وهو يقول « اطلع يا ناجى اشرح لهم التمرين » ٠

لقد كان تأثير هذا المعلم فى مستقبلى كبيرا فقد غيرت التحاقى

---

(١) من مقال للدكتور ناجى عن تاريخ حياته ٠

بالقسم الأدبى ، والتحقت بالقسم العلمى ، ولتقدمى وتفوقى فى الرياضة دخلت كلية الطب لأنى كنت من المتقدمين » (١) ·

وازداد ناجى مع الأيام قراءة واطلاعا وتوسع فيهما ، حتى تجاوز كتب الأدب والطب الى المذاهب الفلسفية والسياسية وعلم النفس ··· ولعل قراءة واحدة لكتابه (رسالة الحياة) تؤيد هذا عندك ·

ولما تخطى ناجى مرحلة الاختبــار ، وحان الموعد ليجنى النــاس من الأديب الطبيب ما فيه شفاء وما فيه دواء ، أمسك بقلمه نفيسا كمبضعه وسطر الشعر ، ودبج النثر ، وسرد القصة وأعد البحث . ولكن الشاعر فى ناجى غلب على الناثر والباحث والقصاص ··· فهلل قوم للشاعر ولاذ قوم بالطبيب ، وقال التاريخ : شاعر الطب وطبيب الأرواح ··· فهنيئا له وسلام عليه فى الخالدين ···

---

(١) من مقال للدكتور ناجى بعنوان « كتب أثرت فى حياتى » الجمهــور المصرى ١٩٥٣/٢/١٦ ·

هو شاعر حتى في الأسماء ٠٠ (وراء الغمام) ، (ليالى القاهرة) ٠٠٠ أسماء زاخرة حافلة فيها غموض وظلال وسحر مكنون وايحاء ورمزية شفافة ٠٠٠ ترى ماذا وراء الغمام ؟ وماذا فى ليالى القاهرة ؟ ان الاسم الأول يثير فضولى والاسم الثانى يدعونى للطرب وللسمر وللفن ٠٠٠

لقد تساءل الأستاذ الصاوى وهو يصدر لديوان ناجى الأول (وراء الغمام) : كيف يجرؤ النـــاثر على وصــف الشاعر ؟ وكيف توصف الموسيقى بالكلام ؟ وكيف يعبر بالحروف عن الأحلام ؟ ٠٠٠

ولكنى رغم هذا لا أتهيب وسأصف « ناجى » الشاعر الموسيقى الحالم ٠٠٠ أو بالاحرى سأستنشقه من شعره ٠٠٠ سأبحث فى ديوانه ٠٠٠ (وراء الغمام) و (ليالى القاهرة) ٠

نحن الآن أمام اهداء الديوان الأول (وراء الغمام) ٠٠ ومنه :

أنت وحى العبقريه وجـــــلال الأبديه
أنت لحن الخلد والرحمة فى أرض شــــقيه
ان يكن قد شـــقى الماضى فما أهنا البقيه
بت تســـقينى فتنســـينى أوجاعى العصيه

لعلك تشعر معى أننا مقبلون على ديوان شجى وشاعر حزين ٠٠٠ ومتى كان هذا ؟ فى سنة ١٩٣٤ أى فى طور الشباب ٠٠٠

ياهـــم قلبى فى صـــبا أيامه وسهاد عينى فى الليالى الأولى(١)

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان (وراء الغمام) ص ٦ قصيدة المآب ٠

ترى ماسره ؟ وفيم أساه ؟ ها هو ذا الجواب :

كد على كد ولست ببالغ الا ضنى متتابعا ونحولا
صدأ الحوادث بدل الاشراق في فكرى وكدر خاطرى المصقولا
وتتابع الأنواء فى أفق الصبا لم يبق لى صحوا أراه جميلا(١)

ان الشاعر مرهق ، هدف للأحداث والآلام ... منذ الليالى الأولى ... ولست أسوق هذا الحكم من قصيدة (المآب) وحدها ، فان الدليل عليه تكاد تلمسه فى كل قصيدة ... **ففى (الميعاد) يصف البحر فيقول :**

كم لاح لى حرب الحياة على
أمواجه المجنونة الزبد
ورأيت طيف الضنك مرتسما
فى عاصف الأنواء مطرد
فى الليل مد رواقه وثوى
كجوانح طويت على حسد (٢)

ويبدو لى أن الحياة فى حربها له كانت قاسية لا ترحم ، حتى اشتهى الموت ليفارقها ورأى فى القبر مباهج لا تحصى ...

قبر مباهجه بلا عدد
لفتى متاعبه بلا عدد
من يومه يوم بلا أمل
وغد بلا سلوى وبعد غد (٣)

ما الذى حدا به الى هذا ؟ ... ضنه ... لقد بدأ يتكلم :

آه مما صنع الدهر بنا
أو هذا الطلل العابس أنت
والخيال المطرق الرأس أنا
شد ما بتنا على الضنك وبت (٤)

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان (وراء الغمام) ص ٩ قصيدة المآب .
(٢) « « « ص ٤٨ ـ ٤٩ قصيدة الميعاد .
(٣) « « « ص ٤٩ « .
(٤) « « « ص ٩ قصيدة العودة .

انه يعتصر ... وهذه دموع :

أين ناديك وأين السمر
أين أهلوك بساطا وندامى
كلما أرسلت عيني تنظر
وثب الدمع الى عيني وغاما (١)

عانى ناجي الوحدة القاتلة بأمانيها الضائعة · وذكراها الحزينة ، وهو شاعر له ظمأ يشتهى الرى فلا ينال ، فيعيش على الأمل الذاهب اذ يعز عليه النسيان :

يا وحدتي جئت كي أنسى وهأنذا
ما زلت أسمع أصداء وأصواتا
مهما تصاممت عنها فهي هاتفة
يا أيها الهارب المسكين هيهاتا
تلفت القلب مطعونا لوحدته
وأين وحدته ؟ باتت كما باتا
حتى اذا لم يجد ريا ولا شبعا
أفضى الى الأمل المعطوب فاقتاتا (٢)

وهو لا يفلت من وحدته ووحشته حتى تطغى فتغمره من جديد :

لذعتنى دمعة تلفح خدى
نبهتنى من ضلال ليس يجدى
واختفت تلك الرؤى عن ناظرى
وطواها الغيب في سحرى برد
وتلفت فلا أنت ولا
جنة الخلد ولا أطياف سعد
واذا بى غارق في محنتى
وبلائى ، أقطع الأيام وحدى (٣)

وهو متفزز كثير الأوهام :

أأنت ناديت أم صوت يخيل لى
فلى اليك باذن الوهم اصغاء

---

(١) الدكتور ناجى · ديوان وراء الغمام ص ١٩ قصيدة العودة ·
(٢) « « « ص ١٨٨ ــ ١٨٩ أصوات الوحدة ·
(٣) « « « ص ١٠١ قصيدة الغد ··

لبيك لو عند روحي ما تطير به
وكيف ينهض بالمجروح اعياء (١)

أتعرف مما قاسى ناجي أيضا ؟ سأتركك معه ليبثك شكواه ، ها هو ذا يفضي اليك :

لقيت ضنكا من الليالي
فمن غمار الى غمار
قد طال عتبي على الليالي
وطال للراحم انتظاري (٢)

وهو مسرور .. ومن خطابه الى من يحب :

قبل اذقني ما اليقين وهاته خلوا من الآلام والأوصاب
اقبل لأقسم في حياتي مرة أن الذي أسقاه ليس بصاب
لهفي على هذا اليقين وطعمه بفمي وتكذيبي شهي شرابي (٣)

حتى كأس النعيم يريد عليه قسما ليوقن أنه حلو لا مر فيه ...

هل كان مسرورا الى هذا الحد ؟ أكاد لا أصدق من اشفاقي ... ولكن كيف وهو يؤكد أنه لا يستسيغ في دنياه شيئا :

كل شيء صار مرا في فمي بعدما أصبحت بالدنيا عليما
آه من يأخذ عمري كله ويعيد الطفل والجهل القديما (٤)

ان الرجل لا يصرخ هذه الصرخة الا أن تكون قد كشفت له عن حقائق مرة غص بها ..

ترى لم ضاق ذرعا بالحياة والأحياء ؟ انه يقول :

مللت في هاته العوالم مهزلة الموت والحياه
وصورة القيد في المعاصم ووصمة الذل في الجباه
هياكل تعبر السنين واخدة الغيش والنظام
واحدة السخط والأنين واحدة الحقد والخصام

(١) الدكتور ناجي ، ديوان ليالي القاهرة ص ٩٧ قصيدة السراب على البحر .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ١٦٣ قصيدة في منزل الشاعر .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٨٢ قصيدة الشك .
(٤) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٥٤ ـ ٥٥ قصيدة الوداع .

وواحــــد ذلـــك الريـــاء يســـتر خزيا من الطبـــاع
أفنى البـلى أوجـــه الريـاء ولم يدب ذلـك القنـــاع
بعينهـــا كـذبة الدمـوع بعينهـا ضـحكة الخـداع
ومنحنى هـــاته الضـلوع على صـواد بهـا جيـاع (١)

ويمضى فى تأمله فيرى أن الناس هم الناس والطباع هى الطباع ، وان تغيرت شيات ، وتبدلت أزياء :

آدم كالقديم قلبـا وتفـكيرا ولكـن تبـدل الأزيـاء
لم يحل طبعه ولا ذات يوم لبسـت غير نفسها حواء
والنضــار المعبــود قـدس وقربان ورب والشــهرة الجوفاء
والحطـام الفانى عليه اقتتال والأمـانى بريقهـا اغـراء
وســفين تمـر اثر سـفين والـرياح اللذات والأهواء
والغيـوب المحجبـات رحـاب تعبت فى رموزهـا الحـكماء (٢)

ومجمل رأيه في الدنيا أنها رواية :

نزل الســتار ففيم تنتظـر خلت الحيــاة وأقفـر العمر
لم يبـق الا مقفـر تعس تعـوى الذئـاب به وتأتمـر
هـو مسرح وانفض ملعبـه لم يبق لا عـين ولا أثـر
وروايـــة رويت وموجزهـا صحب مضـوا وأحبة هجروا
عبروا بهـا صـورا فمذ عبروا ضحك الزمان وقهقه القدر (٣)

وتمر به قافلة صغيرة فتعزز رأيه ، ويتأملها وهى تخب فى طريقها المضنى ، فيهز رأسه فى سمت الحكيم ويقول :

رأيت حياتنا . كم من غريب على جنبيـه بالأعيـاء مالا
وكم من ســائل لم يلـق ردا وقد ســأل الهواجر والرمالا
فان تجب القفـار عليه يوما ترد لـه ســـوافيها السؤالا
أقافلـة الحيـــاة أريتنيهــا خيـــالا أو ضـــلالا أو محالا (٤)

وهناك داء قتال كان يعانى منه ناجي وهو بلا ريب من دواعى تبرمه وتشاؤمه ومراراته ... ذلك هو (الظلم) ... والظلم أشد قسوة على الحساس المرهف الشاعر بنفسه ذى الاباء .

---

(١) الدكتور ناجى .. ديوان وراء الغمام ص ٦٣ قصيدة الليالى .
(٢) الدكتور ناجى .. ديوان ليالى القاهرة ص ٩٣ ملحمة السراب .
(٣) الدكتور ناجى .. ديوان ليالى القاهرة ص ٥٧ قصيدة روايه
(٤) الدكتور ناجى .. ديوان ليالى القاهرة ص ١٨٣ ــ ١٨٤ قصيدة القافلة الصغيرة .

قد تغشساني ظلام لا أرى فيه مغسداي ولا منقلبي
صامدا للظلام والظلم له معول يهدمني عن كثب
وأنا أدفعه عن منكبي بيدي حتى تهاوى منكبي
وتماسكت فلم يبق سوى كبرياء هي درع للأبي

انى أحنو عليه هو وأقدر موقفه وهو من طول مابلى بالدنيا وقاسى من حاضرها ، لا يرجو غيرها وما له يطمع فى غدها ويومها لا تراه عينه الا كابيا مرنقا ...

التقى بحبيبه فأخذ يستحثه عجلا على اسعاده قبل أن تولى الفرصة بأفول العمر ... ألا تلمح لهفته فى قوله :

هات أسعدنى ودعنى أسعدك قد دنا بعد التنائى موردك
وابلائى من ليالى التى قربت حينى وراحت تبعدك
لاتدعنى لليالى فغدا تجرح الفرقة ما تأسو يدك (١)

انه يتوجس خيفة من الغد شأن الحساسين متفززى الأعصاب ...

وليس هذا فحسب ، بل انه سيىء الظن بالأيام يتوهم أن القدر موكل به فاذا ظفر بمأمول تلفت اليه قلبه متسائلا :

قال لى القلب : أحقا ما بلغنا ؟ كيف نام القدر الساهر عنا ؟
أتراها خدعة حاقت بنا ؟ أتراها ظنة مما ظننا ؟ (٢)

وهو يصيح بكل من يمنيه بغد :

لا تقل لى فى غد موعدنا فالغد الموعود ناء كالنجوم (٣)

انه ليس متفائلا ...

ويعزو الأستاذ ابراهيم المصرى تشاؤم ناجى الى شدة احساسه بالعواطف الرقيقة (التى تضاعف شعوره بالألم عندما يعترض طريقه مشهد مؤثر أو فاجعة رهيبة ، أو مجرد سماع انسان يشكو أو آخر يستجدى أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفى عينيه أثر مجاهدة الدموع ! ..) (٤) .

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٥٦ — ٥٧ قصيدة الوداع .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٩ قصيدة الغد
(٣) « « . ديوان وراء الغمام ص ٩٧ « .
(٤) كتاب (صوت الجيل) للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٤١ .

وهو قدري يتأمل وينطوح به التفكير فيتساءل :

والام تدفعنا الحوادث فى عباب يلتطم
دفعت بمركبنا المقادير الخفية والنسم
خرجت وما تدرى النواة بأى صخر ترتطم
بدأت على ريح الرضا والله يدرى المختتم (١).

وهو ملول بطبعه ··· يحسب من ضيقه أن عقارب الساعة لا تنفرج الا لترجع الى الوراء ·

ياليالى العمر ما سر الليالى البطيئات المملات الطوال
مسرعات مبطئات ولها خفة الموت وأثقال الجبال
كاسفات البال عرجاء المنى عاثرات الحظ شوهاء الظلام
عجبنا للعمر يمضى مسرعا للمنايا بسلحفاة الملال (٢)

أهكذا كانت أيامه ؟ انها لكذلك ··· ولا تحتج عندى بضحكه فانه ضحك كالبكا ، ألم يقل :

طالما موهت بالضحك فما غير التمويه رأيا لك فيا
كلما تنظر فى عينى تسرى سرى الخافى ومعناى الخفيا
وترى فى عمق روحى زهرة قد سقاها الحزن دمعا أبديا
ويتراه الناس طلا ، وترى أنت دمعا غائما فى مقلتيا

هكذا كان ناجى وتلك كانت حقيقته :

وهو حالك اليأس ، ييأس فلا تلوح له بارقة من نور الأمل ، حتى ليتمنى الموت :

أصبحت من يأسى لو ان الردى يهتف بى ، صحت به هيا
هيا فما فى الأرض لى مطمح ولا أرى لى بعدها شيا
ما ذا بقائى ها هنا بعد ما نفضت منه اليوم كفيا (٣)

وتصيح به من رحمتك : علام الموت ؟ فيعجب لك كما تعجب له ويسألك بدوره :

ما يصنع الأبرار بالأرض التى ساوت من الأبرار والأوشاب
دوارة أبد السنين كعهدها من ليل آثام لصبح متاب

(١) الدكتور ناجى · ديوان وراء الغمام ص ٧٧ قصيدة ليالى الارق ·
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٢٠٨ قصيدة الخريف ·
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٥٨ قصيدة يأس على كأس ·

تغـلو الحياة بهـا الى أن تنتهي عند التراب رخيصة كتراب (١)

ولكنك لا تقتنع ··· وهو يدرك هذا تماما ··· ومن ثم يسوق اليك حججا أخرى :

ما بقـائى وأجمل العمر ولى وانتظارى حتى يحين الشـتاء
يطلع الفجر مرهقـا شاحب النـور عليه الـكلال والاعيـاء
وبنفسى دب المسـاء وحـل الليل من قبل أن يحين المساء (٢)

أراك لا تزال غير مقتنع بشكواه ··· ها هو ذا قد تركك وشأنك وراح ينشد آخر :

الا وفـى ألا معـين فى مـدلهم بلا صباح ؟
وكلمـا جـد لى أنـين تسـخر بى أنـة الرياح (٣)

فلما بددت الرياح صرخته أرسل فى الليل أنينه مبللا بالدموع :

يا أيها الليـل جئت أبكى وجئت أسـلو وجئت أنسى
طال عذابى وطـال شـكى ومـات قلبى وما تـأسى (٤)

فلما غشت ظلمة الليل لوعته هرع الى النهر يناديه :

يا نهـر لى جـذوة بجنبى هادئـة الجمـر بالنهـار
فان دنا الليـل برحـت بى وسـاكن الليـل كم أثار

وقفت حـران فى ازائـك فهـل تـرى منك مسـعد
وددت ألـقى بهـا لمائـك لعـلها فيـك تبـرد (٥)

يبدو أن جذوته استعصت على ماء النهر ··· ولكنه قلق بين ماض دام يرهقه وحاضر قاس يؤرقه :

ماض وكـم فيه من عثـار ومن عـذاب قـد انقضى
كـم قلت لا يرفع الستار ولا ادكار لمـا مضى (٦)

ها هو ذا خاطر جديد يلوح له ··· ليتجه الى البحر ··· تعال معى

---

(١) الدكتور ناجى · ديوان (وراء الغمام) ص ٨٣ قصيدة الشك ·
(٢) الدكتور ناجى · ديوان (ليالى القاهرة) ص ٩٢ ملحمة السراب ·
(٣) الدكتور ناجى · ديوان (وراء الغمام) ص ٦٥ ـ ٦٦ قصيدة الليالى
(٤) الدكتور ناجى · ديوان (وراء الغمام) ص ٧١ ·
(٥) الدكتور ناجى · ديوان (وراء الغمام) ص ٦٨ قصيدة الليالى ·
(٦) الدكتور ناجى · ديوان (وراء الغمام) ص ٦٩ ·

الى الشاطىء ... أرهف السمع .. انه يناجيه مناجاة شاعر ويهمس اليه همسا فيه شاعرية وحساسية ورفيف ... **انى أحس أنه تخفف من أعبائه حين أسمع منه :**

وجعلت النسيم زادا لروحى ... وشربت الظلال والأضواء
لكأن الأضواء مختلفات ... جعلت منك روضة غناء
مر بى عطرها فأسكر نفسى ... وسرى فى جوانحى كيف شاء (١)

انه شاعر ملهم ذلك الذى يعود الى الطبيعة نبع الجمال والسحر يعب منها فاذا الرشيف ظلال وأضواء وعطر وشعر ... انه هنا عصفور طليق حط على غدير يحسو منه فى هناءة الخلى ...

كدت أحمد للبحر العظيم فضله على شاعرنا ، لولا أنى سمعته من جديد يقول :

نشوة لم تطل ! صحا القلب منها ... مثل ما كان أو أشد عناء
انما يفهم الشبيه شبيها ... أيها البحر . نحن لسنا سواء
أنت باق ونحن حرب الليالى ... مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت عات ونحن كالزبد الذا ... هب يعلو حينا ويمضى جفاء
وعجيب اليك يممت وجهى ... اذ مللت الحياة والأحياء
أبتغى عندك التأسى وما تم ... لك ردا ولا تجيب نداء (٢)

ان لواعجه لا تهدأ ، وهمومه لا تفتر ، حتى البحر يغمره عجز عن غسل هذه الهموم .

اذن لا مطمح له فى الأرض ... ليشرئب الى القمر ... لعله أحنى ذلك الوضاء الجميل :

قمر الأمانى يا قمر ... انى بهم مستقم
أنت الشفاء المدخر ... فاسكب ضياءك فى دمى

أفرغ خلودك فى الشباب ... واخلع على قلبى الصفاء
أسفا لعمر كالحباب ... والكأس فائضة شقاء (٣)

وما ان رآه يمضى وراء سحابة تحنو عليه وتلثمه حتى صرخ فى ضراعة مكروبة :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان (وراء الغمام) ص ٨٥ قصيدة: خواطر الغروب .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٤٦ قصيدة استقبال القمر .
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٨٦ من قصيدة خواطر الغروب .

خـــذني اليك ونجـنــني مما أعـانى فى الثرى
قــدحى ترنق فاســقنى قـــدح الشـــعاع مطهـرا (١)

فلما لم يجد سميعا من الليل والنهر والبحر والقمر . لاذ بحمى النيل الوالد كما لاذ به قبله في القدم آباء وأجداد :

أقبلت للنيل المبارك شاكيا زمنى وقد كثرت على همومى
ومسحت كفى والجبـــين بمائه على أهـــدىء ثورة المحموم
وجلست أنثر جعبة معمورة بالذكريات جـديدها وقـديم (٢)

وقد تهادنه الأيام حينا فتحسن اليه بعود حميد ، ورد غائب فيرسل اللحن جذلا :

عادت لطـائرها الذى غناهــا وشــدا فهـاج حنينها وشجاها
اى الحظـــوظ أعـادها لوفيهـــا ونجى وحدتهـــا والف صباها
مشبوبة التحنان تكتم نارها عبثا وتأبى أن يبين لظاها
يا الفى المعبـــود سرك ذائـع نار الحنين دفينهـا أفشـاها (٣)

حتى اذا اطمأن الى زمانه استرد ما وهب ، وسلب ما أعطى ، فهل يلام ناجى اذا أن :

ماذا لقينـا من لقاء خاطف وعشـــية كالبرق حان ضحاها
يا ويح هاتيك الثـوانى لم تقف حتى نســيغ هناءة ذقناها
حتى يمتـع باليقين مـــكذب عينيه فى رؤيا يضل سناها
تمضى لها الأبصار مشعلة الهوى وتحول عنها ما تطيـق لقاها (٤)

ان الأمانى تلاقيه بقدر معلوم وتنصرم وقد استحال الظمأ أواما ... ولكنه ظمأ خصب وحرمان مبدع ، ذلك الذى يوحى اليه :

لم ترو منـــك نواظرى وخواطرى ورجعت أزكى مهجة وشفاها
ما أعذب رى الخواطر ...

مد الخريف على الرياض رواقه ومضى الربيع الطلق ما يغشاها
ما بالرياض ؟ كآبة فى أرضـــها وســحابة تغشى أديم ســماها
جمدت حمائم أيكها وأنا الذى شاكيتها فاغرورقت عينـــاها (٥)

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤٧ من القصيدة نفسها .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٦٥ كبرياء .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٢ قصيدة (رجوع الغريب) .
(٤ ، ٥) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٣ و ٩٤ قصيدة رجوع الغريب .

ترى ما حيلته لا سلوى الا أن يعلل نفسه بالأوهام :

هات قيثاري ودعني للخيال   واسقني الوهم ! وعلل بالمحال
ودع الصدق لمن ينشده   الحجى خصمي فاغمر بالضلال
وخذ الأنوار عني ، ربما   أجد الرحمة في جوف الليالي
خلني بالشوق استدني غدا   فغدا عندي كآباد طوال (١)

وطبيعي أن يزعزع هذا كله يقينه ويورثه الشك حتى في الواقع الملموس ... عاودته مرة ذكرى لقاء فلم يصدق نفسه ، وخال من أوهامه الحقيقة التي وقعت حلما عابرا ووهما كاذبا :

أحقا كنت في قربي   لعلي واهم وهما
تكلم سيد القلب   وقل لي : لم يكن حلما (٢)

وهو على فيض أساه ، وطول شكواه حمول صبور متعجل ... يستقبل العائد فيهتف :

سلام على غائب عن عيوني   حملت حطامي الى داره
وقلت لقلبي تمهل بنا   وخبئ شقاءك أو داره
تناسى الأسى هاهنا أو يقال   حملت الظلام لأنواره
أتغدو الى عتبات النعيم   بلفح الجحيم واعصاره (٣)

وهو على حرمانه لا ينفس على واحد مجدا ، ولكنه يغبط النابغ ويزكي نبوغه ويجامل ويكرم ويوفي الأحياء والأموات ... وسيأتي ذكر هذا في حديثي عن شعر المناسبات .

وهو ذو كبرياء ... يلقى من أيامه نصبا فيكابر ويقول :

يادهر لم أشك الكلال ولا   ملكت خطوب الدهر ارهاقي
عذبت أيامي بعفتها   وقتلتها بصفاء أخلاقي (٤)

أما عفته وصفاء أخلاقه فمما لا ينكره عليه أحد أما الشكوى فقد شكا وبكى ، بل لقد أردف النفي بالاثبات في القصيدة نفسها .. أوليست هذه شكوى .

ياكم غرست وكم سقيت وكم   نضرت من زهر وأوراق
ما حيلتي والأرض مجدبة   سيان اقلالي واغداقي

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٠٢ .قصيدة الغد
(٢) الدكتور ناجي . ديوان (وراء الغمام) ص ١٨ \قصيدة صلاة الحب .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان (ليالي القاهرة) ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ قصيدة ليالي القاهرة ..
(٤) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٧٥ قصيدة شكوى لزمن .

أين الذين رفعت فانحـــدروا وبنيتهم بنيـــان خـلاق (١)

ألا تشي هذه الأبيات بحسرته ، بتفجعه ؟

ان كنت لم أغنم فقـد ظفروا مني بمغفـرتي واشــفاقي

ألا ما أحوجه الى الاشفاق وما أجدره بالرثاء ... على أن مغفرته قول شاعر ، أما الانسان الجريح فهذا رأيه :

لـــكنني والجرح يلهب لى حـسى ويـكوى كـى احـراق
هيهـــات آنسى أنهـــم عبثوا ووفيت لم أعبث بميثاقى (٢)

ولكنه لا يضمر البغض لأحد وكيف وهو داعية الى الحب والسماحة :

تفرق الناس حول الشط واجتمعوا لهم به صخب عال وضوضاء
وآخـرون كسالى فى أماكنهم كأنهم فى رمال الشط أنضاء
هم الورى قبل افساد الزمان لهم وقبـل أن تتحـدى الحب بغضـاء
ضاقت نفوس بأحقـاد ولو سلمت فانها كســماء البحر روحاء (٣)

فلما انفض الناس من حوله لا يبالون بدعوته لاذ بحبيبه متعزيا :

مالى بهم ، أنت لى الدنيـا بأجمعها وما وعت ولقلبى منــك اغنـــاء

وهنا يصفو ناجى ويرق وتجود شاعريته بمثل :

اذا نطقت فما بالقول منتفع وان سـكت فان الصمت افشاء
وأيما لفظـة فالـــريح ناقلة والشط حاك لها والأفق أصداء
ياليل ! من علم الأطيار قصتنا وكيف تدرى الصبا أنا أحباء (٤)

والحب عنـده ليس حب الهوى فحسب ... ولـكن حب الوطن وحب الانسانية جمعاء ...

وحب ناجى لوطنه — ان احتاج حب الوطن الى دليل — يتمثل فى اشادته به ، ويتمثل فى دموعه التى سكبها فى أتراحه ، وأغانيه التى أرسلها فى أفراحه ...

ان مصر أثيرة عند ناجى أحسنت أم أساءت ... لقد خرج يوما منها مريضا ، ورجع اليها مكسور الساق يحمل عكازتين ، فلما أشرفت السفينة على بور سعيد هلل ناجى : رفاقى .. تلك مصر يارفاقى ..

(١ ، ٢) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٧٦ قصيدة شكوى الزمن .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٩٧ قصيدة السراب على البحر .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٩٨ قصيدة السراب على البحر .

هتفت وقـــد بـــدت مصر لعينى رفـاقى ! تـلك مصر يارفاقى
أتدفعنى وقـد هاضت جناحى وتجذبنى وقـد شـدت وثاقى
خرجت من الديار أجـر همى وعدت الى الديار أجر ساقى (١)

ومن هتاف الوطنية على لسان ناجى هذا البيت النابض فى وصف النسور المصرية ٠

وهلل السين اذ هلت طلائعنـا طـلائع المجـد من أبناء وادينـا

انى ألمح اعتزازه بمصر ووجده فى تشبثه بالانتساب اليهـا فى اضافته الى الضمير « نا » (طلائعنا ـ وادينا) ٠

وهاضت الأجنحة المحلقة واحترقت فذرف ناجى الدموع ٠٠ ذرفها عن ضعف المنكوب وان سلم شخصه على الأذى ، الشاعر بالمصيبة وان لم تمس منه الجسم ٠ ولكن قطعة من وطنه تتلظى فيحس قلبه لفح النار ، ولكن أخوة له فى الوطن يقضون فيبكى قلبه المصرى لحما ودما ، المصرى أملا وهوى ، يبكى قلبه وتبكى عينه ويبكى شعره من أجلهم ، من أجل مصر الأم ٠

يـا أمتى كـم دمـوع فى مآقينـا
نبـكى شـهيديك أم نبـكى أمانينـا

يـا أمتى ان بكينـا اليـوم معـذرة
فى الضعف ، بعض المآسى فوق أيدينا (٢)

ان شاعرنا مواطن صادق ، كبير الألم ٠٠٠ كبير العاطفة ٠

وعلى حبه لوطنه ، ضاق صدره مرة ، فقال وهو يصف الليل فى فينيسيا :

يارب ما أعجب هـذى البـلاد لا الليل فيها ! كل ليل صباح
وكل وجه فى حماها ضماد ومصر لا تنبت الا الجراح (٣)

ولكنى لا أحسب هذا ذما ٠ انه أشبه بالعتاب منه بالذم ٠٠٠ لقد كان فى ذلك الوقت متأثرا من حملة النقد التى أثارها عليه الأدباء على أثر ظهـور ديوانه (وراء الغمـام) ، فهو فى هذين البيتين يتحسس جرحه ٠

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ٠ ص ٧٣ قصيدة المآب ٠
(٢) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ص ١٨٤ قصيدة الأجنحة المحترقة ٠
(٣) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ٨٣ قصيدة الليل فى فينيسيا ٠

وفى ناجى وفاء للصديق ... رأى رفيقا من رفاق صباه عليلا محمولا بعد غربة طويلة فارتاع :

لمن العيون الفاترات ذبولا ... ومن الخيال موسدا محمولا
يا هم قلبى فى صبا أيامه ... وسهاد عينى فى الليالى الأولى
عيناى كذبتا وقلبى لم يدع ... دقاته شكا ولا تأويلا
وبكيت من يأس عليك فلم أذر ... عند المحاجر مدمعا مبذولا (١)

على أن (ناجى) يعتقد أن الدموع تجف سريعا ومن ثم فهى لا طائل تحتها ولا جدوى فيها ... ولكنه يجود بها فى المآسى كما يفعل كل حزين (٢) .

وتستطيع أن تستشف من شعر ناجى غير هذا ... تواضعه ... ان شاعرنا ليس من فريق أبى الطيب الذى يمدح فيقول :

أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما ... بشعرى أتاك المادحون مرددا
وما الدهر الا من رواة قصائدى ... اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ولكنه من طراز آخر ... مصقول ... حتى ... مدح ناجى زميله الأستاذ دسوقى أباظة فقال :

دسوقى اذا أقللت فاقبل تحيتى
فما أنا شاديهم ولا خيرهم أنا
ولكننى صوت المحبين كلهم
ومن روضك الغالى وبستانهم جنى (٣)

وقد سنح فى قصيدة (فى الظلام) بيت افتخر فيه ناجى بنفسه كالشعراء ، ولكنه مثال فرد أحسب أن القافية تحكمت فكان ... والبيت :

أيا مصر ما فيك العشية سامر ... ولا فيك من مصغ لشاعرك الفرد (٤)

وهو على تواضعه وتزكيته لأمجاد الغير ، عالى الهمة لا يخضع لغير الله :

---

(١) الدكتور ناجى : ديوان وراء الغمام ص ٨ قصيدة المآب
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ قصيدة الأجنحة المحترقة .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ١٥٥
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢ قصيدة فى الظلام .

انى لأحمل جعبتى متحـــديا زمنى بهـــا وحواسدى وخصومى
أحنى لعرش الله رأســا ما انحنى بالذل يوما فى رحاب عظيم (١)

ويطيب لناجى أحيانا أن ينظم الحكم كقوله :

قد صــار حب الحيــاة منـــا يقنـــع بالجيفـــة السبــاع
وعلم السمــح أن يضـــنا وثبت الجبن فى الطبــاع (٢)

وحكمته على صدقها لا تترك التأثير المنشود لأنه ليس شاعرها ولكنه شاعر الغزل وشادى الأيك ..

ومن غرائب ناجى قوله :

كم صحت والعين تذرى الدمع فى أســف
عـلى الجواهـــر فى كف الردى العــادى
ألا رقـــى للأباظيين تحفـــظهم
على الحــوادث من أنظــار حســاد (٣)

رقى والنظرة والحسد ! ... وهذا القول من طبيب يدخل عندى فى باب الطرافة لولا أن المقام مقام عزاء ...

***

وناجى مداعب فكه عذب الروح ... ومن طرائفه يداعب صديقا شاعرا جمعته به وليمة :

بصرت به والصحن بالصحن يلتقى فلم أر أبهى من غنيم وأظـرفا
تراءى له لحم فلم يدر عنــده تدبك من بعد الطـوى أم تخرفا
وأومأ لى ، باللحظ يســـألنى به أتعرفه ؟ أومأت باللحظ مسعفا
وقدمته للديك وهـــو كأنما يطير اليـه واثبـــا متلهفـــا
غنيم ! أخونا الديك قدمت ذا لذا فهذا لهذا بعــد لأى تعرفـــا
ومـــا هى الا لحظة وتغــازلا وقد رفعا بعد السلام التكلفا
فمال على الورك الشـــهى ممزقا ومال على الصدر النظيف منظفا
جزى الله أسنانا هناك عتيقـــة ظللن على الصحن الأباظى عكفا (٤)

وما دمت مسترسلا فى الضحك فاسمع :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٦٦ قصيدة كبرياء .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٦١ قصيدة الليالى .
(٣) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ١٦١ .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

تعير ناجي بالردنجوت جاءه / معارا فغامر واستعر أنت معطفا
وأقسم لو أن الردنجوت نلته / رجاد به من جاد كرها وسلفا
لقلبته ظهرا لبطن محيرا / به تحسبن الوجه من عبط قفا
رأيتك والعدس الأباظي قادم / كما انتفض المحموم بشر بالشفا
وناهيك بالعدس الأباظي منظر / عظيم كما هيأت للعين متحفا
على أنه ما جاء حتى رأيته / توارى كطيف لاح في الحلم واختفى
فلله من لفظ ببطنك راسب / قرير ومعناه برأسك قد طفا (١)

وهو ساخر حتى من نفسه ... اعتز في قصيدة باباته ومثل هذا الحديث يجد فيه صاحبه ويصطنع الشموخ أو يأخذ سمته ، ولكن ناجي الساخر السهل غلبته طبيعته البسيطة فقال :

قد عاش وهو معذب باباته / ولقد يلاقي يومه مستكبرا (٢)

ان الذى يسلم الروح أغلى ما فى الوجود مقسور مغلوب على أمره فاقد الحيلة ... ان البيت ، دعابة ساخر ، وسخرية ممرور .

وناجي يعرف أن الناس يروعها اجتماع الفن والعلم لاختلاف الطبيعتين ، وهو هنا يرد على السؤال الحائر (طب وشعر كيف يتفقان) ؟

والناس تسأل والهواجس جمة / طب وشعر كيف يتفقان
الشعر مرحمة القلوب وسره / هبة السماء ومنحة الديان
والطب مرحمة الجسوم ونبعه / من ذلك الفيض العلى الشان
ومن الغمام ومن معين خلقه / يجدان الهاما ويستقيان (٣)

هنيئا له ... لقد اجتمعت له الرحمتان .. الشعر والطب .

ترى هل استكملنا شخصيته ؟ هل وضحت صورته عندك ؟ احسب أن هناك خطا لم يمتد به الحديث الى مداه وهو خط العاطفة .. وعاطفة ناجي تمثل الجانب المشرق منه ... انه شاعر الجمال والحب ومن ثم فنزله خليق أن نفرد له فصلا مستقلا ... ولو أن عاطفته جزء من شخصيته التى نتلمسها في هذا الفصل وكان يمكن للكلام عن محايه أن يتصل هنا ... ولكن حديث حبه طويل ذو فنون وهو غالب على شعره .. فمن حقه أن نقف عنده وقفة خاصة ... فهيا الى ... « شاعر الغزل » .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٩ قصيدة عذاب .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٥ ــ ١٩٦ خمر الرضا .

شاعر الغزل

الغزل نشيد الحب .. والحب .. ما هو ؟ هل قرأت قصته ؟ ان (ناجى) يقول :

هى قصة الدنيا ، وكم من آدم منا له دمع على حـواء
كل به قيس اذا جن الدجى نزع الاباء وباح بالبرحاء
فاذا تداركه النهار طوى المدا مع فى الفؤاد وظن فى السعداء
كل له (ليلى) ومن لم يلقها فحياته عبث ومحض هباء
كل له (ليلى) يرى فى حبها سر الدنى وحقيقة الأشياء
ويرى الأمانى فى شعير غرامها ويرى السعادة فى أتم شقاء
الكون فى احسانها والعمر عند حنانها والخلد يوم لقاء (١)

وناجى يرى فى الحب متنفسه :

نظبت رحمة الوجود جميعا وبك الرحمة التى ليس تنضب
واذا ضاقت السماء بشجوى فالسماء التى بعينيك أرحب
كم تمنيت والصدور تجافينى وتزوروالوجوه تقطب
كم تمنيت صدرك السبر يرتاح على خفقة الطريد المعذب
هات وسدنى الحنان عليه جسدى متعب وروحى متعب(٢)

(جسدى متعب وروحى متعب) .(نضبت رحمة الوجود جميعا وبك الرحمة التى ليس تنضب) ... شقاء عيش تمسحه هناءة الحب ... هذه هى خلاصة قصته ...

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٢ و ١٨٣ قصيدة دين الاحباء

(٢) الدكتور ناجى ، ديوان (ليالى القاهرة) ص ١٩٤ قصيدة خمر الرضا .

وهو يؤمن بالحب دواء لكل داء :

يا أيها الحب المطهر للقلوب وغاسل الأرجاس والأدران (١)

وهو يستمرئه ... انى أقرأ وصفه له وكأنى أرى نشوان يترشف كأس الرحيق .... ألا يخيل اليك هذا حين تسمعه يقول عن الحب :

ما أعظم النجـوى الرفيعة كلما	يشـدو بهـا روحـان يحترقان
أنفا من الدنيا وفى جسديهمـا	ذل السجين وقسوة السـجان
فتطلعا نحو السماء وحلقـا	صعدا الى الآفاق يرتقيـان
وتعانقا خلف الغمام واترعـا	كأسيهما من نشوة وحنان (٢)

لقد تساءل الدكتور طه فى آخر حديثه عن ديوان ناجى (وراء الغمام) تساءل عن عنوان الديوان مقررا أنه لم يفهمه ، وخشى (أن يكون العنوان متكلفا ، كما أن كثيرا من المعانى والألفاظ ومن الأوزان والقوافى متكلف أيضا) (٣) .

لقد تذكرت سؤال أستاذنا الدكتور طه وأنا أقرأ هذه الأبيات ، لقد مر بنا أن (ناجى) كان شقيا بدنياه ، ضائقا بهذه الأرض ... وكم شكا منها اليها ... الى أهليا ، والى ليلها والى أنهارها والى بحارها فلم تجده الشكوى ولم يغن عنه الأنين شيئا ... وهذا عندى هو سر تطلعه الى فوق ... الى السماء ... الى وراء الغمام ...

هذه رغبة نفسه أطلقها على جمع من شعره ، وهو بضعة من تلك النفس ليتم العنوان كسائر شعر الديوان عن أمل مشرئب ... وليشف العنوان كسائر شعر الديوان عن روح محلقة ...

ولعل هذه الأبيات ولا سيما العبارات التى ميزتها تؤيد هذا التفسير عندك بعد أن أوحت به الى ...

وناجى رقيق فياض العاطفة تستطيع دمعة من الحبيب أن تطهر للدنيا التى أشقته بحرا من الآثام .... وهل أرق من هذه المناجاة :

يا مناجاتى وسرى	وخيالى وابتداعى
ومتـاعا لعيـونى	وشميمى وسماعى

---

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ .

(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ قصيدة خمر الرضا .

(٣) الدكتور طه كتابه حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٥٧ .

تبعث السلوى وتنسى المـوت مهتوك القناع
دمعة الحزن التى تسكبها فوق ذراعى (١)

وناجى العاشق روح شفافة هفافة مجنحة ... اسمعه معى تطرب لقوله :

سمـــوت كأنمـــا أمضى الى رب ينـــاديني
فلا قـلبى من الأرض ولا جســدى من الطين

سمـوت ودق احساسى وجـزت عـوالم البشـر
نسـيت صغائر النـاس غفرت اسـاءة القـدر (٢)

ولا ينفى هذا ارتداده الى بشريته أحيانا ورغبته فى الحب حسيا قائلا :

شـــفتى موتـــورة ظمـــآنة جنت جنـــونا (٣)

انه مضطرم العاطفة متأجج الرغبة ولكنه لا ينال ، فيفرغ شحنة الشوق الملتهب فى المصافحة :

وكـأن الآن كـــفى حملت ثـــارا دفينـا
تتمنـــاك حبيبـــا عندهـــا العمر ســجينا
طـائرا ألـــفى عـــلى راحتهـــا وكرا أمينـــا
وشـــعاعا قدســـيا هادىء النـــور مبينـــا (٤)

وأحيانا يضعف أمام رغبات الحس فيصيح فى الخلاء :

أجر شـــفتى من عذاب الظما أمـــا أذن الله **أن ترحمـــا**
أتمعن فى الهجـــر حتى ترانا بكينـــا دمـا واحترقنا فما (٥)

ولكن الذنب ليس بذنبه وانما هو الهوى وتلك جنايته .

واذا حل الهـــوى هيهات تدرى كيف كانا

---

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٥٢ قصيدة الميت الحى .
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٢١ قصيدة صلاة الحب .
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٢٣ قصيدة مصافحة الوداع .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٣ قصيدة مصافحة الوداع .
(٥) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٢٢ قصيدة العائد .

فاذا ما ملك الأنفس اصـلاها عـوانا
فهـو نصل مستقر ولهيب لا يـدانى (١)

وناجي ملتهب الحس تحس وقدته في بيتيه :

بورك الكرم والقطوف وأوقات كأن العنـاق فيهـا اعتصار
كلما أطلقتك كفى استردتك كمـا يحفـز الغريم التـار (٢)

ولكن (ناجى) ، كما نادى بالشعر الحس ، خاطب الروح .

كم صـدا الليـل وران الكرى الا أخا سـهد يغنى شـجاه
ناداك من أقصى الربى فاسـمعى لمن على طول الليـالى نداه
نادى أليفـا نام عن شـجوه عذب تجنيه عـزيز جنـاه
أحبـك الحب وغـنى به عف الأمانى والهـوى والشفاه
وانمـا الحب حديث العـلا أنشودة الخـلد ونحن الرواه (٣)

وكثيرا مايعف ناجي في شعره :

قـد عرفنا صـولة الجسم التى تحكم الحى وتطغى فى دمـاه
أمرتنا فعصـينا أمرهـا وأبينا الذل أن يغشى الجبـاه
حكم الطاغى فكنا فى العصـاة وطردنا خلف أسـوار الحياه

يالمنفيين ضـلا فى الوعـور دميا بالشوك فيهـا والصخور
كلمـا تقسو الليـالى عرفـا روعة الآلام فى المنفى الطهـور
طردا من ذلك الحلم الكبـير للحظوظ السود والليل الضرير
يقبسان النور من روحيهمـا كلما قد ضنت الدنيـا بنور (٤)

انه يسمى لذة الاثم حظا أسود وليلا ضريرا ... هنا روح متألقة ... وهو يتفانى في الحب حتى ليبذل من أجله ما يضن به على سواه :

يا لها من خطـة عميـاء لو أننى أبصر شـيئا لم أطعها
ولى الويـل اذا لبيتهـا ولى الويل اذا لم أتبعهـا
قد حنت رأسى ولو كل القـوى تشترى عزة نفسى لم أبعها (٥)

حتى اذا أرهقه الألم وأمضه الشجن صرخ يائسا مجهودا :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٤ أغنية فى هيكل الحب .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ١٠٢ السراب فى السجن .
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٢٦ أنوار .
(٤) المرجع نفسه ص ٤٤ ــ ٤٥ قصيدة الاطلال .
(٥) المرجع نفسه ص ٤٦ قصيدة الاطلال .

أعطني حريتي أطلق يدي   انني أعطيت ما استبقيت شي
آه من قيدك أدمى معصمي   لم أبقيه ؟ وما أبقى على
ما احتفاظي بعهود لم تصنها   والام الأسر والدنيا لدى
ها أنا جفت دموعي فاعف عنها   انها قبلك لم تبذل لحى (١)

انني أعطيت ما استبقيت شي ... أرأيت أجود منه وأندى ؟ أصغ معي الى (انني أعطيت ما استبقيت شي) ... أليست حلوة النغم .. والياء في الألفاظ الثلاثة أكسبت التعبير كله ليونة وطواعية ورفقا .. إنني لا أسامح بعد هذا من يأخذ (ناجي) بالخطأ النحوي في لفظة (شي) ، ويفسره على أن يقول (شيا) .. حسب الشاعر أن ينقل اهتزازات نفسه الى نفوس أخرى وأشهد أن بيته هز نفسي وأسرها ...

غرامك كان محراب المصلى   كأنى قد بلغت بك السماء
خلعت الآدمية فيه عنى   ولكن ما خلعت به الاباء
فلم أركع بساحته رياء   ولا كالعبد ذلا وانحناء
ولكنى حببتك حب حر   يموت متى أراد وكيف شاء (٢)

انه عزيز النفس ، ولقد تثور به عزة نفسه فيطرح من حرص عليه وضحى من أجله وبذل ما بذل :

وحبيب كان دنيا أملى   حبه المحراب والكعبة بيته
من مشى يوما على الورد له   فطريقى كان شوكا ومشيته
من سقى يوما بماء ظامئا   فأنا من قدح العمر سقيته
خفق القلب له مختلجا   خفقة المصباح اذ ينضب زيته
قد سلانى فتنكرت له   وطوى صفحة حبى فطويته (٣)

ولقد عنفت يوما ثورته واضطرمت فجمع مادة حبه ، رسائل الحبيب ... اتعرف ما فعل بها .. اساله يجيبك :

أشعلت فيها النار ترعى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا من بدئها لختامها (٤)

أتحسبه مرتاحا هادىء البال ؟ كلا .. لقد احترق هو أيضا .. بل بكى وهو يحترق :

---

(١) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٤٨ قصيدة الأطلال .
(٢) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٦٤ قصيدة كبرياء .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٦٤ كبرياء .
(٤) المصدر نفسه ص ٦٨ رسائل محترقة .

أحرقتها ورميت قلبي في صميم ضرامهـــا
وبـــكى الرمـــاد الآدمي على رمـاد غرامهـــا

انه وفي حتى في شموخ الكبرياء .. وقد يخيل اليه واليـــك انه تبـــدل وغير رأيه ، ولكنها حالات عارضة تعتريه كانسان ، وهو بعد هذا عاتي الوفاء فلا يزحزحه شيء .. أسمعت حديثه مع الريح ؟ لقد قالت له :

أيهـــا الســـاهر تغفـــو تذكـــر العهـــد وتصـــحو
واذا ما التـــأم جـــرح جـــد بالتـــذكار جـــرح
فتعـــلم كيف تنـــسى وتعـــلم كيف تمحـــو
أو كل الحـــب فـــي رأيـــك غفـــران وصـــفح

هـــاك فانظـــر عـــدد الرمل قلوبـــا ونســـاء
فتخـــير ما تشـــاء ذهب العمـــر هبـــاء
ضـــل في الأرض الذي ينشـــد أبناء الســـماء
أي روحانيـــة تعصـــر من طـــين ومـــاء (١)

اني ألمح تشوقك الى الجواب .. ها هو ذا جوابه :

أيها الريح أجـــل لكنمـــا هي حبي وتعـــلاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت أشرقت لي قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدها أطبقت عيـــني وعلى تذكارها وسدت رأسي (٢)

أتصدق أن مثل هذه الألحان لا تجد سميعا طروبا ، وأن صاحبها لا يحظى بتجاوب مسعد ؟ اني لست واهمة فها هو ذا الشاعر يحكي :

يا نداء كلمـــا أرســـلته رد مقهورا وبالحظ ارتطم
وهتافا من أغـــاريد المنى عاد لي وهو نواح ونـــدم
رب تمثال جمال وســـنا لاح لي والعيش شجو وظـــلم
ارتمى اللحن عليه جاثيـــا ليس يدرى أنه حســـن أصم (٣)

ان شاعرنا من طبعه الوفاء ولكن ماذا يفعل اذا أعوزه القـــدر لوفائه المتجاوب معه ، المغـــالي بحبه ، أملوم ان راد قلبه على التنقل في الهوى ؟

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٥١ قصيدة الأطلال .
(٢) المصدر نفسه ص ٥١ ــ ٥٢ القصيدة نفسها .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ ــ ٥٤ القصيدة نفسها .

يا قلب ! صهباء الهوى وبساطه	وكئوسه المتجاوبات الصدح
وقف على متنقلين على الهوى	يبغون من لذاته ما يسنح
متبدلين موائدا وأحبة	ما خاب من حب فآخر يفلح
فالحب آسيه وراء عليله	فيهم ، وبلسمه على ما يجرح (١)

حجج مغرية ... انى أكاد أتمثل كبرياءه المجروحة وهى تملى على قلبه حججها وكأنها أعذار تشفع لها فى نكث العهد ونقض الميثاق ... ولكن القلب العميد يبدو أنه غير مقتنع .. اذ لو أطاع لما صاح به شاعرنا :

يا قلب . ويح ثباتنا ماذا جنى	أترى شعاعا فى البقية يلمح (٢)

لا تحسب هذا البيت يأسا خالصا فان فى الشاعر ذماء من أمل يبعثه فيه عصيان القلب ... ترى هل عند القلب أسباب للعصيان ؟ .. هل وراء اصراره على الوفاء سر ؟ انه يريد أن يستوضحه ولكن كبرياءه مثخنة بالجراح لا تحتمل جديدا وهى تقسر نفسها قسرا على الاباء ماذا يفعل اذن ؟

ليصطنع الغضب ... ليزجر القلب فى تساؤل المستنكر وهو فى استنكاره يتلهف على جواب :

يا قلب . ويح ثباتنا ماذا جنى	أترى شعاعا فى البقية يلمح

وانتصر القلب الذى يدين بالوفاء ، وما هو ذا الشاعر يترطب لسانه بعتاب رقيق وكأنه صلاة :

يا أيها الحب المقدس هيكلا	ذاق الردى من عابديك مسبح
كثرت ضحاياه وطال قيامه	وصيامه فمتى رضاءك تمنح ؟
يا دوحة الأرواح يحمد عندها	فىء ويعبد زهرها المتفتح
أينال ظلك والرعاية عابث	بجلالك البادى وآخر يمزح
ويبيت يحرمه قتيل صبابة	قضى الحياة الى ظلالك يطمح (٣)

انه صفوح ... تسأله كيف الحال فيقول :

كم تقلبت على خنجره	لا الهوى مال ولا الجفن غفا
واذا القلب على غفرانه	كلما غار به النصل عفا (٤)

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٩٠ - ١٩١ قصيدة الختام .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٩١ قصيدة الختام .
(٣) المصدر نفسه ص ١٩١ - ١٩٢ والقصيدة نفسها
(٤) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٤١ قصيدة الأطلال .

انه محب رقيق ... رقيق حتى حين يلوح بالهجر والفراق :

وهب الطائر عن عشك طارا — جفت الغدران والثلج أغارا
هذه الدنيا قلوب جمدت — خبت الشعلة والجمر توارى
واذا ما قبس القلب غدا — من رماد لا تسله كيف صارا
لا تسل واذكر عذاب المصطلى — وهو يذكيه فلا يقبس نارا (١)

وهو فى الهجر حنان مشتاق :

كثر الهجر على القلب فهل — من سلو أو بعاد يرتضيه
أنت فجر من جمال وصبا — كل فجر طالع ذكرنيه
كيف جانبتك أبغى سلوة — ثم ناجيتك فى كل شبيه
أيها الساكن عينى ودمى — أين في الدنيا مكان لست فيه(٢)

ولا يلبث طويلا حتى يغلبه هواه فيستعطف :

الى محا ذنبى اليك وكفرا — هبنى أسأت ألم يحن أن تغفرا
ظمآن لو باع الأحبة قطرة — بالعمر والدنيا جميعا لاشترى
أخفى جراحك واستعز بفتكها — غريدك الشادى المحلق فى الذرى(٣)

ولناجى فى الحب تاريخ حافل ، وسأدعه يروى لك قصة من قصص حبه :

زرتنى كالربيع فى موكب الزهر له روعة وفيه رواء
ولك الوجه أومض الحسن فيه والتقى السحر عنده والذكاء
وشحوب كظل خمر وللندمان تجلو شحوبها الصهباء
ولك الجيد أتلعا أودع الصانع فيه من قدرة ما يشاء
قد من مرمر شعشعه الفجر بورد وصب فيه الضياء
وأنا الطائر الذى تصطبى نفسى السماوات والذرى الشماء
راشنى صائد رمانى فأدمانى وولى الجانى وعاش الداء (٤)

أيها أروع موكب الزهر أم معرض الحسن والسحر والذكاء ؟ هل راقك هذا اللون من الشحوب كظل الخمر ؟ وهل أطربك الغموض الفنى فى قوله (أودع الصانع فيه من قدرة ما يشاء) ؟

---

(١) المصدر نفسه ٤٨ القصيدة نفسها .
(٢) المصدر نفسه ٨٨ ــ ٨٩ قصيدة عذاب .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٩٢ ــ ٩٣ ملحمة السراب .

ومما رأى في حبه ، هذه المشاهد التي يرويها في هذه الأبيات :

عشت حتى أرى خمائل حبي — تتهاوى كشامخ ينهار
تحت عيني ويذبل الحسن فيها — ويموت الربيع والأنوار
ما انتفاع الفتى بموحش عيش — بقيت كأسه وطاح العقار
وبقاء البساط بعد الندامى — كأس سم بها يدور البوار
ما انتفاعي وتلك قافلة العيش وفي ركبها اللظى والدمار
الدمار الرهيب والعدم الشامل واللفح والضنى والأوار

أي عذاب!

انك تقرأ سيرة حبه فينالك البهر من كفاحه وتوزعه بين الرضا والغضب والشك واليقين والوفاء والغدر والتذكر والنسيان ..

زعم مرة أنه سلا فانطلق يرحب بضيف السلوان :

في كفه كأس يقدمها — تمحو العذاب وتغسل الندما

وتسأله عما في الكأس فيقول كالمستريح وهو المعنى :

فيض من النسيان يغمرني — اني لأحمد سيله العرما
مستسلما للموج يغمرني — فرحان حين أعانق العدما (٢)

أتصدق أنه (فرحان) حين يعانق (العدما) ؟ ... ان بيته الأخير يشي بحسرته ...

ماذا تنتظر أن يكون قلبه بعد أن شرب من هذه الكئوس وغص بها ، وعاني من هذه الأهواء لقد

مزقته فصار والله لا يقدر حتى أن يسأل الله رفقا
لجة بعد لجة كلما صارع ردت له أمانيه غرقى
فيلق بعد فيلق حجب الشمس ولم يبق للنواظر أفقا
وسنان الغروب تغزوه حمرا — وسنان العذاب تطعن زرقا
وجيوش الظلام تزحف زحفا — وثقال الأقدام تسحق سحقا (٣)

وهو على ولعه بالغيد يسخط أحيانا عليهن ، هؤلاء الدمى ، هؤلاء الأصنام الجميلة .... ويزجر قلبه فلا يرعوى :

---

(١) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ١٠١ السراب في السجن .

(٢) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٨٥ قصيدة النسيان .

(٣) الدكتورناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٧٢ قصيدة بعد الفراق .

يا قلبى الشـاكى المعـذب هـذه الشـكوى لمـا ؟
يا طفـل النـواح آن اليـوم أن تتعلمـا
أسفى لغـالى الدامـع تبـذله لمرتخص الدمى
تبـكى على العرش المصـو غ من المدامع والدمـا
تبـكى تـراب الأرض مصـبوغا بألوان السما (١)

لا تصدق ... انها ثورة غضب كسحابة صيف ... أتذكر طول شكواه من الحياة وتمنيه الموت واشادته (بمباهج) القبر ؟ أنعرف ماذا حدث بعد هذا ؟ لاح له من يحبه فسرعان ما نسى آلامه وانطلق يقول :

لولاك والعهـد الذى عقدت بينى وبينـك مهجتى ويدى
أضجعت جنبى جوف غيهبه وأرحت فيه بالى الجسد (٢)

ووافاه الحبيب وصفا له فتهلل كالطفل وابتهج كالعصـفور حط على جنة فيها الماء والحب والشجر ، لقد سمعته جذلان يقول :

طـابت بـك الأيام وافرحتـاه أنت الأمانى والغنى والحيـاة
فليـذهب الليـل غفرنـا لـه مادام هذا الصبح عقبى دجاه (٣)

انها الطفولة المتجددة الكامنة فى طبيعة كل عظيم ... ولعل هذه الطفولة المتجددة الكامنة فى طبيعته ، يرفدها حبـه للجمـال ، وهيامه بالحب ، هى التى حدت به الى التراجع عن تمنى الموت ، بل حدت به الى الاشفاق على نفسه منه حتى ليتلهف على الحياة ونعيمها ويتساءل .

يا أيهـا العـالم الأخـير ماذا ترى فيـك من نصيب
أراحـة فيـك للضـمير أم موعد فيك من حبيب (٤)

أرأيت انه يتمنى لو اتصلت مواعيده فى الأخرى كالأولى ... ولعله تذكر برمه بالحياة وأحس أنه يناقض نفسه بمخايلتها فراح يفسر جزعه من الموت بجهل الحى له ، ولو علمه لاستعذبه ..

كم يعذب المـوت لـو تراه أو كان فيـك اللقـاء يرجى
ينفض عـن عينـه كـراه ويقبل الراقد المسجى (٥)

لكن شـكا بمـا تجن خيم فـوق العقول جمعـا
عجبت للمـرء كـم يئن ويستطيب الحياة مرعى (٦)

(١) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٨٢ قصيدة الصنم الجميل .
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٤٩ قصيدة الميعاد .
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٢٥ قصيدة النوار .
(٤ ، ٥ ، ٦) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٦٠ قصيدة الليالى .

انه لا شك يلمح نفسه في هذه الأبيات :

ويتصل بهذا فزعه من الشيب نذير المغيب والحرمان من الحبيب :

يا ويلتا من عمرى الباقي هذا سواد تحت أحداقي
هذا بياض الشيب واعجبي من مغرب في زى اشراق (١)

ويبدو أن الحب يخرج المحب عن طوره ويبدل صورته أحيانا ، والا فكيف يقول ناجى السخى الخير مثل هذا البيت المشوب بالأنانية :

ونود لو خلت الحياة لنا كطريقنا وغدت بلا أحد (٢)

انه طغيان الحب ... فاعذره ..

وناجى المتدفق العاطفة فى الحب والفرح ، عميق العاطفة فى الحزن ، سخين الدمع ، شجى النواح .. سهر عند مريض حبيب يعنى به ، وكان وداعه فى الصباح فودعه بقصيدة باكية منها :

فيم الغدو غدا وأين رواحى ويح الصباح! لقد مضى بصباحى

....

يا هاتفا باسمى فديت منساديا رد النداء عليه حر نواحى
يا آسى الآسى لمت جراحتى وأسلت يوم نواك أى جراح
طأطأت للبين المشتت هامتى فى أى آلام وأى كفاح
هدم الضنى العادى قوى شكيمتى وثنى معاندتى ورد جماحى
وطغى على الملك الموسد بيننا فى لطف زنبقة وضعف أقاح (٣)

ولكنه ما لبث أن تسلى بحكم طبيعة الطفولة المتأصلة فى نفس الفنان فنراه بعد أن أطلق هذه الأنات :

عاد الشقى الى قديم شقائه ومحا من الدنيا السعادة ماحى
ويح الحياة اليوم أين جمالها وعلام اخفاقى بها ونجاحى
أنت الذى وهب الحياة لميت فى الأرض منفرد بغير طماح
أشرقت فى ظلمائها وغمامها وطلعت مثل البارق اللماح (٤)

تسلى ووجد على الاثر من يقول له :

أدركت عندك يومى الموعودا ولقيت فيك مثالى المنشودا

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٧٥ قصيدة شكوى الزمن
(٢) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٨٦ قصيدة المساء .
(٣) الدكتور ناجى وراء الغمام ص ١٤٢ قصيدة وداع المريض .
(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٤٣ قصيدة وداع المريض .

وافرحتى بك فرحة الطفل الذى يلهو ويخلق كل يوم عيدا
وافرحتى بك فرحة الطير الذى ملأ الروابى المصغيات نشيدا
طربت لصدحته وصفق طاهرا جذلان فى عرض الفضاء سعيدا
هى موكب من قلبه وحبيبه من راح تحسبه العيون وحيدا (١)

أرأيت ؟ ... انه لم يعد وحيدا .. واذا تأملت الاسم الذى خلعه على القصيدة (فرحة جديدة) وجدته ينم عن شعور بالتلهى ، وأنه قلب الصفحة وبدأ عهدا جديدا وفرحة جديدة . انها الطفولة كما قلت ، والأدب كما يقول شاعرنا نفسه (تنبت جذوره وعناصره فى الطفولة ، فمن المألوف أن الطفل ينام على اللحن الموسيقى ، ويستأنس بالغناء ، ويحب القصة الخيالية ، وقد يؤلفها هو نفسه .

والواقع أن الأديب طفل لم يكبر .. والأديب الصحيح من له خصائص الطفل ، فى فرحته بالأشياء ، وسذاجته ، وتهلله ، وضحكته، وخياله ، وفرحه وابتهاجه بالموسيقى) (٢) .

انه سريع الاستجابة ، كصفحة الغدير تتأثر بأوهن النسيم ، والحب عنده قد يولده العطف كما يولده الجمال والاعجاب سواء بسواء . لقد عرفنا أنه حزين .. والحزين من طبعه منعطف الى كل حزين .. منجذب الى كل شجى مكروب .. وهكذا .. يرى ناجى امرأة حزينة فيميل اليها وما أن يتأملها حتى يهتف :

فأنا ان لم أكن توأمها فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواح حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها (٣)

ثم يحدثها حديث ملهوف وجد خدن روحه وصورة نفسه :

قربى روحك منى قربى ظلليني واغمريني برضاها
وتعالى حدثيني . حدثى أنت مرآة شجونى وصداها (٤)

انه ينشد الظل والمأوى والسكينة .. ان قلبه مشبوب يهفو الى ... شىء ...

ويبدو ناجى لعينيك أحيانا حالما يتمتم :

أخيالا كان هذا كله ذلك الجسر الذى كنا عليه
والمصابيح التى فى جانبيه ذلك النيل وما فى شاطئيه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٤ قصيدة فرحة جديدة .
(٢) من مقال للدكتور ناجى عنوانه (سيكولوجية الأديب) مجلة الرسالة ص ١٩٤
(٣ ، ٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٥٦ ـ ١٥٧ قصيدة الى س .

وشعاع طوفت في مسائه وظلال رسبت في ضفتيه
وحبيب وادع في ساعدى ووعود نلتهـا من شفتيه (١)

وهو من دنياه الخاصة في عالم فريد وأحلام يقظته حشد حافل. فاذا رأيته صامتا فلا تحسبه ساكتا .. انه في صمته يتحدث ويسمع .

رفرف الصمت ولكن أقبلت من أقاصى السهل أصداء بعيده
تتهادى في عباب ساحر مرسل للشط أمواجا مديده
كم نداء خافت مبتعد تشتهي اذن الهوى أن تستعيده
عاد منسابا الى أعماقها هامسا فيها بأصداء جديده (٢)

رفرف الصمت ولكن ها هنا كل ما فيك من الحسن يغنى
آه كم من وتر نام على صدر عود نوم غاف مطمئن
وبه شتى لحون من أسى وحنين وأنين وتمن
رقد العاصف فيه وانطوت مهجة العود على صمت مرن (٣)

وناجي عينه نفاذة تلمح الحسن متبديا ومقنعا ، ويخاطبه في الغادة الهيفاء ، ويخاطبه في الراهبة الباكية سواء بسواء .. أما حديثه مع الأولى فذائع .. وأما حديثه مع الأخرى فها هو ذا :

يا ربة الحسن الذى تصبو له مهج العباد وترتجيه جميعا
الحسن من حق الورى وحملته متأبيا مستخفيا ممنوعا
في الدير مثواه وفي جنح الدجى يتحدر الحسن الشهيد دموعا
تتحرق الدنيا عليك وربما أوقدت نفسك في الظلام شموعا (٤)

وناجي متيم بالجمال ، يهواه بل ويقدسه ، حتى ليوقعه الهوى والتقديس أحيانا في مآزق انسانية لو صح هذا التعبير ، كهجائه لمكفوف بنى بحسناء (٥) ... وكان الظن بناجي الطبيب الشاعر في مثل هذا الموقف أن يحمد للأقدار تعويضها الرجل عن النور السليب ، الجمال الحبيب .. وهل الأبصار شيء ينال بالاكتساب الذى يحسب لصاحبه الفضل فيما كسب ثم عجز عنه ذلك الرجل حتى يلام عليه ؟ ولكن اعزاز ناجي للجمال وضنه به وتعصبه له هو الذى أثار غضبه على المسكين .

---

(١) الدكتور ناجي « ليالى القاهرة » ص ٢١٣ ــ ٢١٤ قصيدة الخريف .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٢١٤ قصيدة الخريف .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٢١٤ ــ ٢١٥ قصيدة الخريف .
(٤) » » ص ١١٠ قصيدة الراهبة الباكية .
(٥) الدكتور ناجي ، ديوان وراء الغمام ص ١١١ قصيدة هجاء أعمى بغيض .

وولع ناجى بالحب والجمال والشعر يعزى فيما يعزى الى شعور متأصل فيه بقصر عمره ·· وهذا الشعور يلوح لك فى ثنايا شعره كقوله :

ذاك عهدى لكن قلبك لم يقض ديون الهوى ولم يرع عهدا
والوعود التى وعدت فؤادى لا أرانى أعيش حتى تؤدى (١)

لهذا يريد أن ينتهب اللذات ، ولهذا يريد أن يتعجل المسرات · على أن السبب الأقوى لا يزال عندى يكمن فى طبيعته الخيرة وفطرته النقية التى تدفعه بوحى منها الى الخير والجمال والحب ·

وقد كان يحب الحب نفسه ومن ثم كان كل ما فى الحبيب يوحى اليه ، ويسر فى أذنه حديثا يعلنه شعره ·· فجماله ·· وحلاه ، وذكاؤه ورياه ، وغضبه ورضاه ·· عرائس الهام ·· وما بالغريب هذا ·· ولكنك تلمح فى مؤخرة الموكب الحافل ·· كلبا صغيرا ·· انه ميكى ·· وما عمله ؟

فيم السؤال وكل شيء طيب من أجلها
وبنفسه حب قصاراه الحياة بظلها
سارت وكل متاعه فى أن يسير بقربها

يستاف نعليها ويأبى فى الوجود منافسا
فاذا تخيل دانيا من تربها أو لامسا
يختال ملء نباحه زهوا ويخطر حارسا

فى وثبة هيهات يسأل ما يكون وراءها
الأمر كل الأمر أن يغدو يدافع دونها
والنفس تنكر فى الضحية عقلها وجنونها

اذن ليس (ميكى) فضولا فى الموكب الرائع ·· فى نظر الشاعر على الأقل ·· ان الصديق الصغير يؤدى عملا جليلا ·

ولقد راق ناجى تعريف تيوفيل جوتييه للحب حتى ليعده أحسن ما قيل على الاطلاق فى التعاريف الأدبية اذ الحب فيه (أن يسلم شخص

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٥٦ قصيدة ذات مساء ·
(٢) من شعر له لم ينشر بعنوان « ميكى » ·

تماما نفسه لآخر ، وأن يتنازل له عما يملك وما يعتقد . فلا يرى الا بعينه ولا يسمع الا بأذنه ، أى أن تصير واحدا فى اثنين ، بحيث لا يعرف هل أنت ، أم أنت الآخر ، فتمتص شعاعا ، وتنشر شعاعا ، فتصير القمر مرة ، والشمس أخرى ، وترى كل الخلق والوجود فى الشخص الآخر ، فينتقل مركز الحياة . عندك الى هناك . وتكون مستعدا لأكبر التضحيات وانكار الذات . ومستعدا لأن تتألم على الصدر الثانى كأنه صدرك أنت . والمعجزة أن تتضاعف وأنت تبذل ! هذا هو الحب !) (١) .

وفى التفصيل دلالة لا تخفى ، لأن سيرة شاعر الغزل . تفسير واف للتعريف ، وشعره فى هذا المجال آيات شواهد .

وما كنا لنحتفى بغزله هذه الحفاوة لولا أنه يتغزل عن شعور لا تقليد ، ووحى لا صنعة ، وطبيعة لا تكلفا .

وهذه النتائج التى استخلصتها الدراسة من شعره لم يغير منها الزمن . فبين يدى الآن شعره المخطوط وهو لحسن الحظ يحمل تاريخا مميزا اذ كتب عليه من ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ .. أى شعر سنيه الأخيرة .

وقد وقفت عند هذا الشعر وقفة خاصة عل فيها اتجاها آخر ، أو رأيا جديدا ، أو تحولا فى سيرة حياة .. فماذا وجدت ؟ الغناء هو الغناء ، والرفيف هو الرفيف ، والهفهفة كالعهد بها كلما لاح بها جمال أبو تبندى حسن أو ضاع عبير .. والعاطفة واها له منها .. لقد أحسست خفقها قويا معبرا فى شعر الغروب .. أحسستها واعجبنى جياشة عارمة لم يبترد لها أشواق ، ولم يرو منها أوام .

وقد سمعنا شعر الشباب فى ديوانى (وراء الغمام) وشعر الرجولة فى ديوان (ليالى القاهرة) ، فهل كان أحر جوى وأرق هوى من شعر المغيب هذا :

أنا وحدى فى البيد حيران هائم ... فمتى تذكر القفار الغمائم
رحمة يا سماء ان فمى جف ... وحلقى عن الموارد صائم
أيها الطاعم الكرى ملء جفنيك ... وجفنى من الكرى غير طاعم
أبكنى واستبد بى واقض ما شاء ... لك الحسن واظلم وخاصم
غير هذا النوى فان لياليه ... ظلال من المنايا حوائم
بالذى صنت عهده لم أخنه ... ومتى خانت الأكف المعاصم

---

(١) كتاب (كيف تفهم الناس) للدكتور ابراهيم ناجى ص ١١٨

والذى حكمه كأقدار عينيــك فمــا منهما ولا عنــه عاصم
أى صوت من الغيوب ينــادينى فأطوى له الدنى والمعــالم
قدر مشــعل على شفة تدعــو فأخطو على اللظى غير نــادم

صاغ ناجى هذا الشعر المشبوب فى يونية سنة ١٩٥١ أى قبل منيته بسنة وبضعة أشهر فجاء كشفق المغيب أشد ما يكون احمراره توهجا وضراما قبل الرحيل ، وكأن الشمس الذاهبة ولوع بالحيــاة والنور والنهار ، فهى تريق على صفحته ، وتذيع فى جوه اشواقهــا الملتهبة الدامية كى ٠٠ لا ينسى ٠

أبكنى واستبد بى واقض ماشاء لك الحســن وأظلم وخاصــم

لا أريد أن افسر هذا البيت كى لا يفسده الشرح والتفسير ولكنى سأترك الشاعر نفسه يفسره بشعره لعل تفسير الشعر بالشعر أكرم لجمال الفن ٠٠ وها هو ذا ناجى يفصح عن السر فى طلبه الغريب ٠

يــا روح روحى ودوائى وجــروحى
على قلبى تنقــلى واذهــبى وروحى
عــذابك يلهــم وهجــرانك يوحى
فمــا بالك بالقــرب ووجهــك الصــبوح

هذه فلسفة الحب ! ٠٠ لتكن ٠٠ سمها ما شئت ٠٠ ولكنهــا عندى ، حنان ٠٠٠

ومن شعر ناجى نتبين أنه ليس من الموحدين فى الحب فله محاب كثيرة ٠٠٠

وقد ذاق ألوانا من الحب فتارة يفتنه (السحر والذكاء) ، وآنا يغريه الجمال ٠

ومن محابه البيضاء الزاهرة والسمراء الفاتنــة ٠٠ وكما راعه الاشراق فى الأولى ســبته السـمرة والجاذبية فى الأخرى حتى كاد أن يعبدها ، ومن صلاته لها هذه الترنيمة :

ملــكى ومحــرابى وقــدس فــؤادى المتبتــل
لمن الجمــال الفخــم يرفل فى الغلائل والحلى
متألقــا فى خاطرى متألقــا فى المحفــل
أقبل بما ولت به الدنيــا وهات وعلل
وابسط جنــاحك فــوق قلبينا الغــداة وظلل

طر حيث شئت فان دنوت لناظرى فتمهل
واها لهذى الطلعة السمراء عند المجتلى
بغلائل الأضواء وشبتها رقاق الأنمل
وشت بشاشتها نضارة وجهك المتهلل
فكأن طفل الفجر نام على وساد جدول (١)

ولا أريد أن أزيد من الأمثلة فهى قريبة منا فى الصفحات السابقة .. وقد أرضى الحس كما أغلى من حب الروح سواء بسواء .

على أنه مغبون قلما ينال ، ولعل هذا هو السر فى تزعزع ثقته بالوفاء على رغبته فيه .

* * *

وشاعر الغزل تغنى به منذ طفولته الباكرة ، فقد ولد شاعرا كما يولد كل صادح غريدا .. جاد ناجى بالشعر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ! ...

وطبيعى ألا ننتظر فى مثل هذه السن الغضة فحولة أو تدفقا ،ولكن حسب الغلام ابن الثالثة عشرة أن يقول :

هل أنت سامعة أنينى يا غاية القلب الحزين

اذن عرف الأنين مبكرا ...

يا قبلة الحب الخفي وكعبة الأمل الدفين

لقد نم على الصغير شعره .. لقد عرف الحب غير أنه يخفيه .. وقد كانت له آمال تتعلق بهذا الحب وهو فى العاشرة أو نحوها ، حتى يمكن وصفها فى الثالثة عشرة بالدفينة ! .. وهذه الآمال بالطبع تتجاوز رغبات الطفولة الولوع بالحلوى واللعب :

انى ذكرتك باكيا والأفق مغبر الجبين
والشمس تبدو وهى تغرب شبه دامعة العيون
أمسيت أرقبها على صخر وموج البحر دونى

جلسة شعرية بلا مراء ...

والبحر مجنون العباب يهيج ثائره جنونى

---

(١) من شعر له لم ينشر بعنوان « سمراء المحفل » .

رفقا يا شاعرنا الصغير ·· مهلا يا صغيرنا الشاعر ...

ورضـــاك أنت وقايتى فاذا غضبت فمن يقينى

لقد ارتدت طفولته المتمردة المتعلقة بمجد الفن الى ضعفها اللائذ بالحنـــان يدفئها ويقيها · ان هـــذا أشبه بنداء طفل الى أمه يناشـــدها الرضا ويفزع من غضبها منه الى نداء الحبيبة ·

وهل ابن الثالثة عشرة الا طفل ·· ولكنه طفل واعد ·· وقـــد صدقت الأيام وعده فكان لنا منه شاعر الغزل ·

شعر ناجى

الشعر عندى هو النافذة التى اطل منهـا على الحياة
واشرف منها على الأبد ٠٠

وما وراء الأبد ٠٠

هو الهواء الذى اتنفسه

وهو البلسم داويت به جراح نفسى عندما عز الأساة
هذا هو شعرى ناجى

وما دام شعره كان نافذته الى الحياة ، اذن لقد ضمنه مرئياته وآراءه وانفعالاته بما شاهد ورأى ٠

ونحن نريد هنا أن نطالع هذه المشاهد والآراء والانفعالات ثم نحكم عليها ٠٠ لا كما نحكم على العرض السينمائى نلقى الحكم فى كلمة أو عبارة ثم نمضى فى طريقنا المرسوم بعد أن ننسى الرواية بعيوبها ومحاسنها على السواء ٠٠ كلا ٠٠ اننا نريد أن نرى شعر ناجى بمنظار آخر ونحكم له أو عليه حكما من طراز آخر ٠٠ لقد كان الشاعر يحب من الناقد (أن تكون وظيفته كاتب حسابات الفن) ، (عليه أن يدون الحسابات ، ويرصد الدخل والخرج ، ويعين الرصيد ، ويمحو من العملة القديمة ليبدلها بعملة جديدة ، فهو من ثم يكون حافظ التراث القومى والتراث الانسانى) (١) ٠

---

(١) الدكتور ناجى (رسالة الحياة) ص ٨٣

ويرى طبيبنا الشاعر أن من واجب الناقد أيضا (أن يحاول وضع العمل الأدبي في مكانه من القيم الانسانية الثابتة ، بعبـــارة أخرى يتعدى الخصوص للعموم ، وهو لن يصل الى هذه النتيجة الا اذا اعتبر النقد وعيا للحياة الانسانية) (١) .

اذن تعال معي نبحث عن مواطن الوعي للحياة الانسانية في شعر ناجي .. ولكن بعد أن نبحث معا المادة التي صيغ منها هذا الشعر .

لقد رأيت كيف استهل ديوانه الأول (**وراء الغمام**) بالانين الذي لم يخفت حتى انتهى منه . فاذا نحيته واستقبلت ديوانه الآخر (**ليالي القاهرة**) فان عينيك لا تكاد تتحول عن شكوى الألم في صور شتى . فقصيدته (في الظلام) فيها شجن قتال وظمأ مرد وطيوف رعب وآلام ووجد وجهد وأنفاس مضــطرمة وضيق جاثم ووحدة ووحشـــة وركود ودموع ودم وأشواك وضنى وتعذيب ، وهي في جملتها كابية مظلمة الا ما يومض فيها من حين الى آخر . مثل قوله :

فيــا أيكة مد الهــوى من ظلالهــا ربيعا على قلبي وروضا من السعد (٢)

وقصـــيدة أنوار . فيها الألم أيضا ولو أنه ذكرى تضاعف النعيـــم الزائل ولا ترنق صفاه :

يا من غفت والفجر من دارهـــا شعشع في الآفاق أبهى سناه
قد طرق الباب فتى متعب طال به السـير وكلت خطــاه
نقل في الأيـــام أقـــــدامه يبغي خيـــالا ماثــلا في منــاه
عندك قد حط رحال المـــنى وفي حمى حسنك ألقى عصاه (٣)

وقصيدة (أحلام سوداء) عنــوانها كاف للدلالة على ما فيهـــا من سوداوية وافتكار وشك وظنون وحذر وغيوم وأنين وجراح .. وقصيدة (الميعاد الضائع) قصيدة خابية فيها الفزع واللهفة وقوة الحياة وشقاء الأيام والأقدار المسيئة والأحزان والنحيب والدموع والأمل الضـــائع والسعادة الذاهبة .

لا تخل هذه الالفاظ من عندي في معرض التحليل ولكنها ألفاظه هو المبثوثة في قصـــائده .. وانما عملي أنا هو رصـــدها لدلالتها على نفسيته .

---

(١) الدكتور ناجي رسالة الحياة ص ٨٥ .
(٢) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ١٧ – ٢٤ قصيدة في الظلام .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥ قصيدة أنوار .

والقصائد الباقيات ؟ ها هي :

(اثنان في سيارة) فيها سوداوية ٠٠ ألم يستهلها بقوله :

العمر أكثره سدى وأقله صفو يتاح كأنه عمران

وفيها اللوعة والحرمان والاستخفاف بالحياة وغايتها ٠

(لقاء فى الليل) وهذه أيضا لم تخل (مما يسوء) وحوالك ٠

(ختام الليالى) فيها الهجران والتعذيب والفراق واللهيب والدموع .

(الاطلال) انها قصة حب عاثر ، التقيا وتحابا ثم انتهت القصة بأنها هى صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ٠٠ وطبيعى أنك لا تنتظر من هذه القصة شعرا منطلقا بل دموعا منظومة ٠٠٠

(ذات مساء) و (زاوية) و (يأس على كأس) كلها حزينة

(عاصفة روح) قاتمة كابية نفض فيها يده من كل شىء

(كبرياء) فيها الشقاء والسراب والشجن والدماء والضياع والهموم فماذا تبقى فى عالم البؤس ؟

(ذكرى) حمدا لله ٠٠ ان الذكرى التى طافت به باسمة هذه المرة

(رسائل محترقة) وماذا تخلف الرسائل المحترقة غير الرماد والآلام ؟

(الغريب) توجس من الغد وجراح ولظى ووحدة ٠

(بعد الفراق) انه فيها يتمزق ٠

(شكوى الزمن) ترى ما الذى يشكو المرء غير الجحود والتعذيب؟ لم يشذ ناجى ٠

(كل الورى) امتداد للشكوى ٠

(راقصة) انه يتلهى بوصف ما يسر

(الصنم الجميل) بكاء وندم

(شكوك) فيها دم وندم وموت وعدم ٠٠٠ جراح وانتقام وعصف ولذع وسخط وجوى وبرم واضطرام

(النسيان) ، (المساء) ، (عذاب) لا يخفت فيا أنينه عما سبق

(ملحمة السراب)

(السراب فى الصحراء) سراب وصحراء ! ما وراءهما غير الاقفار والظمأ اللذين خلفـا فى نفسه السقم والبرحاء والضيق واللهفة والتفزز والجراح والأشواك والبأس والحيرة .. لولا الأمل الذى كان يخايله لقضى عليه.

(السراب على البحر) سيان البحر والصحراء عنده فى الاقفـار والألم ...

(السراب فى السجن) ليس بعد السجن ضيق .

(آمال كاذبة) ، (البعث) قصيدتان كابيتان

(المنصورة) ، (وقفة على دار) ، (الراهبة الباكية) ، (من ن الى ع) كلها عليها مسحة الحزن .

يلى هذا شعر المناسبات ويشغل أكثر من ربع الديوان ولنا عنده وقفة بعد قليل .

ثم تأتى هذه المقطوعات والقصائد .

(حب على الصحراء) فيها جفاف وسراب وحر وأباطيل وعبوس

(القافلة الصغيرة) يراها ويرى الدنيا معها ومثلها خيالا أو ضلالا، أو محالا .

(عاصفة) فيها الضجر والضنك والحظ الغارب والبلاء والعصف

(عينان) فيها يباب وعقم وحسرة وأسف

(اليها) حب محروم

(بعد الحب) يأس

(أنوار المدينة) شكوى من القدر .

(خمر الرضا) رحمة ناضبة وشجى ومجافاة وازورار وتقطيب

(غصن صغير) فيها صبر يتعلل بالأمل

(الخريف) لا تخلو ، ففيها غمام وكآبة وسقم وهم وشحوب وحزن وضباب وملل وحب ضائع وحسرة وبال مشتت وجرح .

(العائد) حتى هذه ليست فيها فرحة اللقاء كما يوحى العنوان

وكان من صنع هذه الهموم شيوع هذه الألفاظ في شعره :

سراب ـ خداع ـ جرح ـ دامى ـ حزن ـ بكاء ـ ملل ـ كآبة ـ دمعة ـ عبوسة ـ ظلمة ـ شك ـ أحداث ـ آلام ـ لهيب ـ أوصاب ـ حيرة المرتاب ـ لهفة ـ تمزق ـ هم مفرق ـ شكوى ـ أنين ـ يأس ـ عذاب ـ لظى ـ حزان ـ احتراق ـ آهة ـ شقاء ـ أوام ـ صدى ـ تضرم ـ شجن ـ ضنك ـ نكد ـ جرب للحياة ـ جزع ـ ضيعة الرشد ـ الصبر ـ الجوى ـ عثار ـ شتات ـ جذوة ـ زفرة ٠

ولما كان الحب عنده دواء لكل داء ، وكان همه ومتنفسه ، يشقيه ويرضيه ، ويسره ويبكيه ، فهو من ثم قد أشاع في شعره هذه الألفاظ :

سلوى ـ راحة ـ أمل ـ حنين ـ حنان ـ رقة ـ شهد الرضا ـ رحيق ـ ضحك طفلين ـ ربوة ـ شدو ـ فتنة ـ رحمة تبتسم ـ نوار الخميلة ـ البرء المرجى ـ نعمى ـ الجدول المنساب ـ النور الطهور ـ الحسن ـ الظلال ـ الأضواء ـ روضة ـ ضاحك ـ مخضل ـ أكمام ـ الأماني البيض ـ ائتلاق النجم ـ نسيم ـ نبراس ـ وحى ـ الهام ـ فرح رقص ـ أمن ٠

وقد رصدت هذه الألفاظ المنبثة في شعره لأنها عندى مفاتيح نفسه ، فعندما أراه يكثر من استعمال لفظ « العقوق » أحس أن في حياته جحودا يضنيه ، فينفسه في هذا اللفظ الذى يردده أراد أم لم يرد ٠

أما ألفاظ الطب في شعره من مثل : أساه ، جراح ، حمى ، هذيان ، ضماد ، شحوب ٠ فدلالتها واضحة ٠٠ انها غلبة المهنة على أسلوب صاحبها ، أليس شاعرنا طبيبا ؟

هل اقتصر شعر ناجى في ديوانه على الشكوى والحب ؟

ان الشعر نافذته الى الحياة ٠٠ والحياة بلا ريب زاخرة بألوان أخرى فهل صورها ناجى في شعره ؟

ان له قصيدة بعنوان (الحياة) (١) ٠٠ فلنرجع اليها ٠٠٠

كم غادة بين الصبا والشباب　　تأنق الصانع في صنعها
تخطر والأنظار تحدو الركاب　　ولفظة الاعجاب في سمعها

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٢٩

وأنظر الى سـيارة كالأجـل   تخطف خطفـا لا تبالى الزحام
هذا الردى الجارى اختراع الرجل   هل بعد صنع الموت شيء يرام

وانظر الى هذا القوى الجسـد   الباتر العزم الشديد الكفـاح
قد أقبل الليـل فمحى الجلد   فى رجـل يدأب منذ الصباح (١)

هذا بعض ما جـاء فى القصـيدة ، سقته على سبيل المثال ٠٠ والقصيدة فى مجموعها لوحة كبيرة عليها صور تخطيطية سريعة تعطيك الملامح الظاهرة والهيئات ٠٠ واللوحة على ازدحامها تستقصيها عينك عند مطالعتها ، ولست فى حاجة الى الوقوف طويلا لأنه ليس هناك ما تتأمله مما يبحث عنه الشعراء وراء الملامح والهيئات ٠٠ ولعل الشاعر قد أحس بهذا فاستأنى فى آخر القصيدة عندما فطن الى مصير الجمال والغنى ، ولكنها أيضا فطنة العجلان الذى يقف عند السطح ولا يسبر الاعماق ٠ وهل فينا من يجهل أن الفناء غاية كل حى ؟

وفى موكب الحياة ، استوقفته الراقصة مرتين ٠٠ أما راقصـة (ليالى القاهرة) (٢) ، فهو معها رسام يصور بريشته ما يرى من مفاتن ، ولا عليه أن يروى قصتها ويقرأ صدرها أحزانه ولواعجه ٠

وأما راقصة (وراء الغمام) فقد رق لها ورثى لحالهـا ٠٠ وانا لنلمح فى قصيدة هذا الديوان (قلب راقصة) نلمح الانسـان فى الشاعر الفنان ، فلم ينظر الى الراقصـة نظرة عابث لا يرى فيها الا تسلية ومتعة رخيصة ، ولكنه رآها انسانا يعصره الصبر والألم ، يضحك وهو يبكى ، ويبيع السرور وهو مهموم ، يرقص وهو يموت كالذبيح ٠

لقد دخل الشاعر المرقص فرارا من الواقع فى جهامته ، الدنيـا ومشاكلها ، وبهرته الأضـواء بادىء الأمر ، فكاد يكفر بعلمه وفنه ، وكلاهما أضناه ، وأوشك أن يختزل الحياة فى قد يميس ، وكأس تدور ، وخمر ونور ٠٠

لم لا أثور اليـوم ثورتهـم   لم لا أجرب ما يحبـونا
لم لا أصيح اليوم صيحتهم   لم لا أضـج كما يضجونا (٣)

لم لا تذوق كئوسـهم شفتى   ان الحجـا سـمى وتدميرى
فى ذمة الشـيطان فلسـفتى   ورزانتى ووقـار تفكيرى

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢ ــ ٣٣ قصيدة الحياة ٠
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٨ ــ ٣٩ قصيدة قلب راقصة ٠
(٣) المصدر نفسه والقصيدة نفسها ص ٣٨ ٠

يا قلب ضقت وما هنا سعة ومجال مصفود بأغلال
أتقول أعمار مضيعة ماذا صنعت بعمرك الخالى (١)

ولكن تساميه انتفض فجأة فلم يعد يرى فيها الراقصة المشتهاة ، ولكن الانسان الأسوان الخليق بالرثاء ، فرثى لها وأسى عليها ومضى يقول :

عجبا لقلب كان مطمعه طربا فجاء الأمر بالعكس
وأشد ما فى الكون أجمعه بين القلوب أواصر البؤس

....

من أنت يا من روحها اقتربت منى وخاطب دمعها روحى
صبته فى كأس وما سكبت فيه سوى أنات مذبوح (٢)

ولكنه بعد لقائها تركها تمضى لحالها وترتد الى ما كانت فيه دون أن يكشف غشاوتها ويردها الى نفسها أو حتى يستثير الضمير الاجتماعى من أجلها ، ويطالب بالعيش الكريم لها علها تتوب .

وقد اصطنع ناجى الحكمة واتخذ سمت الشيوخ المجربين فى بعض شعره المخطوط ، فنظر الى الراقصات نظرة عارف مجرب غير طامع فى مزيد ، وان كانت أبياته تشى برغبة مقنعة لأنها تؤثر الاحتشام ... واليك بعض أبيات **قالها فى مرقص :**

نادتنى الأنوار فيك كأنما قفز الشعاع الى الخواطر واثبا
فكأن طيرا من ثنايا دوحة يسعى الى نفسى الخفية هاربا
متعلقا بخناقها ومصفقا بجناحه بين الجوانح ضاربا
وكأن ديرا قام فيه معربد ليهز أجراسا ويوقظ راهبا
راجعت نفسى ، ويح نفسى،ما الذى أرجو من الدنيا وقد ولى الصبا
يا هاته الدار التى وافيتها غرا كما تهوى الحداثة لاعبا
وأنا الذى خلقت له ولقلبه هذى المفاتن مسرحا وكواعبا
فنشرن لى مثل النضار ذوائبا وصقلن لى مثل الرخام ترائبا
الكأس غير الكأس لا ألقى بها طعما كأمس،ولست ذاك الشاربا
فكأننى فى اثر حلم قد عفى قدحا ومسكوبا هناك وساكبا
هذى الدمى المتأبيات هصرتها عودا ، ورويت الشباب مآربا

أليست هذه صحوة وشوق غاف ، ويقظة هوى وسنان ؟

★★★

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٨ قصيدة قلب راقصة .
(٢) » » » » » ص ٤٣ ـ٤٤ قصيدة قلب راقصة

وفي شعر ناجي غناء ٠٠ أما سمعته يغني ؟ ٠٠ ان لم تكن فاطرب الآن :

أنت ان تـؤمني بحبي كفـاني ... لا غرامي ولا جمـالك فـاني
فتعـالي روى الظمـا في عيوني ... واجفوني لقطرة من حنـان
أي روح أحسه أي سـحر ... سكبت في هاته العينـان ؟
وكأني محلق في سمـاء ... ومطل منها على الأكـوان
مستعز بما منحت ، قوى ... أجمع الكون كلـه في عناني (١)

غناء عذب ٠٠ أليس كذلك ٠٠ أيحق له بعد هذا أن يقول :

انما الشـعر مزهر ... قد حكى قصة الأمم
وبأوتـاره المـنى ... تتـلاقى وتزدحـم
هـو نـاى مرجـع ... لشـجى وما كتم
هو قيثـارة الزمـا ... ن ونجـواه من قدم
هو أنشـودة الحيـا ... ة وفيض من النغم (٢)

أيطربك الناى المرن ؟ نعم بلا مراء ٠٠ واذا احترق الناى الطروب ؟ لا ريب أنك تأسى ، ولـكن رجع الأنغام يرتد اليك من بعيد فتستروح اللحن كاملا من جديد ٠٠ ويختلط الدمع على النـاى المحترق بذكرى النشيد ، أما أنت وأنا فقصارانا الدمع ٠٠ ومن بكى الجمـال الغارب فقد أوفى ٠٠ وأما الشاعر الخلاق فان الحزن يلح به فيهيم وحـده في ظلام الليل المحجب بالغوامض والأسرار ٠٠ يصوغ الدمع لحنـا ويبعث من الشعر نايا ، وهو المتهدم المتفاني ، وكأنه يمثل صنع الله الذى يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ثم يمضي يوقع أحزانه على الناى الجديد حتى يرق حبيبه ويسرى اليه ٠٠ فاذا لاح له الخيال المرموق هفا اليه ، ورف بجناحين واستعد ليحتويه فاذا به لايجد شيئا ٠٠ واذا بكل هذا حلم يتلاشى كما يتلاشى غبش العتمة على أنـوار الفجر ، ويفتح الشاعر عينيه ويحدق فيما حوله ، ويصغي ويصغي فاذا الخيال هباء ، واذا الألحان أصداء ٠

كم مرة يـا حبيبى ... والليل يغشى البرايـا
أهيم وحدى وما في ... الظلام شـاك سوايا
أضـير الدمع لحنـا ... وأجعل الشعر نايـا
وهـل يلبى حطـام ... أشـعلته بجـوايا

(١) الدكتور ناجي ٠ ديوان ليالي القاهرة ص ١٥١ ــ ١٥٢ قصيدة اغنية ٠
(٢) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٦٧ الى روح الشاعر ٠

النار توغل فيه	والريح تذرو البقايا
ما أتعس الناى بين	المنى وبين المنايا
يشدو ويشدو حزينا	مرجعا شكوايا
مستعطفا من طوينا	على هواه الطوايا
حتى يلوح خيال	عرفته فى صبايا
يدنو الى وتدنو	من ثغره شفتايا
اذا بحلمى تلاشى	واستيقظت عينايا
ورحت أصغى وأصغى	لم ألف الا صدايا (١)

* * *

وفى شعر ناجى قصائد فى مناسبات معينة ٠٠ أذكر هذه هنا على سبيل الاشارة والحصر فحسب ، اذ أنى سأفرد لها فصلا خاصا لأن شعر المناسبات عندى لا يحسب للشاعر لأنه لم يؤاته طبيعة ، بل تكلفا ، فهو ليس بضعة من نفسه ، ومن ثم فهو ليس جزءا من شعره وان جهل اسمه .

وفى شعر ناجى قصائد حماسية ٠٠ ولكنه عندى شاعر الغزل فحسب ولا تنهض تلك القصائد حجة فى مقام الجدل ٠٠ أسمعت نداء الشباب ؟ اليك النداء :

وطن دعا وفتى أجاب	بوركت يا عزم الشباب
يافتية النيل المسالم	والكريم بلا حساب
جناته مرآتكم	ولكم خلائقها العذاب
ولكم جمال الزهر رف	على الأماليد الرطاب
ولكم فؤاد النهر رق	على المجانى والشعاب
يمضى فيضحك للسهول	ولا يضن على الهضاب (٢)

أحسب أن ليس بى حاجة الى مزيد فمثل هذه الألفاظ الندية العذبة ، ألفاظ المسالمة والكرم والزهر والجمال والرفيف والنهر والرقة والضحك من طبعها أن ترقق من صوت المنادى فلا يسمع البعيد ولا يوقظ النائم ، ولا حتى ينبه الغافل ٠٠ ومثل هذه الألفاظ المشرقة المترفة فى عالم اللغة تدخرها مخيلة الشعراء لتسخو بها فى وصف الحبيب والقلب المشبوب ومجالى الطبيعة فى حضرة المعشوق المرموق ٠٠ الم أقل لكم ان

---

(١) الدكتور ناجى وراء الغمام ص ٢٥ قصيدة الناى المحترق ٠

(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٥٨ قصيدة نداء الشباب

الشاعر لا يحسن الا الغزل ؟ فاذا تحمس وأرسل (نداء للشباب) خرج كهمس المنى ، أو وسوسة الموج للشاطىء ؟

ولكن لانظلم الرجل ، نكمل الآية (لاتقربوا الصلاة ٠٠) ، لقد ورد في شعر النداء بعد هذا ألفاظ الغيل والليوث والناب وحب مصر والفداء والتضحية ٠٠ وردت حقا هذه الألفاظ القوية ولكن في صياغة رقيقة كالمعتاد من شعر ناجى ، فهونت من فعلهـا كما يلف قفاز الحرير الأبيض اليد الخشنة فيحجب من الخشونة مظهرها ووقعها ٠٠ ولك الكلمة الأخيرة بعد هذا ٠٠ هاهو ذا النداء :

أصبحتم كالغيل تحجبه الليوث بألف ناب
قل للشباب : اليوم يومكم الأغر المستطاب
اليوم يبدو حب مصر فلا خفـاء ولا حجـاب
ان كان اثما يا شباب فلا رجوع ولا متاب
الله ينظر والليـالى عندها لكم الحسـاب
هاتوا الفـدا الغـالى لمصر وأرخصوه كالتراب
المال ، والأرواح كل ضـحية ولهـا ثواب

والآن حدثني هل يقـوى هذا النداء على الاستنفار واذكاء العزائم ؟

ولعل ناجي أحس هذا المعنى فضاعف من حماسـته في القصيدة التالية ، التي أرسلها (في يوم الشباب) ؛ أو بمعنى أدق ضاعف من حماسة شعره ٠٠ فان حماسة نفسه التواقة الى خير هذا الوطن وأهله لاتحتاج الى مزيد ٠٠ وما بالمدح هذا ولكنه تسـجيل للحقيقة وتقرير للواقع الذى يعرفه عنه مخالطوه ، ومرضاه وينبض به شعره وأدبه وما نحن بمنصفين ان لم نحمد الخير لأهله ، ونغبط على الفضل ذويه ٠٠

وقصيدة ناجي (في يوم الشباب) فيها أبيات عامرة كقوله :

قل للذى يبغى الصلاح لقومه بنبيل صـنع أو شريف جهاد
بالطب أو بالشعر أو بكليهما كل الجهود فداء هذا الوادى
يا أيها الوطن الجريح وجرحه بصميم كل حشاشـة وفؤاد
قل للبناة المصلحين ألا اخلقوا شم الذرا ورواسـخ الاطواد
جيلا من النشء القوى اذا مشوا رفعوا الرءوس بعزة وعنـاد
لاخير في الأرواح تسكن موطنا متخـاذلا لا يرتجى لجلاد (١)

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٠ ــ ١٦١ فى يوم الشباب .

هذا مثال ، وفي القصيدة أبيات قوية ولكنها في جملتها هادئة النغم رتيبة كسائر شعر ناجي .

وفي شعر ناجي ترجمة عن الغرب وتعريب ، فقد ترجم عن الألمانية (دعاء الراعي) من أغاني هايني (١) .

كما عرب عن ألفريد دي موسيه (التذكار) (٢) .

والقطعتان حزينتان ، ولعل هذا السر في أنهما صادفتا هوى من نفسه ، ففي الأولى حزن دفين وخوف ورجاء ودعاء .. وهاك بعضها :

يا أيها الحمل الوديع أنا الذي ... يحنو عليك . أنا الحبيب الراعي
كم ليلة والرعب يمشي في الدجى ... والهول منتشر على الأصقاع
أغفيت في كنفي وفي ظل الكرى ... كالطفل في أمن من الأوجاع
يارب قد وهت العصا واستأثرت ... غير الليالي بالقوى الباع
يارب ان تك قد حكمت بفرقة ... وأذنت للراعي بوشك زماع
فانظر الى الحمل الوديع ، ووقه ... شر النفوس وفتنة الأطماع

غير خاف أن ليس هناك حمل ولا راع ، ولكنها قصيدة رمزية فيها كبت وفيها برحاء .

أما القصيدة الثانية ففيها دموع غائمة ولكنها عصية التسكاب وان لم تستعص طويلا على كل حال فقد سالت في آخر القصيدة حتى بلت صدى القلب وروت حرقته ، وطلت الماضي كما يطل ندى السحر خدود الورد وكما يباكر ريق الغيث أديم الروض

وقصيدة (التذكار) التي تستهل بهذه الأبيات .

بى نزوع الى الدموع الهوامي ... غير أنى أخاف من الامى
أيهذا المكان يا غالى الترب ... ومثوى عبادتي واحترامي
أنت مثوى الذكرى ومدفنها الغالي ... القصى المجهول في الأيام (٣)

هذه القصيدة معرض لفلسفة الحزن عندما يكابر ويتكلف الصبر ، ويصطنع الرضا ، بل يتمادى فيعيب الأسى ويرمى الأسيوان بالضعف والهزيمة ، بل يستولد الهناءة من الحزن كما يستخرج الماس الألاق بالالائه

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٥ ـ ١٢٦ وهي قصيدة رمزية .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٧ ـ ١٣٥ .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٧ .

من الفحم الأسود .. ولعلك الآن تهفو الى الوقوف على هذه الفلسفة .. فلسفة الحزن هذه :

قد تراءى الصنوبر النضر اذ أيـ ــنع فى قاتم من الألوان
وتراءى لى المضيق البعيد الـ ـغور يمتد فى رخى المجانى
موحشات لكنما كن آلافى ومهد الهنىء من أزمانى (١)

أنا ما جئت هاهنا أذكر الأشـ ـجان فى موطن وفيه هنائى
ذلك الغاب رائع الحسن والصمـ ـت مثال الجلال والكبرياء
وفؤادى عات كرائع هذا الغاب ، مستكبرا على البرحاء (٢)

من يشأ ان يفيض يوما بشكـ ـواه فما هذا موضع الأحزان
قل لشاك هلا مضيت لتجثو عند مثوى ميت من الخلان
كل شىء حى هنا ، ونبات القبر ينمو فى غير هذا المكان (٣)

فسلام منى على الأيـام كيف آست فى النازلات الجسام
لم أكن أدرى أن جرحنا بما كابدت منه من فاتك الآلام
معقب لذة لنفسى واحساس هناء لدى بعد التئام (٤)

ولكن هذه المقاومة كما قلت لك لم تلبث حتى انهارت وهاك لحن الختام :

ان تروا أدمعى فلا تزجرونى ودعونى انى أحب الدموعا
لاتجفف أيديكم أدمعا تنفـ ـع قلبا لما يزل موجوعا
ادمعى ستر مسبل فوق ماض قد تولى ما يستطيع رجوعا (٥)

إنى أرمى من وراء هذا الى دلالة الاختيار ، فناجى وجد خلجاتى مصاغة فعاش فيها بالقراءة والترجمة والتسجيل .

وعرب ناجى قصيدة (البحيرة) عن لامارتين ، واليك مطلعها وختامها لتعرف لونها من الحزن أو الفرح .. اما المطلع فهو :

من شاطىء لشواطىء جدد يرمى بنا ليل من الأبد
ماقر منه مضى فلم يعد ميهات مرسى يومه لغد (٦)

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٨ ــ ١٢٩
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٩ .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٠
(٤) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٥ .
(٥) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٦ .
(٦) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٢ .

.. ولنتقل الى الختام ..

وليبق ياهذى البحيرة فى   حاليك ثائره وهادئه
فى باسق للماء منعطف   فى رائعات الصخر ناتئه

فى عابر النسمات مرتجفا   فى النجم فضض صفحة الماء
فى الريح أن أنينه وهفا   فى الغصن نفس حر أحشاء

فى الجو معتبقا برياك   خطرت ملاعبة رقيق صبا
فى كل هذا هاتف باكى   سيقول يا أسفا لقد ذهبا(١)

ويبدو أن ناجى مال فى سنيه الأخيرة الى نظم الرباعيات اذ بين شعره المخطوط منها ٧٦ رباعية منتظمة فى سلك واحد ، تناول فيها حسن الحبيب والحنين اليه والهاماته واستبطاءه ونواه .. وفى هذه الرباعيات احزان ووساوس وحسرات وتأملات ونظرات فى الحياة والحب ومصيرهما .. تنتهى الرباعيات بالتسليم بالواقع .. تسليم اليائس الذى لاحيلة له ، الزاهد لأنه لم يجد ، لا لأنه وجد فما اشتهى أو أراد ..

ومن هذه الرباعيات :

قلبى مع الناس ولحظى شرود   فى عالم رحب بعيد الشعاب
عينى على سر وراء الوجود   وبغيتى عرش وراء السحاب

أريتنى الغيب الذى لا يرى   كشفت لى مالا يراه البصر
ثم انحدرنا تستشف الثرى   عل وراء الترب سر السفر

والقمر الفضى بين الغيوم   يخفق كالمنديل عند الوداع
واحسرتا ، هل صورته الهموم   كالزورق الغارق الا شراع

ومن شعر ناجى الحر هذا المثال من .. « اليها » :

لم يزل فى شميمى عطرك العبق ...
وبين جفنى خيال أحرص عليه كحياتى
وفي مسمعى ضحكة حلوة كرنين البلور ..
وبين يدى كنز من يديك مسلمتين ومودعتين

ومن « .. بحر وذكرى ودمعتان .. »

ياالله مما يحمل لى هذا المساء المعطر
المبتل الساكن .... مبتل لأنه

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٣٩ ــ ١٤٠

منـدى بالـدموع وسـاكن لأنه كالنغم
الذى يكون صمته أروع من ايقاعه

أحسب أنك تستاف نسيما من الغــرب .... ولكن لاتنس أنه شرقى الطلعة ، مصرى الروح .. انك تحسه قريبا منك .. وأنا أيضا ..

وبعد فان شاعرنا قد غنى .... وتغزل وناجى واستعطف وتحرق وبكى وشكا ، ورسم صورا للحياة والأحياء ، وترجم وعرب ورثى وهجا ومدح ، وما جدوى الشعر وعمل الشاعر غير هذا :

ما جمال الربيع فى الروض ان لم ... يشد طير فى الروضة الغنـاء
ما جمال السماء والبدر ان لم ... يشـد سار فى الليـلة القمراء
واضياع النبوغ فى مصر ان لم ... تتحدث منـابر الخطبـاء
واضياع النبوغ فى مصر ان لم ... يك تخليـده عـلى الشعراء(١)

أنا هنا لا أدعى أنه من المكثرين .. ولو فعلت ما أغنيت عنه شيئا ، فان الفن بجوهره وكيفه لا بكمه ، والشعر ليس كرمال الشاطىء غير المعدودة ولكنه كدر القاع غير المنظور .. وهو بعزته ونفاسـته أمنية وهدف وثروة ونعمة ومتاع وجمال ولالاء ..

وهب الاكثار فضلا يحسب لصاحبه ، فما بالقليل من ناجى الطبيب هذه الباقة المؤتلقة من ديوانين ، فضلا عن المخطوط لو جاز أن تعد قليلة من شاعر منقطع ، فقد كان حسب الطبيب الآسى من ميزات الانسانية الرفيعة ماأبرأ من علات ، وضمد من جراح ، وأحيا من آمال ، وهدأ من روع ، وسكن من وجيب ، وأنزل من رحمة .. وكم لناجى فى هذا المضمار من مآثر تؤثر ، وأياد تذكر ..

---

(١) الدكتور ناجى — ديوان ليالى القاهرة ص ١٤٠ .

شعر المناسبات

سأتناول في هذا الفصل شعر المناسبات عند ناجي الشاعر ... وأنا ما قرأت لشاعر قط الا أسقطت شعر المناسبات من ديوانه في غير رحمة ، لاسيما قصائد المديح ، لأني أنفر من هذا اللون بصفة عامة . وأراه من حيث المبدأ ظلما للمادح والممدوح على السواء .. اذ هو غض من الأول الذي من حقه الارتفاع لخاصة الفن فيه ، وتمثيله له ، وهو ظلم للثاني لأنه يبطره ويفسده ويطغيه ويعميه عن حقيقة نفسه وحقيقة الأمور ...

ولكن شعر المناسبات عند ناجي يستحق الدراسة ولو تابعا ، لأن في بعضه بعض الدلالة على الشاعر مما لا غنى للدراسة المستشفة عنه ...

ولهذا الاعتبار وحده أمضي في كتابة هذا الفصل ...

والقصائد التي نظمها ناجي في مناسبات تتضمن الرثاء والمدح والهجاء :

***

الرثاء :

يحدث أحيانا على حساسية ناجي وعمق عاطفته أن تعصى دموعه في الرثاء ...

انظر الى رثائه للهمشرى(١) نجد شعرا فيه البلاغة والرصانة وان كان أقرب الى المدح منه الى الرثاء ‥ وانظر رثاءه للشاعر محمد الهراوى (٢) تجد قصيدة هيا توليد شاعر وليس فيها حرقة باك ‥ ولاتثريب عليه فالحزن ككل شيء مراتب ، وليس الذى يرثى صديقا أو زميلا كمن يبكى ولده أو اباه ‥ هذا يبكى نفسه وذلك يرثى غيره مهما كان ‥ وكم بين الاثنين ‥

ولعل (شوقى) أظهر من رثاهم ناجى بشعره ، ولكنه لم يوفه الا فى قصيدة واحدة هى التى ألقاها بمناسبة ذكرى مرور العام الأول على وفاته . فانه فى (ساعة التذكار) (٣) بكاه أحر بكاء وأوفى على الغاية من رثائه وهى صادقة اللوعة ، شجية الحنين ، مؤثرة الأنين ، عامرة الأبيات ‥ انى كثيرا ما أتذكر هذه الأبيات المبللة بالدموع :

شجن على شجن وحرقة نار ... من مسعدى فى ساعة التذكار
قم يا أمير أفض على خواطرنا ... وابعث خيالك فى النسيم السارى
يا عاشق الحرية الثكلى أفق ... واهتف بشعرك فى شباب الدار
يا من دعا للحق فى أوطانه ... ومضى ليهتف فى ديار الجار
الشام جازعة ومصر كعهدها ... نهب الخطوب قليلة الأنصار
عام مضى ؟ يا للزمان وطيه ... فينا ويا لسواخر الأقدار
أين الامارة والأمير ودولة ... مبسوطة السلطان فى الامصار
خمسون عاما وهى وارفة الجنى ... تحت الربيع دؤوبة الاثمار
مد الخريف على الرياض رواقه ... ومضى الربيع الضاحك النوار
هيهات أنسى قبل بينك ساعة ... جمعت صحابك فى غروب نهار
والشمس فى سقم الغروب وأنت فى ... لون الشحوب معصفر ببهار
منحت وقد ذهبت شعاعا غاربا ... كسناك طوافا على السمار
تشكو لى الضعف الملم لعل فى ... طبى مقيلا من وشيك عثار
وكشفت عن متهدم جال الردى ... متهجما فى صرحه المنهار
فرأيت ما صنع الضنى فى صورة ... حالت ، وخلى هيكلا كاطار
ووجمت ألمح فى الغيوب نهاية ... وأرى بعينى غاية المضمار
وأرى النبوغ وقد تهاوى نجمه ... والعبقرية وهى فى الادبار

---

(١) الدكتور ناجى - ديوان ليالى القاهرة ص ١٢٥ .

(٢) الدكتور ناجى - ديوان ليالى القاهرة ص ١٢١ .

(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٧٢ .

بي رغبة ملحة في أن تقرأ معي أيضا هذه الأبيات :

في ذمة الأجيال ما غنت به قيثارة سحرية الأوتار
صدحت بألحان الحياة ووقعت أنغامها المحجوبة الأسرار
والفن ما حاكى الطبيعة آخذا منها ومن اعجازها بغرار
مسترسلا رحبا كعين ثرة شتى السيول سحيقة الأغوار
متعاليا حتى الأشعة مشرقا ! متألقا كالكوكب السيار
شوقي ! نظمت فكنت برا خيرا في أمة ظمأى الى الأخيار
أرسلت شعرك في المدائن هاديا شبه المنار يطوف بالأقطار (١)
تدعو الى المجد القديم وغابر طي القرون مجلل بوقار
تبكي العراق اذا استبيح ولا تضن على الشآم بمدمع مدرار
وترى الرجال وقد أهين ذمارهم خرجوا لصون كرامة وذمار
فلو استطعت مددت بين صفوفهم كفا مضرجة مع الأحرار(٢)

ولقد أفرغ ناجي في هذه القصيدة كل ما ينبض به قلبه من حب لشوقي ووفاء لذكراه حتى اذا دعى بعدها الى رثاء جديد لم يجد فضلا من قول يقوله . فتعلق باهداب مسرحيات شوقي ! .ولكن كيف السبيل الى هذا والمقام مقام رثاء .. وحديث العشق عادة حديث زاه ، وهو أيضا متخفف يضيق بالوقار الذي يلازم الرثاء ؟ .. ان الشعراء حيلهم لا تنفد .. ولهم في الشعر مداخل ومخارج برعوا فيها ...

ليناد ناجي (شوقي) :

يا ساكن الصحراء منفردا بها مستوحشا في غربة وتنائي
هل كنت قبلا تستشف سكونها وترى مقامك في العراء النائي (٣)

ليتخلص بعد هذا بقوله :

فأتيت ــ والدنيا سراب كلها ــ تروي حديث الحب في الصحراء

ويمضي بعد هذا في وصف قيس وهيامه بخاصة ، وقصة الحب منذ الخليقة بعامة .. حقا لقد أجاد وصف الحب وأسره .. ولكن لا ننسى أن المقام مقام رثاء .. انه مأزق بلا شك ، ولكن ناجي خرج منه بقوله :

يا للقلوب لقصة محزونة لم ترو الا روحت ببكاء
خلدت على الدنيا وزادت روعة مما كساها سيد الشعراء (٤)

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٧٢ ــ ١٧٧ ساعة التذكار .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٧٨ .
(٣) الدكتور ناجي ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٠ .
(٤) الدكتور ناجي ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٢ .

وليته وقف عند هذا الحد ، ولكنه تعثر مرة أخرى اذ أردف هذا بقوله :

خلدت على الدنيا وزادت روعة | من جودة التمثيل والالقاء
من فن (زينبها) ومن (علامها) | زين الشباب وقدوة النبغاء (١)

ما الذى أتى هنا بالتمثيل والالقاء و (زينب) و (علام) .. انه حشو واستطراد غير مجد .. واذا كانت القصيدة قد قصد بها الرثاء فهى عندى تتمثل فى الأبيات الثلاثة الأولى فقط .. والشاعر معذور فهو بطبعه قصير النفس ، وكلف نفسه القول مرتين متلاحقتين فى موضوع واحد ، سبق له فضلا عن هذا طرقه أكثر من مرة فى حينه فلم يبق لديه شىء يقوله .. وهو اذا أعطى لم يستبق شيئا كما يقول .

الهجاء :

هل تصدق أن (ناجى) له فى الهجاء شعر ؟ لاتحسبنى أتهم فان شاعرنا الرقيق انسان له غضباته وبداوته وفوراته .. لقد كنت مثلك أستبعد عليه الهجاء ، **ولكنى قرأت بعينى هذا الهجاء المر له (فى من اسمه عبد الحميد) :**

رجل أرى بالله أم حشرة | سبحان من بعبيده حشره
يا فخر داروين ومذهبه | وخلاصة النظرية القذره
أرأيت قردا فى الحديقة قد | فلته أنثاه على شجره
عبد الحميد اعلم فأنت كذا | ما قال داروين وما ذكره
يا عبقريا فى شناعته | ولذلك أمك وهى معتذره (٢)

انه يذكرنى بابن الرومى وأحدبه .. وعلى نفورنا من الهجاء فى ذاته الا أننا لا نملك الا أن نعترف بالفن المصور فى مثل هذا الشاهد الذى عرضته عليك .. ان كل بيت على حدة يجعل من المسكين المغضوب عليه هزؤا وأضحوكة ..

ان الاستفهام فى البيت الأول يحمل من التقزز والاشمئزاز ما تعاف منه النفس المطمئنة .. والمفاجأة فى البيت الثانى التى أحكمتها لفظة (يا فخر) بموقعها فى شعر هجاء ، ثم بما تلاها من ألفاظ تحيل معنى الفخر وتزيد السخرية امعانا ، والصورة البشعة التى تكفل برسمها

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٣ .
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٥ .

البيت الثالث ، والبيت الأخير من طراز البيت الثانى .. أورأيت فى الدنيا أقبح ممن تعتذر أمه عن خلقته بعد أن خففت غريزة الأمومة من وطأة شناعتها الكثير ، ومع هذا لا ترى (الأم) ندحة لها عن الاعتذار !! ما ذا تريد بعد هذا ؟

وتهكم ناجى عاصف لا يبقى ولا يذر .. هل جاءك خبر الشاعر الذى هجاه فمسخه ؟ سأسوق اليك حديثه ورأيه فيه :

أيهـــا الحى وما ضر الورى لو كنت متا
أو شعر ! ذاك لا بل حجر ينحت نحتـا
تلقم النـــاس وترميهم به فوقا وتحتـــا
صحت من يأسى لما بركيك الشعر صحتا
آه يا قاتل يا سفاك ! حتى أنت حتى(١)

ان غريمه ليس نبى شعر ولكنه كافر شعر ..

ولكن الهجاء فى شعر ناجى أمثلة فردية على كل حال ، ولعله فى الأصل تفكه وجاوز طوره ، فان لم يكن فهو بادرة يصعب أن ينجو من مثلها انسان ، بما فطر عليه من غرائز ، وما ركب فى طبعه من أهواء .

المدح :

وفى الديوان من شعر المناسبات مدائح ولكنه فى مدحه مقتصد بوجه عام فلا يعلى من ممدوحه الا بما هو أهل له ، وبما هو عليه من فضل ، وما له من سجايا .. فلا ملق ينحل العاطل صفات الأمجاد ، ولا نفاق يحلق بلصيق الأرض فى الســـماء ، **حتى لقد قال لأحد ممدوحيه فى بســـاطة :**

لم نكرمك للوزارة والمنصب والمجد والســـنا والرواء
نحن قوم نهيم بالرجل الكامل يمضى للأمر دون التواء(٢)

وهو من احساسه وتفرزه يخشى أن يسوء تأويل شعره الذى يجله على أن يلحق به رياء ، فيقول لذلك الممدوح أيضا عندما شعر أنه كرر مدحه ولا أقول أكثر من مدحه ، فتلك صـــفة تلحق المتنبى وأضرابه من شعراء المديح ..

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٥ .
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٤٧ .

خذ بيـــــانا نظمتـــه شـبه عقـد منضـــد
مابـه مـــن تزلـف جل شعري ومقصـدي (١)

وقد استخفه الطرب حينا فبالغ مبالغة العاطفة الوامقة فى شاعر صـديق :

جاءت بأروع من هز البيان ومن أعاد مجد القرافى مثل ما كانا

وهي مبالغة ٠٠ ولكنها على كل حال أهون بكثير مما فى دنيا الشعر ، شعر المدح خاصة ، من مبالغات ٠٠

وله مدائح تبدو لنا الآن ممسوخة لأن أصحابها مسخوا ، ولكن هؤلاء مدحهم الشـاعر قبل أن تشـوه لهم صور وتحلولك ضمائر ٠٠ مدحهم حين كنا مجمعين على مدحهم ، فهو لم يداج ولم يكذب ، بل لعل مديحه فى الوقت والظرف الذي قيل فيه كان مظهرا وطنيا فهو شاعر وأمته فى مهرجان ، من يترجم فرحها غير الشعر ؟ وهو شاد وأمته فى عيد ، من يغني آمالها غير الفن ؟ ٠

***

وممن كرمهم الدكتور ناجي ، الدكتور زكي مبارك غفر الله لهما ٠٠ ويبدو أنه كان صديقا فقد تبسط معه ناجي في القصيدة التى قد ألقيت فى حفلة تكريمه بمسرح الهمبرا بالقاهرة ، ومنها :

فرح الأهل بالغلام الذى صـا ر حديثا فى ندوة السمار
عممـوه وقفطنـوه فأمسى أمل القوم ، فارس المضمار
ثم أمسى مطربشا واكتسى البذ لة ما بين ليلة ونهار
ثم أمسى مبرنطا يقصد السيـ ـن ويغزو مدينة الأنوار (٢)

ليس هذا فى الحق مدحا بالمعنى التقليدى المعروف عندنا ، ولكنها زمالة مشيدة ودود ٠٠

ولقد مدح ناجي الشاعر الدكتور على ابراهيم فهل تحس في مدحته افتعالا أو صنعة ؟ أم يؤكد لك كل بيت أنه صيغ من أجل الطب ، من أجل الرحمة ، من أجل الحنان ، من أجل الانسان فى أنبل صوره ، وأكرم سجاياه ، قبل أن تكون من أجل شخص عـلى ابراهيم ٠٠ ليس فى القصيدة كلها بيت من مبالغة المحب أو وشي الشاعر ، ولكنه الصدق الذى

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ص ١٩٩ ٠
(٢) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ص ١٩٩

من حق الرجل أن يقوله ، ومن الغبن أن يخفيه .. **يقول الدكتور ناجي في انصاف الزميل وفخر المواطن ، وتقدير الوطني :**

ولو أن الألى أنقذت جاءوا يؤدون القديم من الجميل
ولو أن الألى علمت جاءوا يؤدون القليل من القليل
ولو منحوك عمرهم جميعا وما هو بالكثير ولا الجزيل
اذن لرأيت عمرك عمر نجم له في اللانهاية ألف جيل
بربك كم وصلت حياة قوم وكم حاربت من داء وبيل
وكم أنقذت من أسر المنايا وكم نضو شفيت وكم عليل
اذا ما الموت أبدى ناجذيه اذا انطفأت عيون في الذبول
اذا غامت محاجرها ظماء كما غامت نجوم في الأفول
فما هو غير أن أقبلت حتى تبدل كل أمر مستحيل
كأنك لمع برق في الأعالي يحيي مقدم الغيث الهطول
كأنك واحة في القفر لاحت رأتها أعين الركب الكليل
كأنك جنة في البيد تندى بعذب الماء والظل الظليل
ولو أيامك العصماء جاءت بكل أعز مزدان حفيل
اذن لطلعن في الظلمات بيضا من الغرر اللوامع والحجول
ولو أن المآثر ذات قول لقلت تكلمي وصفي وقولي
اضفها فهي أعمار أضيفت وما تدرى لماضيك النبيل (١)

هل الدكتور علي ابراهيم الا كما وصف ؟ ولو أوتي أحدنا موهبة الشعر هل يضن على الجراح علي ابراهيم بمثل هذه الأبيات ؟ هل يستكثر على جراح مصر هذه الأبيات ؟ :

تعالى الله كم من معجزات معلقة بأصبعك النحيل
محيل القسوة الكبرى حنانا ورافعها الى فن جميل
معارك من دم أم ساح حرب أسنتها منغمة الصليل
يسير المبضع الجبار فيها بكفك سير مطواع ذليل
معارك كم كسبت بها حياة وما لك في المواقع من قتيل (٢)

اني أسجل هذه الأبيات ولا أصفها فهي من الشعر الذي يحسن بالناقد ألا يصفه حتى لا يجد جماله بالكلمات ولكني أرددها فتشجيني كالنشيد ، أرددها فتسمو بانسانيتي على الترديد .. ليت قادة الحروب

---

(١) الدكتور ناجي ـ ديوان ليالي القاهرة ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .
(٢) الدكتور ناجي ـ ديوان ليالي القاهرة ص ١٣١ .

يعونها ليعرفوا كم بين الطبيب والقائد ·· كم بين من يحيى الميت ومن يميت الحى ··

***

وبعد ، فان الدكتور ناجى ليس مداحا وما كان المدح يوما من هواياته أو غاياته أو وسائله ، ولكنه شاعر ·· **شاعر حقا ذلك الذى يقول :**

أكتب لوجه الفن لا تعـدل به ... عرض الحياة ولا الحطام الفـانى
واستلهم الأم الطبيعة وحدهـا ... كم فى الطبيعة من سرى معـانى
الشعر مملكـة وأنت أميرهـا ... ما حاجـة الشعراء للتيجـان
هومير أمره الزمان بنفسـه ... وقضت له الأجيـال بالسلطان
اهبط على الأزهار وامسح جفنهـا ... واسكب نداك لظامئ صديان (١)

ألا انه أخلق بالمدح يخلعه عليه الآخرون ، ذلك الذى يستاف عطر الطبيعة فى الزهرة الناعسة ، والعشب الجاف ·· فى الأيـك ·· فى الروض ·· فى كل ما جادت به على هذه الأرض ··· دنيانا ·· لماذا ؟ لأنه شاعر فنان ···

---

(١) الدكتور ناجى · ديوان ليالى القاهرة من ١٩٦ ـ ١٩٧ قصيدة خمر الرضا ·

فن ناجى الشعرى

نقد ناجى شوقى (١) على ضوء تعريف « لى هنت » للشعر بأنه (موسيقى واقناع وخيال وصور) .. ومضى يطبق هذه الأوصاف على شعر شوقى .. والذى يهمنا هنا هو تعريفه لعناصر الشعر الأربعة فى رأى صاحبه ورأيه ..

فالموسيقى عند ناجى هى (من حيث انها تحتاج الى اللفظ والصياغة والانسجام ، فهى اذن فى حاجة الى الالمام العظيم باللغة ، هذا الى ذوق خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة ، والى أذن تحسن الاستماع وتمييز الأنغام !) (٢) .

(أما الاقناع ، فهو قوة خاصة فى الشعر ، بحيث يضطرك الشاعر الى متابعته ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك بدون ان يملك أو يشعرك أنه يقودك وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص لك منه) (٣) .

والخيال .. هو « اطلاق العنان للتصورات العالية ، لا للاستعارات والكنايات اللفظية .. » (٤) .

وقد تناول ناجى فى نقده لشوقى « الصور الشعرية » وهى تعنى عنده أنك (تقرأ قطعة للشاعر فلا تملك الا أن ترى الشيء مرسوما أمامك

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .
(٢ ، ٣) المصدر نفسه ص ٣٥٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٦ .

بوضوح ، مجسما قويا بارزا) .. أى أن الشاعر ينبغى أن يكون مصورا بوضوح ، وألفاظ الشعر يجب أن تكون موحية ..

وهذا التعريف للشعر الذى يؤيده ناجى يتضمن عناصر أخرى وان لم يميزها ببيان - فتعريف « لى هانت » للموسيقى يشير الى وجـــوب اللفظ الخاص المشعر أى المختار المصفى ، والصياغة تشير الى الأسلوب ، والانسجام ، الى التساوق العام والمواءمة بين اللفظ والمعنى ، والمناسبة بين أصوات القصيدة ومسافاتها بحيث تكون كلا موسيقيا متماسكا .

وتعريفه للاقناع يحتم بروز شخصية الشـــاعر وأسرهـــا بحيث يضطرك الى متابعته ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك ، بدون أن يملك ، أو يشعرك أنه يقودك ، وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص لك منه .

أما تعريفه للخيال فيحتاج الى الوقوف عنده مليـــا .. فان اطلاق العنان للتصورات العالية يعين عليه الاستعارات والكنايات ، اذا واتت فى غير تكلف أو استخدمت فى غير اغراق أو تطوح أو شطط ، ولا أحسب « ناجى » ينكر هذا الفهم للخيال ، ولعله يقصد الاشادة بالمعنى وحرصه عليه خشية أن يضيع فى ثنايا اللفظ ، أو ينوء بما يحمل من استعارات . ويرهق بما يمزج به من كنايات تخرج بالشعر كله من فيض احساس الى صناعة أوزان ..

والذى نخرج به من هذا التعريف صريحه ومضمونه هو أن الشعر يقاس بما فيه من :

تصورات وأخيلة .

ألفاظ نقية صافية تشرق بها المعانى .

صياغة متوائمة مع موضوع القصيد .

موسيقى سابغة .

وحدة تنتظم القصيدة هى الوحدة الشعرية .

صحة فى الأداء .

شخصية الشاعر

وعلى ضوء هذا المقياس نمضى نقيس شعر ناجى ونقدره .. بعد أن نضيف اليه عاملا آخر هو (قيمة التجربة الشعرية)

ولنطبق التجربة الشعرية أولا فهى أحق بالتقديم اذ هى الحافز الذى يثير الشاعر الى قول الشعر وهى بهذا اللبنة الأولى فى بناء القصيدة ، ويشترط ناجى فى التجربة الشعورية (الصدق والاقتناع القلبى) (١) وتسأله : كيف تصهر التجربة ؟ فيقول لك :

« ان الوعى يتصل بغير الوعى .. ثم يطفو عليهما ضباب ملون مشبع بالذكريات .. وهذا الضباب يغطى أجزاء التجربة حيث يجرى تركيبها من جديد .. لا حسبما وجدت فى الطبيعة ، بل حسبما رآها الفنان .. ومن ذلك يتضح لنا لماذا قال سانت بيف « ان الفن مزاج فردى » .. ويتضح كذلك أن النقد يتعين عليه تمييز الأساليب لا تطبيق القواعد .. » (٢) .

هل كان شعر ناجى وليد انفعالات أثارتها فى نفسه دوافع خارجية أثرت فيه ؟ أو عوامل داخلية نتيجة لاستبطانه نفسه ؟ نعم عندى هى الجواب الصحيح ، فقد كان ناجى فى معظم شعره يصدر عن طبع وتأثر ؟ وقد رأينا فى الفصل الأول موجات نفسه فى شعره وكيف كان هذا الشعر صدى لما اعتمل فى تلك النفس من مشاعر ..

عرض الأستاذ مصطفى سويف لرأى تاولس R. H. Thouless فى الابداع الفنى ، وعنده أن (الخطوة الأولى نحو تعليل الابداع الفنى ، سواء أكان ابداع قصيدة أم ابداع صورة أم كان غير ذلك ، هى الكشف عما شهده الشاعر من نقص فى بيئته وكيف دفعه شعوره بهذا النقص الى تفقد الحل الذى يرضيه ، ويقرر أن الابداع نشاط اجتماعى من بعض نواحيه ، وأن الفنان انما يريد به أن يوقظ بعض استجابات معينة فيمن يشهد فنه (٣) .

وقد رأينا فى فصل (ناجى الشاعر) و (شعر ناجى) شواهد على هذا التفسير .

ويشايع الأستاذ سويف ، لنجفيلد فى أن الابداع بمعناه الدقيق يقوم على حياة ملؤها مشكلات تثير القلق والاضطراب (٤) .

وأيضا كانت حياة ناجى ملؤها القلق والاضطراب .. اذن شعر ناجى وليد دوافع صادقة يعترف بها علم النفس الحديث ، فى شعر ناجى تجارب شعرية .. انفعالات .. هزات .. أحاسيس .

(١ ، ٢) من مقال للدكتور ناجى بعنوان (الفن والحياة) .
(٣) الأسس النفسية للابداع الفنى ص ١١١ ــ ١١٢ .
(٤) الأسس النفسية للابداع الفنى للأستاذ مصطفى سويف ص ١١١ ــ ١١٢ .

وقف الشاعر ينتظر تحت العاصفة والظلام والبرد ، فأوحى الانتظار اليه هذه الأبيات :

أرى الآباد تغمرني كبحر ... سحيق الغور مجهول القرار
ويأتمر الظلام على حتى ... كأني هابط أعماق غار

وتصطخب العواصف ساخرات ... وتطعنني بأطراف الحراب
وتشفق بعد ما تقسو فتمضى ... لتقرع كل نافذة وباب

فصحت بها الى أن جف حلقى ... فحين سكت كلمني ابائى
وأشعرنى العذاب بعمق جرحى ... وأعمق منه جرح الكبرياء

ولما لم تفز بلقاك عيني ... لمحتك آتيا بضمير قلبى
فأسمع وقع أقدام دوان ... وأنصت مصغيا لحفيف ثوب

وأخلق مثلما أهوى خيالا ... وأستدنى الأمانى والحبيبا
وأبدع مثلما أهوى حديثا ... لناء صار من قلبى قريبا

أمد يدى فى لهف اليه ... أشاكيه بمحتبس الدموع
فيسبقنى الى لقياه قلبى ... وثوبا ثم يبرد فى ضلوعى (١)

هنا قلق وتفزز ، وتمن ولهفة ..

وناجي المرهف الحس المتوفز الأعصاب يوحي اليه الانتظار آيات .. وهذه تجربة هي صورة للمنتظر بأحلامه وأوهامه :

أغدا قلت ! فعلمنى اصطبارا ... ليتنى اختصر العمر اختصارا
عبرت بى نشوة من فرح ... فرقصنا أنا والقلب سكارى
وعرانا طائف من خبل ... فاندفعنا فى الأمانى نتبارى
سنذم النور حتى يتلاشى ... ونذم الليل حتى يتوارى

انفردنا أنا والقلب عشيا ... ننسج الآمال والنجوى سويا
فركبنا الوهم نبغي دارها ... وطوينا الدهر والعالم طيا
فبلغناها وهللنا لها ... ونزلنا الخلد فيتانا نديا
ولقينا الحسن غضا والصبا ... وتملينا الجلال الأبديا (٢)

وهذه تجربة من صنع المرآة التى نظر اليها ثم حاول التنفيس فكانت هذه الأبيات :

---

(١) الدكتور ناجي • ديوان وراء الغمام ص ١١٥ ــ ١١٧ .

(٢) الدكتور ناجي • ديوان وراء الغمام قصيدة الغد ص ٩٧ ــ ٩٩ .

ياويلتا من عمرى البـــاقى هذا ســواد تحت أحـداقى
هذا بيـــاض الشيب واعجبى من مغـــرب فى زى اشراق
ويـلى عـــلى كأس معربـــدة وعلى دم فى الكأس مهــراق
وعلى سراب خـــادع وعـــلى متألـــق اللمحـــات بـــراق
طاف الزمان به عـــلى نفــــر مالـــوا بهامـــات وأعنـــاق
صرعوا وأنت تظنهم سكـــروا مات الندامى أيها الســـاقى (١)

ومن تجارب ناجى الشعرية قصيدة (رسائل محترقة) التى عدهـا الأستاذ السحرتى من التجارب الوجدانية ذات التعبير المرهف الحساس(٢) (وهى بلا مراء تجربة شعرية ممتعة مشبعة ٠٠) ويغـالى بهـا الأستاذ السحرتى ، قصيدة وجدانية رائعة تتوهج فى ثوب قصـصى جـذاب ، وانفعال وثاب حساس ، ووحدة قوية ، وموسيقى ارتكازية ٠٠ ولا يدع الحديث عنها الا بعد أن ينظمها فى (مفاخر شعرنا العصرى) (٣) ٠

كما نوه الأستاذ السحرتى بقصيدة ناجى (قلب راقصة) (٤) وهى عنده (قصيدة عجيبة تمثل تجربتها أمام القارىء حية ناطقة ، فهى تبرز حال المتفرج فى المرقص ، وتكشف عن الراقص ، وتنبثق منها موسيقى مختلفة النغمات متحدة القرار ٠٠) (٥) ٠

ويغالى ناجى ـ بحق ـ بقيمة التجربة الشعورية ، وانك حين تقرأ حديثه عنها تحس أنها روح العمل الفنى وجوهره ، وسأسوق اليـــك الحديث ٠٠ (قد يخيل للانسان أن الفن محاكاة للطبيعة ٠٠ وبهذا قال أرسطو قديما ٠٠ حقا ان الانسان من بدء حياته ينقل عن الطبيعة لأنه لا يرى شيئا دونها ينقل عنه ٠٠ ولكن ذلك غير صحيح ، لأن الصحراء الجرداء لا معنى لها بدون أن يخلع عليها السارى خياله وحداءه ٠٠ والجبل الأجدب قائم سخيف ، لولا ما يخلع عليه الانسان من السمو والتفرد ٠٠

وهذا هو الفرق بين الرسم والفوتوغرافيا والرسم باليد ٠٠

هب أنك أخذت صورة لشحاذ على قارعة الطريق بالفوتوغرافيا ٠٠ ثم رسمت هذا الشحاذ على لوحة فنية فان الثانية أوقع بلا جـــدال ، والسبب فى ذلك أن الفنان يخلع على الصورة تجربته الشعورية الخاصة

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة قصيدة شكوى الزمن ص ٧٥ ٠
(٢ ، ٣) كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للأستاذ مصطفى السحرتى ص ٢٩ ٠
(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٦ ٠
(٥) كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للاستاذ مصطفى السحرتى ص ٤٥ ٠

ويخلع عليها الحماس ويضيف اليها اللهب الذى يضيئها ويجلو جلالها (١) .

الخيال فى شعر ناجى :

قدم الأستاذ دسوقى أباظة لديوان (ليالى القاهرة) فسجل لشاعرنا أنه من أقطاب المدرسة الحديثة التى (تتسم بطابع الجدة والطرافة ، وبالأسلوب الأنيق والعبارة السهلة وهى تحتفل بالفكرة أكثر مما تحتفل باللفظ ، وتعنى بالموسيقى والروتين ، قبل عنايتها بالصياغة والصنعة ..) .

ولعل الأستاذ دسوقى شعر بحاجة هذا التعريف الى مزيد من الايضاح ، كما شعرت أنا ببعض التناقض بين الأسلوب الأنيق (وقلة الاحتفال باللفظ) وتأخير العناية بالصياغة ! .

أما الايضاح فقد استعان عليه الأستاذ دسوقى ببسط أبيات لناجى تعين بشواهدها على التفسير وها هى ذى الأبيات :

ان خاننى اليوم فيك قلت غدا	وأين منى ومن لقاك غد
ان غدا هوة لناظرها	تكاد فيها الظنون ترتعد
اطل فى عمقها أسائلها	أفيك أخفى خياله الأبد
يالامس الجرح مالذى صنعت	به شفاه رحيمة ويد
ملء ضلوعى لظى وأعجبه	أنى بهذا اللهيب أبترد

وهذا هو التفسير : (فالتعبير عن الغد المجهول بالهوة العميقة ، وعن اضطراب الشاعر فى أوهام الغد بالظنون المرتعدة ، مع سهولة القافية واستقرارها ، هو هو نهج المدرسة الحديثة وسنتها المرسومة) .

ثم عرض للهجوم الذى تعرضت له هذه المدرسة وكشف عن البواعث التى دفعت اليه وهى فى رأيه « تتجمع فى نطاق الحرية التى انطلقت بمواهبهم الى الآفاق الرحيبة ، التى أطلوا منها على الأجواء البعيدة عن المعانى والأخيلة مع خلق بعض الأوزان التى لم يسبق أن نظم غيرها منها .. » .

ومن أجواء ناجى هذه الصورة التى رسمها خياله للمحب المتسامى فى أبياته :

---

(١) من مقال للدكتور ناجى (الفن والحياة) فى مجلة الكواكب .

لست أنساك وقد أغريتني بالذرى الشم فأدمنت الطموح
أنت روح في سمائي وأنا لك أعلو فكأني محض روح
يا لها من قمم كنا بها نتلاقى وبسرينا نبوح
نستشف الغيب من أبراجها ونرى الناس ظلالا في السفوح (١)

ومنها خياله في هذه الصورة لنزيلات الوحدة :

والأيامى كالكأس بعد الندامى ذكرت حظها من الصهباء (٢)

لهن الله أولئك اللائى يقتتن سالف الذكريات ..

والصور في شعر ناجي كثيرة ، وهي وان تفاوتت في الوسامة والوضوح والألوان والمظاهر الا أنها في مجموعها حية نابضة فيها شيء هو قلق حينا . ورضا آنا ، وفيها من الألوان قتامة وزهو ، وهي على حاليها تمثل الشاعر في شتى حالاته .. بل ان منها ما يستوقفك الى جانبه زمنا قد يطول وقد يقصر ولكنك منجذب اليه ، حان عليه ، مسحور به ..

ويتصل بالخيال « التجسيم » وهو وثيق الصلة بالاستعارة ، غير أن المشبه به في التجسيم هو الانسان الذي يخلع الفنان صفاته وسماته على الأشياء والأحداث ..

والدكتور ناجي ولوع بهذا اللون من التعبير ، وهو شيق ما لم يبتذل ويصنع صنعا يثير غضب رسكين منه حتى ليعده « مغالطة عاطفية » (٣) .

وتجسيم ناجي يتمثل في مثل قوله من ملحمة السراب :

أدركي زورقي فقد عبث اليم به والعواصف الهوجاء
والعباب العريض والأفق الموحش واللانهاية الخرساء
أفق لا يحد للعين قد ضاق فأمسى والسجن هذا الفضاء
سهرت ترقب الصباح وعين النجم كلت وما بها اغفاء (٤)

واستهل ناجي قصيدة (الخريف) بهذه الأبيات المجسمة :

يا حبيبي غيمة في خاطري وجفوني ، وعلى الافق سحابه

---

(١) الدكتور ناجي ديوان (ليالي القاهرة) ص ٥٤ الاطلال .
(٢) الدكتور ناجي ديوان (ليالي القاهرة) ص ١٤٤ .
(٣) راجع كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » للاستاذ السحرتي .
(٤) الدكتور ناجي ديوان (ليالي القاهرة) قصيدة السراب في الصحراء ص ٩١ .

غفر الله لهـا ما صنعت　　كلما شاكيتها تندى كآبه
صرخ القفر لهـا منتحبـا　　وبكى مستعطفا مما أصابه
فأصم الغيث عنه أذنه　　ما على الأيام لو كان أجابه (١)

وغضب ناجى مرة غضبة مروعة فتخيل الطبيعة بأحداثها تتربص به ، فصرخ فى وجهها :

اعولى يا جـراح　　اسمعى الديان
لا يهم الرياح　　زورق غضبان

اسخرى ياحياه　　قهقهى يارعود
الصبا لن أراه　　والهوى لن يعود

اطحنى يا سنين　　مزقى يا حراب
كل برق يبين　　ومضه كذاب (٢)

ومن ديوانه ـ وراء الغمام ـ هذا المثال :

تعال ! فلم يعد فى الحى سار　　وهومت المنازل بعد وهن
وران على نوافذها ظلام　　وقد كانت تطل كألف عين

تعال ! فقد رأيت الكون يحنو　　علي ويدرك الكرب الملما
ويجلو لى النجوم فأزدريها　　وأغمض لا أريد سواك نجما (٣)

ومن (وراء الغمام) استشهد الأستاذ السحرتى بهذه الأبيات من قصيدة العودة :

والبلى ! أبصرته رأى العيان　　ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! يا ويحك تبدو فى مكان　　كل شىء فيه حى لا يموت

كل شىء من سرور وحزن　　والليالى من بهيج وشجى
وأنا أسمع أقدام الزمن　　وخطى الوحدة فوق الدرج (٤)

ألفاظ ناجى :

وألفاظ ناجى الشاعر الطبيب سهلة حنانة ودود توحي اليك وتهمس فى أذنك ، وتذكرك بأشياء كثيرة ٠٠ وهى أصفى ما تكون حين يناجى

(١) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) قصيدة الخريف ص ٢٠٦ ٠
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة قصيدة عاصفة روح ص ١ ـ ٦٢ ٠
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة الانتظار ص ١١٤ ـ ١١٥ ٠
(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة العودة ص ١٧ ٠

ناجي حبيبه .. هنا يعرف جيدا كيف يختار ألفاظه .. ومن صلاته في محراب الحب هذا النشيد :

أرى في عمق خاطرك جلالا يشبهه البحرا
وألمح في نواظرك صفاء الرحمة الكبرى

وأنت رضى وتقبيل وأنت ضنى وحرمان
وفي عينيك تقتيل وفي البسمات غفران

وأنت تهلل الفجر وبسمته على الأفق
وحينا أنة النهر وحزن الشمس في الغسق

وعندك كل ما أظما ورد القلب لهفانا
وعندك كل ما أدمى وزاد الجرح اثخانا

وعندك كل ما أحيا وشدد عزمه الواهي
حنانك نضرة الدنيا وقربك نعمة الله (١)

هذه ألفاظ مستديرة ناعمة الملمس كالتفاحة كما تقول أديث سيتول الشاعرة الانجليزية (٢) .

وقليلا ما تتصلب ألفاظ ناجي وتصطنع الشدة والصرامة كما مر بنا في قصيدته (عاصفة روح) .. ولكن تعبيره في الغالب يغرورق رقة وتغلب هذه الرقة عليه حتى في قصائده الوطنية الحماسية ، كما سيأتي بعد قليل ..

الموسيقى في شعر ناجي :

أجل ! أهواك أنت مني حياتي وأنت أحب من بصري وسمعي
وهل أنساك كلا لست أنسى هوى قد كان إلهامي ونبعي

---

(١) ديوان ناجي (وراء الغمام) قصيدة صلاة الحب ص ١١٨ - ١٢١ .

(٢) تعيب « اديث سيتول » الشاعرة الانجليزية المعاصرة ، على بعض الشعراء المحدثين ضعف شعورهم بالنسيج اللغوي ، وليس الأمر مقصورا على أن نسيج البيت الشعري أو نسيج القصيدة لا يدل على شيء في نظرهم ، بل ان شكل اللفظ ووزنه ... قد أصبح كل منهما منسيا .. فهؤلاء الكتاب لا يرون للكلمات ظلا تضفيه ، ولا شعاعا تشعه ، وليست تتفاوت في طولها وعمقها ، ولا يعرفون أن الكلمة قد تتلألأ كما يتلألأ النجم المنعكس على صفحة الماء ، وان اللفظ قد يكون مستديرا ناعم الملمس - مجلة الأدب والفن - ج ٢ السنة ٣ - بقلم الآنسة بيرل دي زوت . النص منقول عن كتاب الأسس النفسية للابداع الفني للاستاذ مصطفى سويف ص ٢٨١ .

لبست من التصبر عنك درعـــا فهـــا أنا تنزع الأيـــام درعى
وهـا أنا لا أدارى عنـــــك سرا عـــرفت مخبئى ورأيت دمعى
تلاشت قوتى وغـــدا فؤادى كأن خفوقـــه خلجـــات نزع
أبشره فيرقص فى ضـــلوعى وأنظر ســـود أيـامى فأنعى
وقد نضب الخيال وغـــاص طبعى ومات على حيـــاض اليأس زرعى
أجرجر وحدتى فى كل حشـــد وأحمل غربتى فى كل جـمع (١)

أليست هذه الموسيقى السابغة شجية حنانة ؟

وهذه لفتة من لفتاته الشعرية :

هات اسقنى واشرب على سر الأسى وعلى بقايا مهجتى وشجاهـــا
مهلا نديمى ! كيف ينسى حبهـــا من ينشد السلوى على ذكراهـــا
مازلت تسقينى لتنسينى الهـوى حتى نسيت فما ذكرت سواها(٢)

وهذا غناء :

وأناديك فى التـــدانى وما أطمع الا أن يستجاب النـــداء
باســـمك العذب انه أجمـل الأسماء مهما تعددت أسماء
لفظة لا تبين تنطلق الأقدار عن قوسها ويرمى القضاء
وهى بين الشـــفاه ناى وتغريد وطير وروضة غنـاء
وهى فى الطرس قصة تذكر الأحباب فيها وتحشد الأنباء (٣)

وأنغام ناجى عند الأستاذ السحرتى تتميز بالاثارة والانفعال ويمثل لهذا بهذه الفقرة من قصيدة (الظودة) :

رفرف القلب بجنبى كالذبيـح وأنا أهتف يا قلب اتئـــد
فيجيب الدمع والمـاضى الجريح لم عدنا ؟ ليت أنـا لم نعـــد

لم عدنا أو لم نطـــو الغـــرام وفـــرغنا من حنـــين وألم
ورضينا بسكون وســـــلام وانتهينا لفـــراغ كالعـــدم

وقد لاحظ الأستاذ السحرتى على قصيدة العودة اختلاف فقراتهـا فى موسيقاها النوعية ، فالأبيات الأربعة السابقة (تختلف فى موسيقاها مع هذه الأبيات التى جاءت مطلعا للقصيدة وهى) :

هذه الكعبة كنا طائفيهـا والمصلين صباحـــا ومسـاء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غربـــاء

---

(١) الدكتور ناجى • ليالى القاهرة قصيدة بعد الفراق ص ٧١ ـ ٧٢ •
(٢) الدكتور ناجى • ديوان ليالى القاهرة قصيدة يأس بعد كاس ص ٥٩ ـ ٦٠ •
(٣) الدكتور ناجى • ديوان ليالى القاهرة قصيدة ملحمة السراب ص ٩١ ـ ٩٢ •

دار أحلامى وحبى لقيتنــــا   فى جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهى كانت ان رأتنـــا   يضحك النور الينا من بعيـــد

فالأبيات الأولى منفعلة ذات نغم ارتكازى ، والأبيات الثانية هادئة ناعمة منغومة ..

ولناجى غرام فى الخروج عن الوحدة الكلية الموسيقية فى القصيدة ، وربما كان توحيد النغم فى القصيد كله خيرا من تجزئته ، وان كان هذا التنويع لا غبار عليه (١) .

والأستاذ الناقد لم يجانب الصواب فيما ذهب اليه ، فان الوحدة الموسيقية عند ناجى غير مطردة فى ديوانه ... فديوانه (**وراء الغمام**) به ٣٨ قصيدة موحــدة القافية والصـــوت وعشر قصـــائد مزدوجة القافية وقصيدتان على نظام الرباعيات وأخريان تتغير القافية فيهما كل أربعة أبيات وقصيدة تتغير القافية فيها كل ثلاثة أبيات .

فاذا تناولنا ديوانه الثانى (**ليالى القاهرة**) الفينا القافيـــة أكثر اطرادا فى هذا الديوان منها فى الديوان الأول . فالقصائد الموحدة فى (ليالى القاهرة) يرتفع عددها الى ٦٥ قصيدة بينما المزدوجة ست .. وفى الديوان ثلاث قصائد تتغير القافية فيها كل أربعة أبيات ...

ولما كان ناجى ينظم الشعر بالسليقة فانه يطيب له أحيانا أن يجعل لكل بيتين قافية ، وفى أثناء القصيدة تعثر له على أربعة أبيات من قافية واحدة كما تلاحظ فى قصيدته (لقاء فى الليل) (٢) .

ولعل هذا من أبرز آثار الأدب الغربى فيه ان لم يكن أبرزها فقد قرأ فيه كثيرا ، ووعى عنه كثيرا ، ولكن تجديده فى المعانى والصور لا يتميز مثل هذا التميز الذى يطالعنا لأول وهلة متبديا فى قوافيه وأوزانه ...

ولا عذر لناجى عند أهل المدرسة القديمة من مطولات يدفع سأمها بتنويع ، فهو ينوع حتى فى المقطوعات القصيرة .

والمدرسة الحديثة تدرك هذا جيدا فان الأستاذ دسوقى أباظة عندما قدم لديوان ناجى (**ليالى القاهرة**) سجل أن من بواعث الهجوم الذى تعرضت له هذه المدرسة كما أشرت (خلق بعض الأوزان التى لم يسبق

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ص ٥٢ .

(٢) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٣٥ .

أن نظم غيرهم منها ٠٠٠) وهنا استدل بقصيدة (عاصفة روح) التي استهلها الدكتور ناجي بقوله :

أين شـط الرجـاء	يا عبـاب الهمـوم
ليـلتي أنـواء	ونهـاري غيـوم
أعـولي يا جـراح	أسـمعي الديـان
لا يهـم الريـاح	زروق غضـبان
اسـخري يا حيـاه	قهقهي يا رعـود
الصـبا لن أراه	والهوى لن يعود (١)

« فهذا الوزن لا يوجد له نظير في أوزان البحور المعروفة ، وربما كان اعتماد الشاعر فيه على السماع والايقاع » (٢) ٠

ومن شعر ناجي الايقاعي ذي المسافة الصوتية القصيرة قصيدته (من ن الى ع) التي استهلها بقوله :

ياشـطر نفسي وغراسي الوحيـد	ما شـئت يا ليـلاي لا ما أريد
يا من رأت حزني العميق البعيد	داويت لي جرحي بجرح جديد(٣)

ونلاحظ أن ناجي في قصائده الموحدة القافية جياش العـاطفة ، كملحمة السراب ، وهي من أروع ما قال وهو فيها مندفع في قوة ، مسحر تواتيه القوافي والمعاني والألفاظ ، فلا حاجة به الى التغيير والتوسل بقواف جديدة ٠٠٠

ولم ينظم الدكتور ناجي شعرا مرسـلا أو شـعرا حرا ٠ والشعر المتحرر من القافية بعد هذا يجد من يسمع في تلاوته موسيقى عذبة ويجد فيه راحة ذهنية (٤) ٠

ويرى بعض النقـاد (أنه لا مفر للمجددين في هذا العصر من تطعيم موسيقى الشـعر بالأنغام المنوعة والتفعيلات الجديدة ٠٠ ولا يكون هذا الا بهجر القافية الواحدة ، وبخاصة في القصائد المطولة وفي الشعر التمثيلي ، وقد آن لشباب الشعراء في الشرق أن يتذرعوا بالشجاعة الأدبية ويشقوا طريقهم الجديد ، غير حافلين بالموسيقى التقليدية الرتيبة ، ولا حافلين

---

(١) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٦١ قصيدة عاصفة روح ٠

(٢) هذا رأى الأستاذ دسوقي أباظة أسجله كما هو ٠

(٣) الدكتور ناجي ٠ ديوان ليالي القاهرة قصيدة من ن الى ع ص ١١١ ٠

(٤) اقرأ السحرتي في كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) ص ١١٩ ٠

نقدات المحافظين والحفريين الذين يعيشون على تراث الموتى ويستقبلون كل جديد بصيحات الغربان) (١) .

فاذا تجاوزنا النقـــد الأدبى الى علم النفس الحديث وجدناه يعتبر الوثبة هى وحدة القصيد .. فالقصيدة (تتألف) من وثبات لا من أبيات ومن هنا كانت الوثبة هى وحـدة القصيدة ، وليس البيت هو الوحـدة كما هو الشـائع عند النقـاد العرب بوجه خاص .. وكذلك كل عملية متكاملة لا بد أن تتألف من عمليات صغرى متكاملة ، وكل بناء متكامل لابد أن يتألف من أبنية أو أنظمة صغرى متكاملة ..) (٢) .

هنا يرتج على المدرسة القديمة مادام العـــلم قد قال كلمتـه فى الموضوع ... وكلمة العلم فصل الخطاب ...

على أنى لا أريد أن أدع هذا العنصر من عناصر تقويم الشعر دون أن أقرر الحقيقة وهى أن قارىء ناجى يفتقد أحيانا (قليلة) الموسيقى . أى يفتقد أهم عناصر الشعر مثل قوله يستهل قصيدة (الحياة) :

جلست يوما حـين حـل المساء ... وقـــد مضى يومى بـــلا مؤنس
أريح أقـــداما وهت من عيـــاء ... وأرقب العـــالم من مجلسى (٣)

ومن شعر ناجى الذى يدخل فى باب النثر أو هو نثر مشطر لو جاز هذا التعبير هذه الأبيات من قصيدة (الى روح الشاعر) التى ألقيت فى حفلة الذكرى للشاعر المرحوم طانيوس عبده (سنة ١٩٤٣) :

قلمى ! ما الذى لديـــ ... ـــك من الخير يا قـــلم
قـــم فذكر ونـــاج قـــو ... مـــك واخطب وقل لهم
ذلك الشـــاعر الذى ... بات فى خاطر الظلم
هـــو منكم وفنـــه ... عـــلم اللـــه فنكم
ذلك الشـــاعر الذى ... روحـــه الآن بينـكم
لكـــأنى أراه حـــ ... ـــيا وألقـــاه عـن أمـم
غاشـــيا كـــل منتـدى ... عالى الرأس محتـرم (٤)

---

(١) اقرأ السحرتى فى كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) ص ١٢٤ — وان كان الاستاذ السحرتى عند عرضه لقصيدة (قلب راقصة) فضل الوحدة الموسيقية المتكاملة على أثر تسجيله للرأى القائل (ان بين القدات وقفات تضيع الوحدة والتماسك العضوى فى القصيدة) .. (نفس المصدر ص ٤٥) .

(٢) كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سويف ص ٢٧٣ .

(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة الحياة ص ٢٩ .

(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٦ .

مواءمة الصياغة لموضوع القصيد عند ناجى :

أسلوب ناجى ينبع من موضوعه ويتكيف به ويؤديه فى لدونة مطواع ولكن هذه المواءمة بين الصياغة وموضوع القصيدة تفوته أحيانا فى الرثاء والحماسة ٠٠ وقف ناجى يرثى الشاعر المرحوم طانيوس عبده فى حفلة ذكراه :

موقف حان فاغتنم ... وتخير من الكلم
كل لفظ أرق من ... ضحكة الزهر للديم
مستمد من الربى ... مستعار من الديم
أجمع الآن طاقة ... غضة النور تبتسم
أهدها روح شاعر ... خالد بالذى نظم (١)

موقف حان فاغتنم ! ألا يشعرك هذا الاستهلال بأنك سامع عما قليل وصف لقاء كان ينتظره الشاعر طويلا وقد أعد لتحيته الزهر الضاحك والألفاظ الرقيقة ٠ والا فقل لى أى اغتنام فى الموت وأى فرصة فيه تهتبل ؟

وقد مر بنا كيف فتر فى تأبينه لشوقى مبنى ومعنى حين أجاد رثاءه فى حفل ذكراه ، ويبدو أن المفاجأة لم تترك له وقتا يجود فيه ٠٠ فليس فتور تأبينه معناه أن خطب شوقى لم يفدح (ناجى) ٠٠٠ كلا ٠٠ انه عندى الآية على عمق جرحه فيه ، وشدة تأثره بفقده ٠٠ ولست هنا أدبج لفظا أو استملى عاطفة ، فان الدراسات النفسية تقرر أن الفنان يندفع (نتيجة لالتقاء تجربتين (٢) يندفع فى نشاط يهدف الى خفض التوتر واعادة الاتزان ، ويكون هذا النشاط منظما بفعل الاطار ، فتكون النتيجة قصيدة ٠ ومن المحقق أن اختلال الاتزان يختلف باختلاف التجارب التى يلقاها الفنان ، بحيث يمكن أن نتحدث عن اختلال سطحى واختلال عميق واختلال بالغ واختلال ضئيل ويبدو أثر ذلك فى صعوبة عودة الاتزان الى الأنا وتأخر هذه العودة فترة طويلة أحيانا ٠ وعلى هذا الأساس نستطيع

---

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٦ ٠

(٢) يصف الأستاذ سويف خطوات الابداع عند الشاعر بهذا المثال : لقد (أتته الآن تجربة متصلة بالأنا بعثت عنده آثار تجربة قديمة جرت على الأنا ، وقد تبادلت التجربتان التأثر والتأثير واختلط الأمر على الشاعر فكأنه فى دوامة ٠٠ ولا يمكن أن يستقر الأنا فى مثل هذه الحال ، لأن الاستقرار لا يتم الا اذا كانت أجزاء المجال واضحة المعالم واضحة الصلات ، أى أنها هى نفسها فى حالة استقرار ، فاذا لم يتوفر ذلك ظهرت بالأنا توترات تدفعه الى محاولة التوضيح كيما يتحقق الاتزان) ٠

« كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى ص ٢٦٧ » ٠

أن نعلل كون فيكتور هوجو لم يستطع أن يبدع من معين وفاة الا بعد مرور عام على هذه الوفاة) (١) ·

وعلى هذا الأساس أيضا نستطيع أن نعلل تخلف ناجي في تأبين شوقي واجادته رثاءه بعد عام من وفاته ··· ان التوتر والاختلال الذى أصابه بوفاة شوقي عميق بالغ جعل من الصعب عودة الاتزان الى الأنا ، وتأخر بهذه العودة عاما كاملا ، حتى استطاعت آثاره أن تقترب من الانتظام ·

***

هذا في الرثاء أما في الحماسة فقد استعرضنا معا نداءه للشباب (٢) ، ورأينا أسلوبه فيه موسيقاه هينة لينة رقيقة كشأنها في سائر قصيده ···

والموسيقى الوطنية مدوية متدافعة مستنفرة عالية ، يترامى صداها الى بعيد ··· وشعر ناجي كما يصفه الدكتور طه حسين (كهذه الموسيقى التي يفسدها الفضاء الطلق وتضيع في الميادين الواسعة ، وتجود كل الجودة ، وتحسن كل الحسن حين تغلق الأبواب ، وترخى الأستار ، ويخلو النجي الى النجي ، ويفرغ الصفي للصفي ، ويتمتع الحبيب بقرب الحبيب) (٣) أو كما وصفه في مكان آخر بأنه (أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة) (٤) ·

الوحدة الشعرية عند ناجي :

يعرف الأستاذ السحرتي الوحدة الشعرية بأنها (الرباط الذى يضم التجربة ، والصور ، والانفعالات ، والموسيقى والألفاظ في وشاح خفي أثيري ، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدب فيه الحياة) ·

وتلمح هذه الوحدة ، ابتداء من دوران أبيات القصيد دورانا منطقيا شعريا ، وتنقل هذه الأبيات تنقلا فكريا ، ويتأتى هذا من توفر التجربة الشعرية وعرضها عرضا جميلا ، وصياغتها صياغة محكمة – صياغة لا هي بالطويلة المجرجرة ، ولا بالقصيرة الكاشفة ·

وتقوم كذلك الوحدة على اتجاه الصور الخيالية بالقصيد اتجاها

---

(١) كتاب الأسس النفسية للابداع الفني ص ٢٦٨ ·
(٢) ديوان ناجي وراء الغمام ص ١٥٨ – ١٥٩ ·
(٣ ، ٤) كتاب « حديث الأربعاء » للدكتور طه حسين ج ٣ ص ١٥٢ ·

موحدا (١) ، ومما يزيد الوحدة حركة وتماسكا ، حدة الانفعال الشعرى وجمال الموسيقى (٢) ٠

(ولا يقف هيكل الوحدة الأثيرى عند التسلسل المنطقى ، ولا الصور الحية ولا الموسيقى المتوائمة مع معانى القصيد ، بل ان للألفاظ وتموجاتها وتوافقها وحرية نظامها دخلا كبيرا فى تكوين هذا الهيكل ٠ ونقصد بنظام الألفاظ الحر عدم التقيد بالأسلوب النحوى الجامد فى تركيب العبارة) (٣) ٠

لقد مر بنا من شعر ناجي الكثير ٠٠ وهو ـ ما عدا أمثلة فردية سنتناولها عند مناقشة «صحة الأداء» ـ زاخر بالتجارب الشعرية والصور الملونة ، والانفعالات الهازة ، والموسيقى الحنون ، والألفاظ الموحية العذبة وان لم يبلغ في ألفاظه مبلغ شعراء لبنان المولعين بالنحت اللفظى والاطراف ٠٠ كل هذا فى صياغة مشبعة ممتعة متسلسلة ، فى غير فضول أو قصور ٠٠ ولا أريد أن أضرب امثلة جديدة تؤيد ما ذهبت اليه ، فليرجع الى ديوانيه من يشاء ٠٠٠

أما الوحدة بمعنى اطراد القافية فى القصيدة كلها فلم يتقيد ناجي بها ، فقد زاوج ورابع متحررا من القافية عامدا فى رأيى ، تمثلا بشعراء الغرب المحدثين الذين لا يلتزمون الوحدة الشعرية عن فكرة ٠٠٠ فهى عندهم تمسك بما لا يلزم لمجرد التقليد ٠٠ ويبدو أن (ناجى) كان من أنصار هؤلاء ٠٠٠

صحة الأداء :

وصف الأستاذ دسوقى أباظة (ناجى) فى مقدمة ديوان (ليالى القاهرة) بأنه (شاعر لا يكتب الا ما يتحرك له حسه ، ويفيض به خاطره، فالشعر عنده عاطفة نارية ، تتشكل فى الأسلوب الذى يلائمها ، والقالب الذي يتساوق معها ٠٠ ومن هناأخذ بعضهم على الدكتور ناجى ، أنه ينحرف فى أسلوبه عن جادة الأسلوب العربى الصحيح ، من حيث احلال الألفاظ فى غير معانيها ٠٠٠)

ولعل الأستاذ دسوقى كان يلمح الدكتور طه حسين الذى نصح

---

(١) كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للاستاذ السحرتى ص ٨٢ ٠
(٢) المصدر نفسه ص ٨٤ ٠
(٣) المصدر نفسه ص ٨٥ ٠

الشاعر (ناجى) فى نقده ديوان (وراء الغمام (١)) بأن يعنى بلغته وكرر له النصح .

وهذا المأخذ فى رأى الأستاذ دسوقى مأخذ مردود (فاللفظ الواحد عند الشاعر ، يدور على أكثر من معنى .. والشاعر مسوق بعاطفته نحو موضوعه ، وهى التى تلون أساليبه ، ولها من قوتها الجارفة ما تستطيع به أن تسم الألفاظ بأبعد معانيها .. ولغة الشعر ، غير لغة القاموس .. والشاعر يتأثر وينفعل ، ثم يعمد الى تصوير مرئياته فى حرية لا تتاح لغيره ، لأنه ينقل عن ذات نفسه ما يتفق فيها من معان مجنحة ، بعيدة على حد تصوير الشعر ، فيختار لها ألفاظا لا يقرها القاموس ، ولا يستسيغها قلم الكاتب ، وذلك هو مفترق الطريق بين الشاعر الذى يستشرف الى الآفاق الجديدة ، وبين الشاعر الذى لا يجرى الا فى غبار القدامى) .

احسب أن المعانى المجنحة البعيدة على حد تصوير الشعر ، والاستشراف الى الآفاق الجديدة لا تقر هذا التشبيه :

واذا الدنيا كما نعرفها   واذا الفجر مطل كالحريق
واذا النور نذير طالع   واذا الأحباب كل فى طريق (٢)

ان تشبيه الفجر النادى الألاق بالحريق غير موفق ، ولو أن عذره ماثل فى أن الفجر هذا نم عليه ففزع ، وانتزع منه رفيقه فأسف ...

ومما وقع فيه ناجى هذا التشبيه غير الموفق للحب :

يا غراما كان منى فى دمى   قدرا كالموت أو فى طعمه
قد قضينا ساعة فى عرسه   وقضينا العمر فى مأتمه
ما انتزاعى دمعة من عينه   واغتصابى بسمة من فمه
ليت شعرى أين منه مهربى   أين يمضى هارب من دمه (٣)

على أن هذا التشبيه لم يمنع الأستاذ دسوقى أباظة من الاستشهاد بالمقطوعة على أن الشاعر بلغ القمة فى ملحمة الأطلال .. وملحمة الأطلال من أروع ما قال .. ولكن أولى بالتمثيل عندى هذه المقطوعة الرقيقة الحنانة :

لست أنساك وقد أغريتنى   بفم عذب المناداة رقيق

---

(١) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين جـ ٣ .
(٢) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام . الوداع ص ٥٦ .
(٣) الدكتور ناجى ، ديوان (ليالى القاهرة) الأطلال ص ٤١ .

ويد تمتد نحوى كيد من خلال الموج مدت لغريق
آه يا قبلة أقدامي اذا شكت الأقدام أشواك الطريق
وبريقا يظمأ السارى له أين فى عينيك ذياك البريق (١)

أحسب أن ليس فى الدنيا أبر وأحنى من اليد المنقذة يلمحها الغريق أشفى على الهلاك تمتد اليه من خلال الموج ٠٠ انها الحياة بعد الموت ٠٠ انها الأمل فى قتام اليأس ٠٠ انها الروح الذاهبة تعود ٠٠٠

ومن تناقض ناجى قوله :

فعرا الأفق قتام وبدت سحب تحبو الى وجه القمر
كلما تقرب تمتد له كأكف شرهات تنتظر (٢)

ان الأكف الشرهة لا تنتظر بل تتعجل وتلتهم ، ولكن لعل الشاعر أراد بالانتظار التربص ٠

ومن أمثلة احلال الألفاظ فى غير معانيها عند ناجى قوله فى اهداء ديوانه (وراء الغمام) : « فتقبل طاقة بالدم والدمع نديه » ٠

لعل الشاعر أراد (روية) فلم يسعفه اللفظ فى حينه ، لأن الندى الرقيق المتلألىء لا يشبه به الدم وان دنا من الدمع الحنان شكلا ومعنى ٠

قد يتجاوز الناقد عن هنة كهذه لشاعر آخر ولكنها تلفته من ناجى الرقيق القائل :

لك حسن نوار الخميلة طل صبحا فابتسم
لك نضرة الفجر الجميل على الذوائب والقمم
لك كل ما أوفى على قدر النهاية واستتم
فبأى قلب أتقى وبأى حصن أعتصم (٣)

وناجى شاعر القوافى المتعددة يفلت منه المعنى احيانا فلا يمسك به الا فى المقطوعة الثانية ، كقوله من قصيدة « لقاء فى الليل » :

عوذتها من شر أمسية تعيا بها وتضل أبصار
وكواكب ليست بمجدية ظلم مكدسة وأحجار (٤)

---

(١) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » قصيدة الأطلال ص ٤١ ٠
(٢) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » قصيدة أحلام سوداء ص ١٧٨ ٠
(٣) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ٠ ليالى الأرق ص ٧٦ ٠
(٤) الدكتور ناجى — ديوان ليالى القاهرة قصيدة لقاء فى الليل ص ٣٦ ٠

هنا يستبهم المعنى فلا يتجلى الا فى البيت الذى يليه ، ولكنه لا يتفق معه فى قافيته اذ هو من مقطوعة أخرى بقافية جديدة ٠

عثرت بها فرفعتها بيدى جسما يكاد يشف فى الظلم (١)

وحينما يتعثر لفظ الشاعر فى الأداء مثل قوله :

يا حياة البائس المنفرد يا يبابا ما به من أحد (٢)

الست ترى معى ان تجاور الياءين ثقيل على اللسان ؟ وحينا تتنافر ألفاظه فى مثل بيته :

وسمعنا صرخة فى رعدها سوط جلاد وتعذيب اله (٣)

ما وقع هذا البيت فى حسك ٠٠ انى أحس به تنافرا ٠٠ أين الجلاد من الاله ؟ على أن الله لا يحب أن ينسب اليه التعذيب بدليل قوله « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم رشدا » فبناء الفعل للمجهول فى الشر له دلالة لا تغيب عن فطنة ناجى ٠٠ ولكنه سها ٠

وفى شعر ناجى هذا البيت :

تعالوا نشيد ملجأ رب ملجأ
يضم حطام البؤس والأوجه الصفرا (٤)

وفى شعره :

هيا أجل هيا الى أيننا
لحيث تحكى حلم روحينا (٥)

لحيث ٠٠ هل هى ضرورة شعرية استوجبت (اللام) بدلا من (الى)

ويروق للناجى أحيانا وشى البديع ، فيجانس كقوله :

ابن ؟ أعن قلبى الممزق وارحم (٦)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ ٠
(٢) المصدر السابق ص ٤٣ ـ قصيدة الاطلال ٠
(٣) المصدر السابق ص ٤٥ ـ قصيدة الاطلال ٠
(٤) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ـ قصيدة مصر ص ١٧٩ ٠
(٥) » » » » من ن الى ع ص ١١٢
(٦) » » » وراء الغمام ص ٥٨ ـ الزائر ٠

ويطابق كقوله :

ترامت كما شاءت وشاء لها الهوى | تميل على خد وتصدف عن خد
وتلك الكروم الدانيات لقاطف | بياض الأمانى من عناقيدها الربد
فيالك عندى من ظلام محبب | تألق فيه الفرق كالزمن الرغد
ألا كل حسن فى البرية خادم | لسلطانة العينين والجيد والقد
وكل جمال فى الوجود حياله | به ذلة الشاكى ومرحمة العبد(١)
اذا كان فى لحظيك سيف ومصرع | فمنك الذى يحيى ومنك الذى يردى
اذا جردا لم يفتكا عن تعمد | وان أغمدا فالفتك أروع فى الغمد
فانى اذا جن الظلام وعادنى | هواك فأبديت الذى لم أكن أبدى(٢)

ومن التدبيج قوله :

وهذى المنايا الحمر ترقص فى دمى
وهذى المنايا البيض تختال فى فودى (٣)

ولو أننا لا نوافق أصحاب البديع فى أن التدبيج مجرد حلية لفظية .. فان ايحاء الألوان له من التأثير الفنى ما يجعلنا نضعه فى مصاف صور التعبير الفنية . والفنان الذى يدرك ما للألوان من أثر ينفذ الى آفاق فسيحة من رهافة الحس وانسجام الصور ، أو تألقها ...

ان أبا تمام حين قال :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا | لها الليل الا وهى من سندس خضر

لم يقل حبيب هذا البيت عبثا .. هو يعرف أن القرآن وصف ثياب أهل الجنة بالخضرة ، فاللون الأخضر اذن له تأثير خاص على نفوسنا .

والفن تعبير عن المعانى بأشياء .. والانسان قبل أن يستعمل اللغة أبان عن وقع الأشياء فى نفسه بأشياء ، فأحيانا يعبر بحركات عضوية أو حركات صوتية أى بمبهمات ، ثم أبان بالكلمات ، فالابانة بالأشياء هى الابانة الأولى وهى المستمرة .. والتدبيج بيان بالألوان والأضواء ، فهو فنية قوية فى باب البلاغة .

وفى بعض شعر ناجى شية من التقليد لمن سبقوه تلمحه فى مثل بيته :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ، العودة ص ١٨ .
(٢) ديوان الدكتور ناجى ليالى القاهرة ــ قصيدة فى الظلام ص ٢٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٢ .

انظرى ضـــحكي ورقصي فرحا وأنا أحمل قلبــا ذبحا (١)

انه يلمح البيت المشهور :

لا تحســبوا أن رقصي بينكم طربا فالطير يرقص مذبوحا من الألم

ويقول ناجى :

شجن على شــجن وحرقة نــار من مسعدى فى ساعة التذكار (٢)

كما قال المتنبى :

أرق على أرق ومثـــلى يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

ويبدو أن ناجى شديد الاعجاب بهذا البيت فهو يقول على مثـــاله أيضـــا :

ســـهد على ســـهد وذكـ رى فوق ذكرى تزدحم (٣)

ويبدو أنه يؤيد رأى شوقى فى مولد الحب .. فكما يقول شوقى :

نظرة فابتســامة فسلام فكلام فموعــد فلقـــاء
ففراق يكون فيــه دواء أو فراق يكون منـــه الداء

يقول ناجى :

صدفة ثم وقفـــة فاتفـــاق فاســـتباق فموعـد فلقـاء
فقليل من السعادة لا يكمل فيـ ـه ولا يطـــول الهنـــاء
فحنين فلوعـــــة فاحتـــراق فجحيم وقـوده الشـــهداء (٤)

ومن شعر ناجى :

عندك قد حط رحال المنى وفى حمى حسنك ألقى عصاه (٥)

فأسلوب (ألقى عصاه) تعبير تقليدى قديم يبدو أنه راق المدرسة الحديثة المجددة ولكنها على كل حال شـــواهد قليلة فى شعره لا تكفى

---

(١) ديوان ناجى ليالى القاهرة ص ٤٣ ـ قصيدة الاطلال .
(٢) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة ساعة التذكار ص ١٧٢ .
(٣) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة ليالى الأرق ص ٧٤ .
(٤) ديوان ناجى (ليالى القاهرة) ملحمة السراب ص ٩٢ .
(٥) ديوان ناجى ليالى القاهرة قصيدة أنوار ص ٢٥ .

للحكم ، عليه وهى المآخذ التى قلما ينجو منها شاعر محتم عليه أن يدرس شعر من سبقوه . والدارس لشىء متأثر لا محالة به .

... قد يبدو هذا الأثر صريحا وقد يتوارى حتى يكاد يختفى ولكنه موجود ، فان الأستاذ مصطفى سويف يقرر أن عملية الابداع يوجهها الاطار (١) ، وان نفى قضاء توجيه الاطار على جوهر الابداع من حيث انه الخلق على غير مثال .

ان عنصر الخلق مضمون اذ تتكفل به الشخصية التى تتهيأ من مركبات كثيرة لا يمكن أن تتشابه فى شخصين ، وهذه المميزات الخاصة بكل فرد هى التى تكيف الخلق فى العبقرى أو الفنان .

يقول الدكتور مراد « ليس الالهام شيئا خارجيا يتلقاه المبتدع كما يتلقى الهبة ، فان ما ألهم به الشاعر كولريدج هو خلاف ما ألهم به نيوتن عندما رأى التفاحة تسقط على الأرض . فالالهام يصدر عن الشخص ولابد له من تهيئة التربة التى سينبت فيها ، فان أرباب الفن الذين يحدثوننا عن الهاماتهم الخاطفة ينسون عادة أن يذكروا لنا أبحاثهم السابقة ومحاولاتهم العديدة ، وكل ما قاموا به من القراءات والمشاهدات والتأملات التى تدور حول المشكلة التى تشغل ذهنهم . وربما يتناسون الاشارة الى هذه المحاولات الشاقة لكى يرفعوا من قدرهم . وحرصا منهم على ألا يطلعوا العامة على الوسائل المتواضعة التى يلجأون اليها فى اخراج المعانى والأفكار فى زيها النهائى » (٢) .

على أن (ناجى) كان يحمل أطرا عدة فى وقت واحد ، لقد كان فى ثقافته يستقى من موارد متعددة ، ويرى مناهل مختلفة .. ومع هذا بل ولهذا تتميز شخصيته التى تطالعك فى كل قصيدة ان لم يكن فى كل بيت من قصيدة .

... ولنتكلم عن شخصية ناجى الشاعر .

شخصية الشاعر :

كان (ناجى) سريع الانفعال ، كثير الأوهام ، قلق الظنون ، طاغى الحس ، رفاف النفس ، هفاف المشاعر . وكلها عوامل تظهر أثرها فى

---

(١) كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سويف ص ١٦٢ .
(٢) كتاب مبادىء علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ص ٢٤٤ . النص منقول عن كتاب « الأسس النفسية للابداع الفنى » للأستاذ مصطفى سويف ص ١٦١ .

صاحبها في حديثه ، في أسلوبه ، قسمات وجهه ، في كل ما يصدر عنه .. وكذلك كان شأنها مع ناجى ، كان لها انطباعات فى أسلوبه فتركته متوثبا نابضا بالحركة حتى ليعديك فتهتز باهتزازه .

وصورة ناجي تطالعك في كل بيت من شعره ، وروحه تطل عليك في كل قصيدة من قصائده حتى شعره الذى يجوز عليه النقد يمثل شخصيته أيضا ، فهو حين يقول :

آه من ساعة بث وشجون واقاء لم يكن لى فى حساب (١)

فالبيت من الناحية الفنية بيت عابر من ذلك النوع الذى كان يطلق عليه المغفور له حافظ ابراهيم (شعر السلام عليكم) السلام عليكم التى يقولها كل الناس دون أن تدل على مقدرة خاصة ، أو كفاية بعينها . وألفاظ البيت بعد هذا ألفاظ بليت من استعمالنا لها فى حديثنا اليومى .. (لم يكن لى فى حساب) هذه الجملة التى نرددها كثيرا هى تقريبا شطر بيت ناجى ، ومع هذا كله يدل البيت ببساطته الطبيعية وتحلله من الرصانة التقليدية وافضائه السريع الصريح ، يدل البيت بهذا كله على ناجى البسيط الواضح السهل الطبيعة ...

يقول الأستاذ دسوقى أباظة ، وهو يقدم ديوان (ليالى القاهرة):

وهناك ظاهرة تسيطر على هذا الشعر من ألفه الى يائه ، تلك هى أنك لا تستطيع أن تلمح فيه ظلا لشاعر غير الدكتور ناجى ، فهو فيه بذاتيته وطابعه وطريقة تفكيره وألوان عاطفته ، ونوازع شعوره ، لا فى شعر الحب فحسب ، بل أيضا فى المناسبات والمداعبات ..

....

ليست هذه مجاملة صديق ، ولكنها كلمة الحق التى قالها دسوقى أباظه بالأمس وأقولها مع الكثيرين اليوم ، وسوف يقولها غدا كل منصف طيب النفس ينسب الفضل الى ذويه ..

وهنا نكون قد فرغنا من تحليل ونقد شعر ناجي ... ولكن هناك صفات أخرى لم يستوعبها التحليل ، وهو من حقه أن نسجلها له ومنها الحوار فهو لا يحب المنصة ليلقي عليك منها ما لم يتوصل اليه علمك ولكنه يسر اليك ويشاكيك ويقص عليك ويحاورك تارة ويحاور قلبه أخرى :

لم عدنا ؟ أو لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم

(١) الدكتور ناجى ، ديوان (وراء الغمام) ص ١١ ــ ساعة لقاء .

ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم (١)

ويسترسل :

أيها الوكر اذا طار الأليف لا يرى الآخر معنى للسماء
ويرى الأيام صفرا كالخريف نائحات كرياح الصحراء (٢)

ومن قصيدته (ساعة لقاء) :

كيف يفنى ما كتبناه بنار وخططناه بسهد ودموع
يشهد الليل عليه والنهار والشهيد المتوارى فى الضلوع (٣)

كناية لطيفة هى احدى طرائف ناجى فى فنه ...

ويحاور حبيبه فى شاعرية توهم بالذم ، وهى تمدح أغلى المدح وأزكاه :

أغر حسنك أن الخلد جدوله وأنه من غريب السحر منبعه
هيهات يخلد حسن لا يؤلهه شعر من النسق الأعلى ويرفعه
كم بت منتبها أصغى لخطوته أراه فى الوهم أحيانا وأسمعه
كأنك النسم النشوان منطلقا أظل كالنفس الحيران أتبعه

وشعر ناجى كثير الهمس .. حتى فى وحدة الشاعر :

ياوحدتى جئت كى أنسى وهأنذا ما زلت أسمع أصداء وأصواتا
مهما تصاممت عنها فهى هاتفة يا أيها الهارب المسكين هيهاتا
جرت على الأمانى من مجاهلها وجمعت ذكرا قد كن أشتاتا
ماأسخف الوحدة الكبرى وأضيعها اذا الهواتف قد أرجعن ما فاتا (٤)

وشعره متوثب دائما لا يقر له قرار ولو ريع بالموت :

عجبا لقلب هيض منك جناحه وجرى به نصل الندامة يذبح
ومضى الحمام يدب فيه فان جرت ذكراك طار اليك وهو مجنح
لهفى على الناقوس بين جوانحى وعلى بقية هيكل لا تصلح
لا فرق بين أنينه ورنينه وصداه فى وادى المنية أوضح (٥)

(١،٢) ديوان الدكتور ناجى ، وراء الغمام . العودة ص ١٨ .
(٣) « « « ساعة لقاء ص ١٣ .
(٤) ديوان الدكتور ناجى . وراء الغمام . قصيدة أصوات الوحدة ص ١٨٨ .
(٥) « « « « « الختام ص ١٩٠ .

وفي شعر ناجي اذا رضي خفة وانطلاق ؟ ألا تحس رفرفته ورقرقته وهو يقول :

من أنت ؟ لا أدرى ولا من أنـا فيا اله الحب ماذا اسمـنا
انا حبيبـان وذا حبنـا انا وليدان وهـذا وليـد (١)

....

ويتصل بهذا الفصل طريقة ناجي فى صوغ شعره فقد كان يسح بالشعر ، فهو يفيض به بينه وبين نفسه فى مجلسه وفى المنتدى وفي خلوته وبين الجلوس ·· وكان اذا هطل عليه منه هاطل هم بتسجيله لساعته ·· على أى شيء يقع له ·· وريقة ·· بطاقة ·· وبين يدى الآن بطاقة تحمل اسمه وتحمل فى الوقت نفسه شعره طولا وعرضا فلم يترك بها فراغا غير منغوم حتى لتخال اسمه ـ المطبوع فى وسط هذا الزحام من شعره المخطوط ـ معنى من المعانى رف على البطاقة مع سرب الاشعار ··

وعندما عرض الأستاذ مصطفى سويف لقصائد بعض الشعراء بالتحليل كتب عن هذه الظاهرة أنها تدل (على حقيقة هامة ، مؤداها أن الشاعر كان يعانى من ضغط شديد فى نفسه) ، وأنه كتب هذا الجزء تحت وطأة هذا الضغط · لم يكتبه على ورقة تدل على استعداد المكان الذى كان يكتب فيه ولا استعداده هو نفسه للكتابة ذلك الاستعداد الذى يقوم على نوع من التنظيم والاعداد من قبل ··) (٢) ·

كما كتب فى موضع آخر مفسرا ما يقوله بعض الشعراء فى استخباراتهم ومذكراتهم من أنهم يواجهون فى لحظات الابداع مشكلة المسارعة الى كتابة ما يشرق فى أذهانهم ولا يكادون يتابعونه (٣) ·· وهنا استشهد بقول ساشفرل سيتول « تلك هى المباهج التى لا تطرأ على الكاتب فى حياته الأدبية الا نادرات ، عندما تتوالى على ذهنه الصور العقلية ، كما كانت تتولد من سن القلم وهو يكتب ، بل ان القلم فى بعض الاحيان يكون ابطأ من أن يلاحقها تسجيلا ·· » (٤) ·

وبين يدى من مخلفاته صفحة (مسودة) فى صدرها عنوان (عامان) وهو يدل على وضوح الغرض من القصيد فى ذهنه · وبعد العنوان هذان البيتان :

---

(١) ديوان الدكتور ناجى ، (ليالى القاهرة) ـ قصيدة من ن الى ع ص ١١٣ ·
(٢) كتاب (الأسس النفسية للابداع الفنى) للأستاذ مصطفى سويف ص ٢٤٢ ·
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٧ ·
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٧ ·

عام مضى وأخـــوه في الأثــر   مرا كمثل اللمـــع بالبصر !
يتهاديان بمسبح العمـــــــر   كالزورقين بليلة السمر !

ثم يلي هذا خط فاصل بينهما وبين ما يليهما . فهما يمثلان وثبة متكاملة ، ولفظة يتهاديان كانت أصلها (يتهادين) ، ويبدو أن عقله في ثورة العاطفة نبهه الى النحو ، فكتب فوق (ين) من يتهادين (يان) لتصير يتهاديان .

ثم يلي هذا بيتان آخران أولهما ناقص ، أو كما يقول الأستاذ سويف (في طور التجريب) ..

أما الثاني فمكتمل :

أبصرتها في صفحة الماء ..

مسحت أســـاى وأبرأت دائي   رؤيا الحقيقة غـير شوهـــاء

ثم خط فاصل ..

ويلي هذان بيتان . أما أولهما فهو :

أدركتهـــا فكرا وتحليقـــا   شارفتهـــا حلمـــا وتحقيقـــا

أما الثاني فقد استهله بقوله :

أدركتها مندفعا ، بالآلية اللفظية .. ثم ادركته تهويمه شعرية فرسم البيت على هذ الصورة :

أدركتهـــــــا   وغنمتها عطرا وموســـيقى !

ثم يلي هذا خط فاصل يعقبه هذا البيت :

عيني وعينك حينما التقتا   روحي وروحك حينما صـــفتا

وفي المسودة (حينما صفتا) في الشطر الاول ثم شطب لفظة صفتا وكتب فوقها (التقتا) ..

أرأيت ألفاظه وهي متواكبة ، بل انها في سباق تتدافع فيسبق لفظ القافية لفظ المصراع الأول ؟ .

وفي الورقة غير هذا ألفاظ متناثرة ، ولكنها متبلورة تبشر بمعان أكبر تلوح في أفق الشاعر ولكنها لم تظهر بتمامها مثل :

وتزاحمي في حيك النسم :

وغريمي الأضواء

وغريمي الأنظار تنتهب　　　　وخصمي ! تلتهب

ويؤيد حالة الغموض الشطب والتغيير البادى فى لفظتى عليـــك ، وتزاحمى الأضواء ، فأبدلت (فى حيك) بالأضواء ٠

لقد كان ناجى شاعرا موعودا، تخايله أطياف المعانى فيختلج ويختلج القلم فى يده معه ، وتباكرها صـــورها فيرف رفيف الخزامى بات طل يجودها ٠٠

وبعد : فهذا تسجيل وتحليل لفن ناجى الشعرى ، هو على توسعه لم يحط بكل ما يمكن أن يقال فى شعر الشاعر ، ولكنه خطـــوط كبيرة حاولت قدر المستطاع أن تظهر محامده دون أن تغفل فى هذا الشعر هنات قلما يسلم منها انسان فنان ، اذا استثنينا الذين لا يعملون ٠٠ فهـؤلاء السادة وحدهم هم الذين لا يخطئون ٠٠

الفنان فى ناجى الشاعر

لعل الكتابة عن الفنان ناجى الشاعر أسهل الموضوعات على الكاتب لأنه هنا يستقى من معـــين ثر الجوانب ٠٠ ففى ناجى من الفنان غزارة الشعور والصدق ، وتجنيح الخيال ورهافة الحس ، وهى مقومات الخلق فى العمل الفنى ٠٠

وفى ناجى من الفنان حبه للخير وهيامه بالجمال ٠٠ الجمال فى الطبيعة ، والجمال فى الانسان ٠٠ وفيه من الفنان عطفتـه على القبح واستقطاره للجمال من ينابيع خفية فيه ٠٠

وفى ناجى من الفنان عبادته للفن ومغالاته به واعزازه له ٠٠ وفيه منه تواضعه واسرافه وطربه للنكتة وابتداعه لها وحبه للحياة ٠٠ وأخيرا فيه من الفنان الأصيل شخصيته ذات الطابع الغلاب الذى يترك أثره فى فنه وفى متذوقه معا ٠

أما غزارة الشعور والصـــدق فيه فيتجلى فى غنائه الذى لا يمـل بالعاطفة ٠٠ العاطفة بمعناها الواسع الذى يتصل بالحياة والاحياء ٠٠ وقد كان ناجى فنانا أصيلا يستوحى قلبه ويستلهم عاطفته ويفهم الشعر على أنه عاطفة لا أكثر ، ويأسى (لأن فى مصر مدرسة جليلة الأثر يقودها زعماء لهم خطرهم يقولون بعكس ذلك) ويقص فى هذا الصدد قصــة بيير ميل الذى (ذهب ليزور اناتول فرانس فوجده قد وضع كتابا على ركبتيه وظهرت عليه هيئة الطفل المذنب النادم ، فسأله : مـــاذا بك يا أستاذ ؟ فأجاب : هذا كتاب بيير لوتى عنوانه (الصحراء) كله وصف للرمل والضوء ، والضوء والرمل ٠ ليس به فكرة واحدة ، ومع ذلك فهو

أية من آيات الأدب الخالدة ، انى حزين لأنى أضعت حياتى أعتقـــد أن الأدب يجب أن يعتمد على الأفكار أولا ، فالآن يتضح لى عكس ما كنت أعتقد ٠٠) (١)

ولعل مما يرضى الشاعر هنا ما وصفه به ابراهيم المصرى حين قال عنه ، (وهو لا يفكر أولا ثم يحس ٠ بل يحس بجميع حواسه وأعصابه ثم يرسم ويحلل ويتغنى ، ومن خلال أغانيه تلمح فكره كعنصر مكمل لعاطفته منطلق من صميم وجدانه ٠٠

واذن فعاطفته لا تنحدر من فكره كمعظم شعراء هذا العصر المثقفين، بل هو فكره الذى ينبع من عاطفته ، لأنه شاعر قبل كل شيء ، بالعاطفة يعيش ، ومن العاطفة يستلهم ، وفى سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب فى مناكب القاهرة ليلا ، ويغشى أنديتها وملاهيها ويفرح ويهلل ويضحك ويبكى !) (٢) ٠

فان هذا بعينه يتساوق مع رأى شاعرنا فى الفنان ويلتقى ٠

ويضرب ناجى مثالا آخر فى العمل الفنى يدل على أن الفنان يجب ان يفكر بالقلب فيسوق تعريف الشاعر عن الشاعر دنسانای :

(رجل يرى جلال العالم فى لمحة واحدة ، ويرى الجمال فى كل نواحيه ، ويطعنه القبح كخنجر ٠ يأبى أن يرى الظلم يقع على الآخرين كأنه يقع على نفسه ، رجل يعرف العالم بأجمعه كما يعرف الآخرون الفرد بالتفصيل ويعرف الزهور كعلماء النبات ، رجل يظن مجنونا ، بينما هو فى الحقيقة رجل يسمع صوت الله من حين لحين) (٣) ٠

وآية الصدق فى شعر ناجى أنه كان فى جملته من نفسه واليها ، فقد غنى عواطفه هو ، وبكى آلامه هو ، والفن أصدق مايكون اذا ما حكى عن النفس بالسليقة دون تعمل من الفنان ٠٠

وفى شعر ناجى غير عواطفه وآلامه تماس واع للحياة والأحياء ، وهو فى انفعالاته صادق يعبر عما يحسه ويتصور ما يراه ، فان خالف الواقع المادى فى هذه الصورة أو تلك من صوره الشعرية فذلك من املاء عاطفته عليه ، عاطفته هى التى تكيف احساساته وتلون مرائيه ٠٠٠ يقول رودان (اننى لا أغير الطبيعة أبدا ٠٠ اننى أرصدها كمـــا أراها ،

---

(١) من مقال للدكتور ناجى (معنى الشعر) فى مجلة الفن ٠

(٢) كتاب (صوت الجيل) للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٤٠ ٠

(٣) من مقال للدكتور ناجى (معنى الشعر) ٠

واذا كان يبدو للبعض أنى غيرتها فذلك يكون قد تم فى لحظة لم أدرك فيها أننى أغيرها فعلا .. وبعبارة أشد وضوحا ان العاطفة تؤثر فى وجهة نظرى ، هى التى تغير الطبيعة كما تبدو لسائر القوم ، لأن عاطفتك تكشف لك الحقائق الباطنية الكامنة وراء المظاهر . ولكن يبقى بعد ذلك المبدأ الرئيسى للفن ، وهو أن تنسخ ما تشهد وأى منهج آخر مآله الى الفشل حتما .. وليس على الفنان أن يجمل الطبيعة فانه لن ينشىء عملا فنيا .. لأنه ينظر Regarde دون أن يرى Voir (١) .

وهكذا كان ناجى يرى وينفعل ، ويعبر عما رآه ، ويسجل انفعاله به فى بساطة الفن الأصيل الذى ينبع من نفس سهلة وفطرة سمحة مواتية ..

وخيال ناجى المجنح دليله تلك الصور الكثيرة المعروضة فى ديوانه ..

ويتصل بغزارة الشعور رهافة الحس ، وناجى شاعر مرفرف كأنه يهفو بجناحين ..

وشاعرنا كبير النفس واسع المروءة .. كم آسى من جراح وكم بذل من معروف .. لم ترض رحمته بالطب لمرضاه فحسب ، بل تكلفت بتقديم الدواء للعاجز ، وكان يعود الفقراء منهم فى بيوتهم متطوعا .. لقد كان رجلا ، وكان نبيلا وكان عطوفا رحيما .

وعندما استأثرت رحمة الله بالطبيب الآسى غلب على رثاء الراثين حديث رحمته حتى كادت تنتظم منها ملحمة رفيعة ، فشعره حنان وطبه شعر ، وهذه دمعة واحدة من الدموع التى أريقت عليه لا تدرى معها أيهما أحق بالبكاء : الفنان .. أم الانسان ؟

(كذلك كان صاحبى « ابراهيم » ما ترك من حياتنا وجها الا مسح بيد الشاعر عليه ، ولا موضعا الا زف بجناحيه لديه ، ولا مروءة الا بادر اليها متوثبا ، ولا مكرمة الا استبق اليها ، صداحا طروبا ، ولا خيرا الا كان لندائه فى مطالع المستجيبين ..

لقد جعل الطب أيضا شعرا ، وذهب فيه مذهبا مبتكرا ، اذ أدخل عليه الرفق ، فجعله صناعة حنان ، وانكمش فى دراسته ، ليجمع فيه بين المهنة والفن ، حتى لتزحم دار علاجه بأهل الفاقة والحرمان ، وهو

---

(١) النص منقول عن كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ سويف ص ٢٧٧

المتهلل لهم . لا يسألهم أجرا ، بل قد يشترى لهم الدواء ، ويذهب يبحث عن الغائبين منهم والمدنفين ..

كان ابراهيم ناجي طبيبا رحيما ، لا يأبه بالمال ، ولا يحفل بمركز العليل بل يؤثر الفقراء على أصحاب اليسار ، لأنه يجد في علاج المساكين (انسانيته) الكريمة ملتقية مع آدميته النبيلة ، كشاعر بديع ، ملهم الخاطر ، رقيق الوجدان ..) (١)

ليس هذا القول من فعل الموت ولهفته ، وليس هذا من تعلق النفس بالممنوع ، وتشبثها بالمسلوب الذى لا أمل لها فى استخلاصه ، وليس هذا من حنين الحى الى الميت .. ليس هذا من فعل الموت الذى يضرم حب الميت فى قلوب الأحياء وكأنه ولد فجأة ودفعة واحدة .. ولكنها صفات الرجل ترفع من ذكراه بعد وفاته ، كما كانت تعلى من قدره فى الحياة .

انها صفات الرجل التى وصفه بها رائوه ، فلم يزيدوا شيئا عما قاله فيه ابراهيم المصرى قبلهم منذ عشرين عاما ، حين كتب عن ناجى الشاعر يقول والعجب عليه باد :

« للدكتور ابراهيم ناجي (٢) شخصية غريبة تستهوى كل من اتصل بها . شخصية شاعر قلق يحيط بها ويغمرها السر الذى قذف بها الى هذا العالم والذى لا تنفك تتساءل عنه ، وتتطلع اليه ، مبهوتة مما ترى حولها من ألم وجمال ، شخصية خفيفة مجنحة لا تلبث أن ترف على الاشخاص والأشياء حتى تحلق فى أجواء غير منظورة أسعد ما تكون بالصمت والتأمل والصفاء » .

تلتقى بالدكتور ناجى فتشعر كأن نسيما منعشا يهب عليك . وتصافحه فكأنما هو يفتح صدره لك ، وتجلس اليه وكأنك فى حضرة روح حائر ، وتستمع لحديثه ، فيأخذك العجب من طهارة قلبه وبراءة نفسه وسلامة طويته وغذوبة صوته وطلاقة محياه ، فتذهل ويتضاءل شخصك فى عين نفسك ، ويعز عليك نقصك ، ولا يغريك فى النهاية الا يقينك بأن الخير الذى غادرك استقر فى سواك وتمثل نابضا حيا فى قلب هذا الشاعر النبيل الشاب !

---

(١) للاستاذ عباس حافظ .

(٢) كتاب « صوت الجيل » للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٣٨ - ١٣٩ وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ .

وتحدق اليه فترى رجلا هزيلا متوسط القامة منكمش الأعضاء ، أصلع مقدمة الرأس ، ناعس العينين مديد الذقن ، أشبه بالصورة التى نعرفها للشاعر الايطالى دانونزيو ، يمشي وكأنه يتعثر ، يصمت وكأنه غير موجود ، يقبع فى ركن من القهوة وغليونه في فمه وكأن سنة من النوم قد استغرقته . ثم يتكلم بغتة ويفيض ولا يفتأ يتحرك ويتلفت ويلوح بذراعيه تلويحا عصبيا متداركا ، فتحس لفورك رحابة نفسه واضطرابها وضيقها بما تحمل .

وتسمعه يجادل ويحتد وصوته أبدا صريح ، وجبينه أبدا منبسط والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفتيه ، وعينه الحالمة أصفى ما تكون محبة وعطفا ، فيخطر لك أن تداعبه بنكتة طريفة ، وسرعان ما يتبدل ويستضيء وجهه ويتألق وتشيع فيه نضارة معبودة كنضارة الأطفال ، فيأخذ فى ارسال النكتة تلو النكتة ، حاضر البديهة عبقرى الفكاهة جم الحيوية ، يضحك ضحكات حرة عريضة كأنما الفرح كله قد اجتمع فى فؤاده ، وكأنه قد نسى فى لحظة واحدة كل ما استشرفت عليه نفسه من هم الحياة ! » .

هذا جانب الخير فيه ، أما جانب الجمال فحديثه ذو فنون .. لقد هام بالحسن فى الانسان والطبيعة .. وغناؤه للناعمات الغيد قد سمعناه فى فصل (شاعر الغزل) .. فليستعده من يشاء .. أما الطبيعة ففى حضنها غالبا كانت وقفاته وملتقاه حتى ليخيل الى أن كمال هناءته فى جمعه وجه الحبيب الحسن والخضرة والماء ..

وهو يطلب بدوره التجاوب مع ما حوله ، فيتساءل :

هل يسمع النيل اذ سرنا بجانبه — والموج مجتمع فيه ومفترق
صوتا تماوج فى روحي فجاوبه — من جانب القلب موج راح يصطفق
تظل تنهب أذنى من أطايبه — كأنها من خفايا الغيب تسترق
يا جنة من جنان الله أعبدها — لن تبعدى ولدى السحر والعبق(١)

ان الغصن الصغير يستوقفه .. و .. يجذبه .. ويوحي اليه ! كيف هذا ؟

لا تسلني ، بل سله هو يقص عليك :

رأيت غصنا صغيرا — منورا ونضيرا
أرق ما تشتهى النفـ — ـس منظرا وعبيرا

(١) ديوان الدكتور ناجى . ليالي القاهرة ـ قصيدة المنصورة ص ١٠٨ .

جذبته جذب عنيف قد كاد يذوى الزهورا
فلم يثن لجذبى وكان غصنا صبورا
لكننى لم أدعه حتى علا مسرورا
وارتد يضرب وجهى ضربا عنيفا مثيرا
وعاد ينشر فى الأيك ذا الحديث المثيرا
تضاحك الأيك جذ لان شامتا مسرورا
ضحك الذى بعد صبر قد فاز فوزا أخيرا (١)

هذه احدى قصصه مع الطبيعة فيها اشتهاء المنظر واسترواح العبير، وفيها المعابثة، وفيها المساجلة وفيها التأمل والاندماج، وأخيرا فيها الرمز، كل هذا فى بساطة ينبل بها الفن لأنها بساطة الأستاذية المبدعة ..

وناجى يعرف كيف يتحد بالطبيعة . ومن مخطوطاته هذه الصورة من صور امتزاجه بها :

قاسمتنى الورقاء أحزان قلبى وشجاه، وغردت حين غرد
ثم ولت، والقلب كالوتر الدامى يتيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائى ! أرى اطراد فنائى وانتهائى فى صورة تتجدد

وهذا الشاعر المولع بالجمال فى الطبيعة والانسان صدمه مرة كاتب بمقال عنوانه (شعراء الجمال محرومون من الجمال) وسلكه بينهم ..

فرد عليه متسائلا : على أى صورة تفهم الجمال؟ ثم انبرى فى الدفاع عن الشعراء الذين لم يشأ حظهم أن يروا كاتب المقال، ثم انتهى بنفسه مخاطبا الكاتب فى سخرية قائلا (.. الصحيح أنك لم ترنى أبدا، ولم تقرأ لى أبدا . فلماذا لا تزورنى لفنجان قهوة .. لعلى أعلمك وأقول لك ما هو الجمال !!

الجمال أيها المحرر العزيز فكرة ومعنى، وحركة وحياة، واشراق ولمعان .. وليست الوحاشة فى أنف كبير ولا فى خلقة (زرايبى) ولا فى شفة غليظة ولا فى نظارة سميكة ولا فى قوام « متداع » .

الجمال أيها المحرر العزيز هو ذلك الشىء المبهم الذى يطالعك من عينين، ولو ذابلتين، فينتزع اعجابك وأنت لا تدرى بالضبط لماذا .. ؟

---

(١) ديوان الدكتور ناجى . ليالى القاهرة ـ قصيدة غصن صغير ص ١٩٨ .

اجلس مع أى من هؤلاء الوحشين ، وتحدث الى أى أحد منهم وأنت تعلم معنى الجمال ·· جمال النفس ··) ·

وليس الجمال وحده هو الذى يستهويه فان الأديب عنده هو الذى يعلمنا أن نحب الحياة (ورسالة الأديب تجعلنا نؤمن بجمال الوجود وبأنه ما من شىء الا وله قيمة ، وأن القبح الظاهر قد يستر جمالا بارعا ، ان فى الشر صورة قد تكون أروع من الخير · وبعبارة أخرى أن الأديب الحق هو الذى « يرى » والذى يستطيع بدوره أن يجعلنا « نرى » ونحس ونلمس ونؤمن ··) (١) ·

ها هو ذا ناجى فى رحابة قلب الفنان يشفق على كل شىء ويترفق فى الاتصال بالأشياء والناس ، ويسكب الفن سلامه ونوره فى نفسه ليلمح الجانب المضىء كما يدرك بنفاذة الجانب المظلم من كل شىء · ويغفر هذا من أجل ذاك ·· كان يرى لكل شىء جانبين فاذا أخذ على المتنبى تصويره الدنيا كمعركة دامية لا أثر للرحمة فيها ولا للانسانية ولا للخير ، أردف قائلا فى عزاء (ولكن لا بأس ، لنعلم أولادنا القوة والبأس والاعتداد بالنفس ، ولنتركهم للحياة بعد ذلك فسيرون فيها الخير والشر جارين ، والطيب والخبيث شيئين ضروريين متلازمين ، وفى رأيى أن الشعور بالقوة هو الذى يولد الرحمة ، لأن الضعف يولد الحقد والثورة الكامنة) (٢) ·

وناجى الذى يحب الخير ويعشق الجمال ويدين بالرحمة ، يغالى بفنه على البخس وهو المستهين بالمال ، السخى به ·· دعته محطة الاذاعة المصرية ليسجل ملحمته المعروفة « الاطلال » فارسل اليها نسخة منها ·· وقد سجلها مديرها فى ذلك الحين فى شريط استغرق نصف ساعة ·· وأذاعتها مرارا ·· كل هذا دون أن يفاتحها ناجى فى القيمة المادية لتسجيل الملحمة ·· واذا بالاذاعة تعرض عليه ·· مائة وخمسين قرشا ·· أتدرى ما الذى فعله ناجى ؟ لقد غضب الفنان لفنه الذى صاغه من قلبه وروحه ثم ارتخصته محطة الاذاعة ·· لقد ذهب ناجى الى مدير الاذاعة وقال : ان هذا ثمن تغريدك ، لا ثمن شعرى أنا (٣) ·

كان هذا آخر عهده بالاذاعة ··

على أنه لا يعنيه التقدير الحكومى ، وتسأله عن السر فيقول :

---

(١) من مقال « أدب السخط وادب الدموع) فى مجلة الفن ·
(٢) من مقال « معنى الشعر » فى مجلة الفن ·
(٣) من مقال « دردشة ادبية » فى الجمهور المصرى ·

(انى مؤمن بهذا الشعب ، وقد كنت أعتب على صديقى الدكتور زكى أبو شادى ضجره بالحياة فى مصر ، فقد تخطته الحكومة فى الترقية مرارا حتى مل الانكار وهاجر الى أمريكا . كنت أعتب عليه هذا الملل وأقول له ان لدينا رسالة نؤديها للشعب وعلينا أن نؤديها مهما لقينا فى سبيلها . أما هو فهاجر يائسا ، وأما أنا فقد كانت تعترينى فكرة الهجرة من حين لحين ، فاذكر نفسى بما قلته لأبى شادى ، وهو أننى أحمل قلما أؤدى به رسالة لبنى قومى) (١) .

ان (ناجى) يكبر الفن هذا الاكبار ، لأنه يحبه غاية الحب ، هل تصدق أنه كان يتداوي بالفن ! يتداوى به حقيقة لا مجازا .. وكيف ؟ سأترك له الجواب .. (مرت الأيام ، وتقدمت بى السن ، واعترتنى أمراض وأزمات فأخذت أتداوى بقراءة أغاني شاكسبير .. وهذه الأغانى لا يعرفها الا القليلون لعمقها وصعوبتها ..

وكان تسليتى أن أقرأ وأترجم ، ولم اكد افرغ منها حتى برئت من مرضى جسما ونفسا ، وعدت الى شبابى ولازلت محتفظا به وبأغانى صديقى شاكسبير !) (٢) .

وفي ناجى من الفنان روح الفكاهة ، فهو يطرب للنكتة ويعرف كيف يخلقها .. وهو يرى النكتة فنا ، ويستشهد على فنيتها برأى ذلك الفريق من علماء النفس الذين أكدوا أنها فن . اذ (الفن طاقة حيوية فائضة ، لا تتيسر الا للذين وهبهم الله من الحيوية معينا طيبا لا تستنفده شواغل الحياة العادية ، ولا تبتلعه الدنيا بمتاعبها المألوفة ، وهم يستدلون على ذلك بأن النكتة الصافية كالفن العالى ، لا توجد الا عند الأذكياء ! ..

هو يعقب على هذا الرأى متسائلا : ولكن ما الذكاء ؟ لا شك انه ضرب من البريق اللماح . انه استخلاص لنتيجة ، وادراك لمخرج ، أو ملاحظة لما يفوت الكثيرين ، أو حدة فى الذاكرة ، ونحن نسميه تجوزا بسرعة البديهة ، ولو أن سرعة البديهة ضرورة لكل فنان أصيل ، ولكل رجل عبقرى ، وهل النكتة البارعة الا نوع من الخلق والابتكار ؟ فهى اذن فن ، لأنها وليدة الذكاء ؟ .. ولا يعرف فنان أصيل الا وله باع فى النكتة) (٣) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) من مقال للدكتور ناجى بعنوان (كتب أثرت فى حياتى) ... الجمهور المصرى ١٩٥٣/٢/١٦ .

(٣) من مقال « فن النكتة » فى مجلة الاثنين .

ومن طرائف ناجى تلك القصة التى يرويها : (اشترى العمارة التى أسكنها بقال ثرى ، ثم شاء أن يسكن شقة فيها ، فأنذرنى بالاخلاء ورفضت بالطبع ، فسارت القضية الى المحكمة وهناك تبين أن صاحب العمارة سيسكنها هو وأولاده ، وأن بناته على وشك الزواج ، فشرد ذهنى، والتفت فجأة أسأل القاضى :

أريد أن أعرف أولا ، لماذا اختارنى وحدى دون سكان العمارة جميعا ؟ . ولم يكن محامى البقال قد أعد ردا لهذا السؤال الذى فوجىء به فالتجأ الى اختراع سبب ..

(وهنا دماثة فى الوصف اذ المراد (اختلق) فخففت ولطفت حتى صارت اختراع) ـ حين قال :

ـ الدكتور غنى .. ومالك عمارة فى شبرا .

فسألنى القاضى .

ـ هل أنا حقا أملك عمارة ؟

فقلت على الفور :

ـ عمارة ايه بس .. هو أنا حتى « مالك » أعصابى ؟

فضحك القاضى ، وضحك جميع الحاضرين ، وكان الحكم بعد ذلك فى صالحى .. (١)

....

حدث أن زار ناجى الطبيب مريضا من المعذبين فى الارض ولما فحصه وقف على السر الرهيب .. ان العلة لم تكن سوى الجوع ! وأحنى الطبيب رأسه ثم رفعها ليطمئن مريضه . وأقبلت زوجة الرجل تسأل (الحكيم) عما به فطمأنها ثم أسرت يده الى يدها خمسين قرشا وطلب اليها أن تشترى له بها دجاجة ولحما وتطعمه ثم انصرف .

وجرت الأيام فى سيرها فاذا بناجى الشاعر يرى نفسه مصادفة أمام زوجة الرجل فى بعض الطريق .. فتذكر وسألها عنه وعما فعلته وهل أطعمته الدجاج كما وصف لها ؟ فقالت على الفور :

(لا أنا اديت الفلوس لحكيم بيفهم علشان يكشف عليه)

---

(١) من مقال فن النكتة فى مجلة الاثنين .

كان ناجي يروى هذه الطرفة فى مجالسه متفكها ويعقبها بضحكة طويلة مستغرقة فيها من سخرية العارف ، وألم الأسوان أضعاف ما فيها من سرور المتندر الخلى ٠٠

وناجى ضحوك طروب ٠٠ ولا يتنافى هذا مع شعره الحزين الكابى فان أسرع الناس استجابة لأسباب الضحك عند الحاجة أعظمهم احساسا بالألم ٠٠ وقد كان شعره صورة من نفسه ، ونفسه طالما عصرها الألم ٠٠ أما النكتة فهى تنفيس عن ذلك الألم من نوع آخر ، تنفيس ضاحك حين كان الشعر تنفيسا باكيا ٠٠ وقد رأينا طرفا من دعاباته عند عرضنا لشعره ، دعاباته التى نال بها آخرين ٠٠ وهاك دعابة ، ولكنها تدور حول نفسه وتمثل روح الفكاهة عنده ٠٠ (كل من رآنى من اخوانى يقول لى أنت طفل كبير ٠٠ وسنحت الفرصة لأستغل هذه الهيئة ، فتقدمت لمسابقة الطفولة ولكنى للاسف منعت من الاشتراك بحجة أننى طفل عجوز ، مع أن لدى من الأدلة ما يثبت أنى طفل ويجوز لى أن أتطفل على الطفولة ٠٠ فانا أبدل أسنانى الآن ، ووصف لى الأطباء الاكثار من شرب اللبن والفيتامين المركز الذى يوصف للاطفال للين العظام ٠٠ وليس لى شعر ، وقد أخذ ينبت أخيرا ، وألبس مريلة فى العيادة ، وأستطيع أن أضحك فى أعصب الأوقات ، وأنا شاعر والشاعر دائما طفل كبير ٠٠ فطمت من كل شىء الا من صفتى الطبيعية ، وأطير من نفخة ، وتقلبنى الريح رأسا على عقب اذا اشتدت قليلا ، فبناء عليه أطالب (الاثنين) بأن تشركنى فى مسابقة الطفولة ، وسواء اعتبرت طفلا أو متطفلا) (١) ٠

لشد ما تذكرنى هذه القطعة بأسلوبها وروحها وسخريتها بالمغفور له الأستاذ المازنى ٠

٠ ٠ ٠ ٠

ومن نوادر الفنان فى ناجى الشاعر هذه القصة فاسمع اليه ٠

كنت فى امتحان البكالوريا أحفظ (هملت) كلها وأمثلها كأنى على مسرحه ٠٠ فلما جاء دورى فى الامتحان الشفهى سألنى الممتحن البريطانى كما يسأل الطلبة ، ماذا تحفظ ؟ فقلت (هملت) قال : أسمعنى ٠ فنهضت واقفا وأخذت ألقى وأمثل ٠٠ ونسيت نفسى ونسى الممتحن نفسه ووقته ، حتى أفاق فنظر فى ساعته فاذا به قد استمع الى ساعة كاملة بينما الناس فى الخارج يتساءلون عن سر هذا الامتحان الطويل لطالب واحد ٠

---

(١) من مقال لناجى فى مجلة الاثنين بعنوان (طفل متطفل) ٠

وأخيرا نظر الى وقال : « هل جئت تمتحن في البكالوريا .. اذهب بارك الله فيك » (١) .

....

وهو فنان طالبا فى الطب .. وكيف ؟ .. عنده لا عندى الجواب : (أخذت أدرس الطب على طريقة فنية ، فقد كنت أبتدع لرفاقى الصور ، واخترع لهم من فنون الكتابة ما يعينهم على الحفظ . وظللت كذلك الى الساعة التى أكتب فيها هذا ، أزاول الطب كأنه فن . وأكتب الأدب كأنه علم ، أى أراعى فيه المنطق والتحديد والوضوح) (٢) .

وفى ناجى من الفنان تواضعه واسرافه وليس التواضع والاسراف بصفتين موجبتين فى الفنان فقد يكون على النقيض : اذ الفنان كشخص غير عادى لا يعرف الوسط الشائع بين الناس فهو فى صفاته اما فى هذا الطرف أو ذاك ..

وتواضع ناجى دليله أنه كان طبيبا وكان شاعرا وهما صفتان نابغتان ، ولكنهما لم تحفزاه الى الفخر والتعالى بل كان لين الجانب رقيق الحاشية .. فلم يفتخر على عادة الشعراء .. ولم يحرز بطبه المال على كثرة مرضاه لأنهم لم يكونوا فى عينيه يوما وسيلة للكسب ، بل مجلى للرحمة والانسانية والفنية فيه ..

وفى ناجى من الفنان شخصيته التى تمهر العمل الفنى بامضاء غير منظور . وأحسب أن لست فى حاجة الى من يدلك على القائل اذا سمعت هذه الأبيات :

انى علـى يأس وكأسى كابى	وعلى سرابى عاكف وشرابى (٣)
ولقد فرغت من التعلل بالمنى	الا وميضا فى الرماد الخابى
رمقا يعللنى بأنك عائد	يوما لقلبى قبل يوم ذهابى (٤)
حتى اذا الأقدار شئن وعدت لى	راجعت نفسى واتهمت صوابى
أأرى شروقك فى أفول مغاربى	وأشم عطرك فى ذيول شبابى

---

(١) من مقال « كتب أثرت فى حياتى » الجمهور المصرى ١٩٥٣/٢/١٦ .

(٢) من مقال « الأدب فى سيرجاله » للدكتور ناجى .

(٣) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » يأس على كأس ص ٥٩ .

(٤) يجوز أن يروى هذا البيت :

رمـق يعللنى بانك عائد　　يوما لقلبى قبل يوم ذهابى

على سبيل الالتفات ولعل هذا أحسن وقعا فى النفس .. ولكن لنترك للشاعر بيته يتحكم فيه ذوقه وحده .

انه ناجى بلا مراء ·· ناجى بيأسه وكأسه وسرابه وأمله وشكه وحذره · انه ناجى وهذه ألفاظه واللحن من موسيقاه ·

ويعرف ناجى « الانتاج الفنى » بأنه (ولادة وأن الفنان الصحيح يعانى فى سبيل فنه ما تعانى الأم حتى تضع مولودها ، وما يسبق ذلك المولود هو نفس ما يحدث للفنان حين يهبط عليه الوحى فتملؤه الفكرة ولا تزال تطارده حتى تندمج فيه ، وما تزال تلح عليه حتى يتخلص منها ما نسميه العمل الفنى) (١) ·

ويذكرنى هذا التعريف بقول المغفور له الأستاذ المازنى (·· ليس ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمخض بالجنين ، وبين حركة التوليد فى النفس · وكما تفتر المرأة بعد أن تضع طفلها ، ولا ينازعها فى ذلك الوقت شوق اليه أو تحس فرحا به ، وانما يكون احساسها بالفرح بعد الضيق الذى كانت فيه ، والكرب الذى كانت تعانيه ، والراحة بعد الجهد والمشقة والعذاب ، والتفتير الذى يورثها اياه ما تجشمت ، كذلك يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس والفكر) (٢) ·

والرجلان صادقان فيما ذهبا اليه ·· ان كلا منهما يصف تجربة عاناها ويعانيها كل فنان أصيل ·

وبعد ·· فقد عاش ناجى حياته فنانا ، أحرى بالواصفين أن يقولوا فيه ما قاله هو فى الحكيم (قضى زهرة الحياة يغترف من معين السماء ، ويقتبس من النجوم ، يريد أن يرفع أهل الأرض الى تلك العوالم المضيئة المتألقة العالية ··) (٣)

سألوه عن شبابه فبرقت عينه وهو يتمتم ·· (ظفرت بالجمال ، وعبدت الفن ، ونعمت بالموسيقى ، ولعبت بالمال ، واحتملت العذاب ، وتلذذت بالكفاح) ·

الجمال والفن ، والموسيقى معابد فنان ··

واللعب بالمال طبيعة فنان ··

والعذاب والتلذذ بالكفاح ضريبة الفن ··

··· وقد أداها وأوفى غاية الوفاء ·

---

(١) (الخبر) العدد الصادر فى ١٩٤٥/٢/١ ·

(٢) العدد ٢٣٠ من مجلة الرسالة · السنة الخامسة · ص ١٩٢٥ بتاريخ ٣٧/١١/٢٩

(٣) كتاب (توفيق الحكيم) للدكتور اسماعيل أدهم والدكتور ابراهيم ناجى ص ٢١٦

صـــور

وقبل أن نودع (ناجى) فى شعره ، بعد أن ودعناه فى الحيـــاة، يحسن بنا أن نتطلع الى هذه الصور القليلة من شعره ٠٠ وقد رأيت أن أخصها بركن خاص حتى لا تخطئها العين العابرة فى زحام المعرض الحافل٠
واليك الصور بأسمائها :

حبيبان :

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنـا
ومشينا فى طريق مقمـــر تثب الفرحة فيــه قبلنـــا
وتطلعنـــا الى أنجمـــــه فتهاوين وأصـــبحن لنـــا
وضحكنا ضحك طفلين معـــا وعدونا فسبقنا ظلنـــا (١)

صورة فيها نبض وفيها مرح ، وفيها خفة تكاد تطير ٠٠

فـداء وولاء :

أيحرم حتى وهم حبك من رءى بمهجته فى ناره دون احجـام
وأنفق فيــه قلبه وشــبابه فلم يبق الا الجرح والشفق الدامى
ومن عجب أحنو على السهم غائرا ويسألنى قلبى متى يرجع الرامى(٢)

لقـــاء :

أيها النور سلاما وخشوعا أيها المعبد صمتا وركوعـــا

(١) ديوان وراء الغمام قصيدة الوداع ص ٥٥ ٠
(٢) ديوان وراء الغمام ، قصيدة مناجاة الهاجر ص ٨٨ ــ ٨٩ ٠

ملكت قلبي ولبي رهبة عصفت بالقلب واللب جميعا
رب قول كنت قد أعددته لك اذ ألقاك يأبى أن يطيعا
وحبيبي من عتاب في فمي قد عصاني فتفجرت دموعا (١)

مناجاة :

قربي عينك مني قربي ظلليني واغمريني بصفاها
وأريني هدأة البحر اذا انبسط البحر جلالا وتناهى
وأريني لجة السحر التي ضل في أعماقها الفكر وتاها
ألمح اللؤلؤ في اغوارها وأرى الطيبة تطفو في سناها
وأراها تخبأ الخلد لمن باع دنياه وبالروح اشتراها (٢)

نداء :

وأناديك في التداني وما أطمع الا أن يستجاب النداء
باسمك العذب انه أجمل الأسماء مهما تعددت أسماء
لفظة لا تبين تنطلق الأقدار عن قوسها ويرمي القضاء
وهي بين الشفاه ناي وتغريد وطير وروضة غناء
وهي في الطرس قصة تذكر الأحباب فيها وتحشد الأنباء (٣)

تدليل :

ماذا صنعت بناظر لا ينثني متطلعا متلفتا مسترتادا
وأنا غريب في الزحام كأنني آمال أجفان حرمن رقادا
ولقد ترى عيني الجموع فماترى دنيا تموج ولا تحس عبادا
فاذا رأيتك كنت أنت الناس والأعمار والآباد والآمادا
وأراك كل الزهر ، كل الروض، أنت لدى كل خميلة تتهادى (٤)

حسرة :

وعفا القيد عنك كفا وساقا فاذا الأرض كلها لك دارا (٥)

---

(١) ديوان وراء الغمام قصيدة الغد ص ١٠٠ .
(٢) المصدر السابق الى س ص ١٥٥ .
(٣) ديوان ليالي القاهرة ملحمة السراب ص ٩١ – ٩٢ .
(٤) ديوان ليالي القاهرة . آمال كاذبة ص ١٠٤ .
(٥) المصدر نفسه السراب في السجن ص ١٠١ .

ذكـــرى :

يا زهرة عذراء تنشر عطرهـا ... وتذيع في جفن الضحى أحلامها
لاقيتها والريح تجمع شملهـا ... والسحب تجمع برقها وغمامها
عانقتها ظمآن أشرب راحهـا ... واستقطرت قلبي لتملأ جامهـا
فاذا الرياح نزعنها عن خافقـي ... ضممت على أنفاسه أكمامها (١)

وفـاء :

لك في خيالي روضـــة فينـانة ... غنى على أغصـانها شاديهـــا
يحمي مغارسها ويرعى نبتهـا ... راع يجنبها البـلى ويقيهــا
فاذا النوى طالت على وشفني ... جرحي وعاد لهجتي يدميهــا
نسق الخيال زهورها وورودها ... فقطفتها وشممت عطرك فيها (٢)

---

(١) من شعره المخطوط من قصيدة بعنوان « قصة حب » ·

(٢) المصدر السابق ·

المراجع والمصادر

١ ـ دكتور ابراهيم ناجى — ديوان وراء الغمام
٢ ـ دكتور ابراهيم ناجى — ديوان ليالى القاهرة
٣ ـ دكتور ابراهيم ناجى — رسالة الحياة
٤ ـ دكتور ابراهيم ناجى — كيف تفهم الناس
٥ ـ دكتور ابراهيم ناجى — شعر مخطوط
٦ ـ دكتور ابراهيم ناجى والدكتور اسماعيل أدهم — توفيق الحكيم
٧ ـ دكتور طه حسين — حديث الأربعاء
٨ ـ الأستاذ مصطفى سويف — الأسس النفسية للابداع الفنى
٩ ـ الأستاذ مصطفى السحرتى — الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
١٠ ـ الأستاذ ابراهيم المصرى — صوت الجيل
١١ ـ صحف ومجلات : الرسالة ـ أبولو ـ الفن ـ الاثنين ـ الكواكب ـ الجمهور المصرى ـ الخبر

شعب وشـــاعر

- أبو القاسم الشابي

الاهـــداء

الى الروح المضيئة التي تنير لى الطريق باخائها وصداقتها وتجاوبها وفهمها الذكى العميق لرسالة الأدب ، ودور الأديب .. الى « طاهر زوجى

أهدى هذا الكتاب »

نعمات أحمد فؤاد

مقدمة

الشابى .. الشابى .. ردد العالم العربى هذا الاسم كثيرا فى الفترة الأخيرة قبيل ظهور ديوانه « أغانى الحياة » ، فى اهتمام ظاهر وتقدير ملحوظ . ومن قبل العالم العربى احتضنت مصر الشابى واذاعت شعره فى مجلتها (أبوللو) (١) .. ثم صمت البلبل وبعد عهد الاسماع به حتى كادت تنساه واذا بالشاعر الذى تألم طويلا من الجحود تقف الأقلام على دراسته فجأة وتجول العين الدارسة والقارئة معا فى نواحى شعره جولات تستأنى وتسرع وتنصف ، أو يميل بها الميزان أحيانا ولكن الحركة بمظاهرها المختلفة ، التفاتة كانت واجبة منذ بعيد واحياء لا شك فيه .. غير أنك لو جمعت ما كتبه الكاتبون عن الشابى على اختلاف بينهم فى الرأى والهوى وحاولت أن تجمع منه دراسة منسقة متكاملة تنهض مرجعا عنه أو حتى ترسم صورة متماثلة له ، لما ظفرت بطلبتك على الجهد والصبر وصدق الرغبة فى التوفيق ..

ان الكرام الكاتبين الذين أقبلوا على الشابى بالدرس أو التعليق واجهتهم صعوبة ليست بالقليلة أو الصغيرة الشأن فقد عرضوا لشاعر أشعاره متفرقة هنا وهناك ، وآثاره فيها المطمور والبدد . وما كان لشاعر أو صاحب أثر فنى أن يدرس دراسة كاملة أو متكاملة على الأقل ، ما لم تجتمع الخيوط كلها فى يد الدارس تجمعا يواتى معه العرض ؛ وتتوافر

---

(١) يقول أبو شادى من دراسة له عن الشابى (ان لأبى القاسم الشابى روائع كثيرة ظفرت « جمعية أبوللو » ومجلتها التى عنيت قبل سواها بابراز فنه ، ظفرت بالقسط الأوفر منها) .

كتاب (رائد الشعر الحديث) ص ٧١ محمد عبد المنعم خفاجة .

معه أسباب المقارنة ؛ ويتهيأ به الترسل والانتقال ؛ ويتبلور فى ظله الرأى ويتضح المنهج ٠٠ وأحسنست أن ظهور ديوان الشاعر « أغانى الحياة » يعين على هذا أو أكثره ومن ثم لم تكن الدراسات التى سبقت عن الشابى — على جهد أصحابها — قد بلغت بالموضوع حد الاشباع الذى يصرف الدارس الجديد الى غرض آخر ، فما زال فى الحديث عن شاعر الخضراء بقية عريضة يتشاجن معها الحديث ويطرف ، وهو ما أحاول مخلصـــة وخالصة أن أسهم به فى دراسة شعرنا الحديث فى ولاء وطموح يشعلـه اعتزاز الحى بنفسه ، ويضرمه احساس عارم بوعى القومية العربية الجديدة التى تتلمس كل سبيل الى التطور والتجدد والبعث وتتعلق بكل أمل فى النجاة ٠

❊ ❊ ❊

والدراسة التى بين يديك تعتمد فى الاستقراء والبحث على ديوان « أغانى الحياة » باعتباره الأثر الوحيد الوافر له ، وباعتباره أهم انتاجـه وباعتباره — وهو الأهم عندى — السجل الجامع لصيحات الوطنيـــة فى شعره ٠٠ لست أدرى لم أحس أنى موكلة بمثل هذه الخفقات أتتبعهـا بل أتلمسها تلمسا وأستافها حيثما وجدت عند كاتب أو شاعر فى مصر أو أى بلد عربى فنحن أحوج الى هذا اللون وقودا وغذاء ٠٠ يضمن للصحوة الحاضرة النماء ويهبها من قوة الدفع ما يلهب خطواتها فتتواصل على الطريق الوعر الطويل ٠٠

لو لم يتوافر لدينا من شعر الشابى الا « وطنياته » المتسعرة لنهضت وحدها حافزا على دراسته واشاعة دعوته فى النفوس ٠٠

بودى لو تواجـــدت بين يدى آثار الشـــابى الأدبيـــة جميعا لأكتب عنه فى احاطة وشمول ، ولكن ضياع ما ضاع ليس حكما على الباقى الماثل بين أيدينا بالاهمال ، ولو حسنت النية فلتكن هذه الدراسة باعثا موحيا بدراسات أخرى أوفى ، تعين عليها الأيام بكشف ما انطمس من آثاره ، فان قراء العربية كما يقول الدكتور أبو شادى لن يملوا من قراءة ما كتب وما سيكتب عنه ولو تعددت التراجم والدراسات (١) ٠

انى أومن أن دراسة البيئة ضرورة لازمة لدراسة الشاعر وموجهات شعره ولكننى أرى معالم بيئة الشابى : فى شعره ، وفى كتابات مواطنيه أصحاب البيئة نفسها ، فقد وصفها أو جانبا منها هو الجانب الأدبى ،

---

(١) كتاب الشابى للأستاذ أبى القاسم محمد كرو ص ٢٥ ٠

الأستاذ كرو فى كتابه (كفاح الشابى) (١) ولكنى أطمح الى شمول يتناول جوانب الوطن التونسى جميعا ·· الجوانب المادية والاجتماعية والعقلية والنفسية والتاريخية ·· ومن أولى بهذا من الأدباء التونسيين الذين عركوا هذا كله ، وعاشوا فيه وورثوه ، وتفاعل به وجدانهم وواقعهم بما فى نفوسهم من رواسب تاريخهم وقومهم ·

حسبنا نحن فى مصر الدراسة الموضوعية التى يسرها لنا ديوان الشابى « أغانى الحياة » ··

نعمات أحمد فؤاد

يناير سنة ١٩٥٨

---

(١) اقرأ ص ٣١ ــ ٣٣ ·

القسم الأول

لمحة من حياة

حياته من شعره

فى ضاحية من ضواحى الجنوب التونسى ، وشتها الطبيعة بألوانها وظللتها كعروس بالظلال من أشجار النخيل والثمار من بساتين البرتقال ورقرقت بين يديها الماء عذبا فياضا ، وحصنتها من جمال ، بالصحراء تكبد الطامعين التيه واللغوب ..

فى الشابية احدى ضواحى توزر على مرأى من شط الجريد الهادىء الحافل بالأسرار ولد شاعر ، «أهدى» على الدنيا فنان عرفه أهلها ثم تاريخها باسم « أبو القاسم الشابى » .

واذا كان بعض الاطفال يولدون وفى فمهم أو يدهم ملعقة من ذهب كما يصفون أبناء المال ، فان وليد الشابية كان بين ضلوعه لا فى يده قلب من حرير ، أو ورق الورد ، فيه الشفافية والنعومة والنفاسة من الحرير ، وفيه الرفيف والرقة والعطر والحساسية وقصر العمر أيضا من الورد . وهكذا يهب الله قوما الذهب ، ويهب آخرين معانى الورد أى الفن .. ويسعد أولئك أو هكذا يظنهم الناس ويشقى هؤلاء بالمعانى العطرة ، أو هكذا يبدون ، ولكن من وهب الفن عندى هو السعيد ..

ولكن القلب الشاعر الذى فوفته الطبيعة بمعانى الورد على مثال رفيع رائع ، كانت به من الورد أيضا ابر الشوك من الداء والاعياء والأعداء والمظالم ، تلك الآفات التى تتسلل منفردة أو مجتمعة الى الموهوب ، وخاصة اذا بلغ القمة ، كما يزحف العطب الى التفاحة الرائعة فى اكتمال نضجها وتوهجها ...

وترعرع وليد الشابية واستوى شابا ، ولكن لا كالشباب .. فهو

متوفر الحس والعصاب ٠٠ يطيل الحديث بينه وبين نفسه ٠٠ وانه لطويل النظرة بعيد التأمل ٠ هدوؤه هدوء البحر الذى يبدو أحيانا ســـاكن الصفحة ، ولكن وراء السكون تيارات متباينة ، وعوالم لا يعرف سرها الا من يطيل صحبته ، ويعيش فى دنياه ٠

وفى هدأة السكون عادة تطيف أوهام المرض ٠ ثم تتداعى خيالات العذاب فتلح على المسكين القابع فى ركن قصى يرقب الحيـــاة والأحياء ٠ كلمات الجحود ومظاهر الغبن ، ومناعم الصحة تلك المناعم التى يجسمها المرض ٠٠ ويغوص الفكر ويطفو فيلف عوالم شتى ويلم بمعان شتى ، فيمضى صاحبه الرأى تلو الرأى فى الحياة والناس ٠٠ فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ٠٠ فى الشر والخير ٠٠ فى الفن والعلم ٠٠ وفى التيه الفنى يصنع الشارد الحائر ، الحكمة ، ويأتى بما يشبه الفلسفة فى نظرتها المتجردة وشطحاتها أيضا ٠٠ وستجد معى مصداق هذا كله فى حياة الشابى من شعره ٠٠

ومن تاملاته هذه الخطرات :

ينقضى العيش بين شـــوك ويأس ... والمنى بين لوعـــــة وتأسى
هذه سنة الحيـــاة ، ونفسى ... لا تود الرحيـــق فى كأس رجبى
ملء الدهر بالخداع ٠ فكم قد ... ضلل الناس من امام وقس
كلما أســـأل الحياة عـــن الحـق ... تكف الحياة عن كـــل همس
لم أجد فى الحياة لحنا بديعـــــا ... يستبينى سوى سكينة نفسى (١)

ولكنه ابن الحياة ، وان خيل اليه فى أزمات اليأس أنه قلاها :

غننى أنشـــودة الفجر الضحـــوك
أيها الصداح
فلقد جرعنى صوت الظـــــــلام
ألمـــا علمنى كـــره الحيـــــاه
ان قلبى مـــل أصـــــداء النواح
غننى ، ياصاح !.(٢)

لقد ضج بأحزانه يود لو يزيحها عن صدره ٠٠٠ ولكنه بعد أن هفا الى أنشودة الفجر الضحوك وتلمس الغناء عند الصداح ، عاد فزهد فى ألحان السرور وأغانى النور ٠٠

---

(١) ديوان « أغانى الحياة » قصيدة الدموع ص ٤٦ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ ــ ٤٩ .

لا تغنيني أغاريـــد الصبـــاح
بلبل الأفراح
ففؤادى وهو مغمـــور الجراح
بتباريح الحيـــاة الباكيـــه
ليس تســـتهويه ألحان السرور
وأغانى النور ! (١)

ما وراءه ؟ :

ان من أصغى الى صـــوت المنون
وصدى الأحداث
ليس تستهويه ألحـــان الطيـــور
بين أزهـــار الربيـــع الســـاحره
وابتســـامات الحياة الســـافره
عن جلال الله (٢)

ولكنه فى ديوانه يشعرك أن هذه الآلام كلها خاصة به هو . أما أنت فانه يدعوك دعوة جادة الى الحياة .. الى الكفاح .. الى الاقتحـــام .. والانتصار ..

سر مع الدهر ، لا تصدنك الأهوال ، أو تفزعنك الأحـداث
سر مع الدهر ، كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعنك النفاث
فالذى يرهب الحياة شقى ، سخرت من مصيره الأحداث (٣)

وفى سانحة أخرى يرسم للحياة صورة داكنة .. فهو يراها :

فى ظلام الكهوف أشباح شـــؤم ... وبهذا الفضاء أطيـــاف نحس
وحلال القصور أنات حـــزن ... وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس
والفضـــاء الأصم يعتســـف النـ ... ـاس ويقضى ما بين سيف وقوس(٤)

أى صورة هذه ؟ .

صورة للشقـــاء دامعـــة الطرف ... ولون يسود فى كل طرس

ولكن هذا رأيه على كل حال

---

(١) الديوان ــ قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ ــ ٤٩
(٢) ديوان « أغانى الحياة » قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ ــ ٤٩ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « سر مع الدهر » ص ٥٢ .
(٤) الديوان ــ قصيدة « شجون » ص ١٠٨ .

لم تجد في الوجود الا شقاء سرمديا ، ولذة مضمحله
وأماني يغرق الدمع أحلاها ، ويفني يم الزمان صداها
وأناشيد يأكل اللهب الدامي مسراتها ويبقي أساها
وورودا تموت في قبضة الأشواك ، ما هذه الحياة المملة ؟ (١)

انسان مغرور ، فلا تعجب ان صاح بك :

فقل لي : « ما جدوى الحياة وكربها »
وتلك التي تذوى وتلك التي تنمو ؟
« وفوج تغذيه الحياة لبانها ،
وفوج ، يرى تحت التراب له ردم ؟ »
« وعقل ، من الأضواء في رأس نابغ
وعقل من الظلماء ، يحمله فدم ؟ »
« وأفئدة حسرى تذوب كآبة
وأفئدة ، سكرى ، يرف لها النجم ؟ »
« لتعس الورى ، شاء الاله وجودهم
فكان لهم جهل ، وكان لهم فهم ؟ » (٢)

ما دام الأمر كذلك فهو ينصح بالعزلة .. العزلة دائما هي الدواء عنده :

وان أردت قضاء العيش في دعة شعرية ، لا يغشي صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم

دائما العدم في خاطره :

واجعل لياليك أحلاما مغردة ان الحياة وما تدوى به حلم (٣)

وقد هتف بالعزلة أكثر من مرة وتلهف عليها في قصائده :

وأود أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
الا اذا قطعت أسبابي مع الدنيا وغشيت لوحدتي وظلامي
في الغاب ، في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة ، والجمال السامي
وأعيش عيشة زاهد متنسك ما ان تدنسه الحياة بذام

---

(١) الديوان ـ قصيدة « الأشواق التائهة » ص ١١٣
(٢) الديوان ص ١١٦
(٣) الديوان ـ قصيدة « السعادة » ص ١٥١

هجر الجماعة للجبال ، تورعـــا عنها ، وعن بطش الحياة الدامي(١)

ولكنه يحمل نفسه حملا على العيش في دنيا الناس ٠٠ أسباب قوية تربطه بل تقيده :

لكنني لا أستطيع ، فان لي أما ، يصـــد حنانهـــا أوهـامي
وصغار اخوان ٠ يرون سلامهم في الكائنات معلقا بســـلامي
فقدوا الأب الحاني ، فكنت لضعفهم كهفا يصــد غوائل الأيـــام
ويقيهم وهج الحياة ، ولفحهـــا ويـــذود عنهـــم شرة الآلام
فأنا المكبـل في سـلاسل حية ضحيت من رأفي بها أحلامي (٢)

ويخرج من عزلته فيحن الى الحياة التي رضي عليها ويشتاقها في الربيع والفجر والزهر والشـــدو ، ويشتهيها في المرأة ٠٠ المرأة التي يتخيلها بلسما لجراحه ، ومهربا من آلامه عندها الدفء والقبل ٠٠ فمن ذا يلومه وقد ارتدت عنه أحزانه ، أن هتف والشجن في تهويم :

ان في المرأة الجميلة سحرا عبقريا ، يذكي الأسى ، وينيمه(٣)

روح مضطربة أو هكذا يبدو للناس (روح تراها تارة ساخرة هازئة بالحياة وما فيها وأخرى عابثة بها متعلقة بأهدابها ٠ والحقيقة هي روح مضطربة ما لها من قرار) (٤) ٠

وقلب هو عوالم شتى ٠٠٠

يا قلب ! كم فيك من دنيا محجبة كأنها ، حين يبدو فجرها «ارم»(٤)
ياقلب ! كم فيك من كون، قداتقدت فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
ياقلب ! كم فيك من أفق تنمقـه كواكب تتجـــلى ، ثم تنعـــدم

مرارة من الموت يخترم الشباب :

ياقلب ! كم فيك من قبر، قدانطفأت فيه الحياة ، وضجت تحته الرمم

---

(١) الديوان – قصيدة « قيود الأحلام » ص ١١٥ ٠
(٢) الديوان – قصيدة « قيود الأحلام » ص ١١٥ ٠
(٣) الديوان – قصيدة « الساحرة » ص ١٤٥ ٠
(٤) مجلة الامام – العدد الخامس – السنة ٣٢ في ١٩٣٤/١٢/٣١ مقال للاستاذ محمد الصادق دسيس الشريف ص ٣٦ ٠
(٥) ارم : مدينة أسطورية أحاطتها الخرافات بجو خيالي مسحور ، فزعمت أنهـــا بنيت على ضفة من الجنة : أرضها من مسك ، وقصورها من خالص الذهب واللـــؤلؤ والمرجان ، وسماؤها من سحر مرصع بالأحلام ٠٠ وأنها ما زالت الى يومنا هذا في صحراء العرب ، ولكنها محجوبة لا يراها أحد ٠

اعزاز للحياة يرى في عموذها نورا ينطفىء ، وحقد على الموت يتمثل في ضجة الرمم .

ياقلب ! كم فيك من غاب ومن جبل   تدوى به الريح أو تسمو به القمم

رؤى :

ياقلب ! كم فيك من كهف قد انبجست   منه الجداول تجرى مالها لجـــم

حلم بالحرية :

تمشي .. فتحمل غصننا مزهرا نضرا   أو وردة تشوه حسنها قــدم (١)

زراية بقبح الواقع :

أو نحــله جرها التيـــار مندفعـــا   الى البحار ، تغنى فوقهـــا الديم
أو طائرا ساحرا ميتا قد انفجــرت   في مقلتيه جــراح جمة ودم (٢)

تنديد بقسوة الحياة :

ياقلب . انك كون مدهش عجب   ان يسأل الناس عن آفاقه يجموا

انسان واع حساس ، تلمس وعيه وحساسيته في قوله :

كرهت القصور ، وقطانهـــــا   وما حولهـــا من صراع عنيف
وكيد الضعيف لسعى القـــوى   وعصف القوى بجهد الضعيف (٣)

وقد كانت رهافة الحس هذه بيت الداء عنده ، فهــو منهــا متوفز الأعصاب دائما ، يضج كيانه بالحياة والطموح وشعور الاقتحام والتوثب ، ثم يرى حوله قوما عزيز عليه ما هم فيه من خمول وتأخر وبلادة ..

لا قلب يقتحـــم الحياة ، ولا حجى   يسمو سمو الطـــائر الجـواب
بل في التراب الميت في حزن الثرى   تنمو مشـــاعرهم مــع الأعشاب
الشاعر الموهوب يهرق فنــــه   هدرا على الأقـــدام والأعتـــاب
ويعيش في كـــون عقيم ميت   قد شيدته غبـــاوة الأحقــــاب
والعالم النحرير ينفــق عصره   في فهم ألفاظ ودرس كتاب
والشعب بينهما قطيع ، ضائع   دنياه دنيـــا مأكـــل وشراب

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الأبد الصغير » ص ١٥٦ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « الأبد الصغير » ص ١٥٦ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « بقايا الخريف » ص ٦٢ .

وما أعظم ألمه من هذا الوضع ، وهو الوطني المتوقد غيرة وشعبية، مع فرط حساسية ورحمة :

الويل للحساس في دنيـــاهم ماذا يلاقي من أسى وعذاب (١)

وقد أرهقه حسه ... واعترف بالارهاق في حسرة لا تخفى :

واليوم أحيا مرهق الأعصاب ، مشبوب الشـــعور
متأجج الاحساس ، أحفل بالعظيم ، وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ، ويزحف الكون الـــكبير
هذا مصيري ، يابني الدنيا ، فما أشقى المصير(٢)

لقد عاش كما قال : مرهق الأعصاب ، مشبوب الشعور ، متأجج الاحساس ، يحفل بالعظيم وبالحقير . فلا عجب أن ثقل عبء الحياة عليه وأحسها (تمشي على قلبه) (٣) .

ويرى أحد النقاد أن شعور الشابي بالامتياز قد أوهمه أن لا مكان للصواب الا في جانبه ، وأنه وحده البصير بمعاني الحياة فانتهى الى كفر بحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها وانكار قيمة الحياة (٤) .

توسع في الأحكام ليس من طبيعة النقد العلمي . وفيم كان هتاف الشاعر اذن بالطموح والبناء اذا كان كافرا بحاضر الانسانية ومستقبلها ؟ كيف والكاتب نفسه يقرر أن رومانسية الشابي (لم تكن مغلقة ، في نطاق ذاته . وفي عالمه الداخلي ، ولكنها كانت رومانسية متفتحة عـــلى مشاكل قومه،وقضايا الوجود الانساني ، تلك القضايا التي كان يعيشها باحساس الفنان الذي يرى نفسه مسئولا عن الحياة الانسانية) (٥) .

أو ليس بين الـــكفر والمسئوليـــة من التنـــاقض ما بين السلبيـــة والايجابية ؟ وعلى أي الرأيين نقبل قول الناقد بعد قليل (يقظة الاحساس

---

(١) الديوان ـ قصيدة « الدنيا الميتة » ص ١٨٤ ـ ١٨٥ وقد صرح بعذابه من دقة حسه في غير هذا الموضوع حين اتجه الى الله بشعره قائلا :
« أنت عذبتني بدقـــــة حسي » . الديوان ص ٩٩ قصيدة « الى الله »

(٢) الديوان ـ قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٥٠ .

(٣) وهو يؤثر هذا التعبير حتى ليكرره ص ١٥٧ كقوله : قصيدة « الأبد الصغير
يا قلب . كم من مسرات وأخيلـــة ولذة ، يتحامى ظلهـــا الألم
غنت لفجرك صوتا حالما ، فرحـــــا نشوان ثم تـــوارت ، وانقضى النغم
وكم مشت فوقك الدنيا بأجمعهـــا حتى توارت ، وسار الموت والعـــدم

(٤) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٠٤ .

(٥) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ التليسي ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

هى التى خلقت لنا منه ذلك الشاعر الطموح ، الذى يعيش لآمال وأحلام المستقبل ، ويرسل صرخات مدوية داعية الى السير فى موكب الحياة المتطورة) ؟ (١) .

وانه لمن فرط حسه ، توجسه من الغد ، ذلك التوجس الذى شاع فى مثل قوله :

فاذا سرنى من الفجر نور ساءنى ما يسر قلب الظلام (٢)

فى حياته أطياف سود :

كم بقلب الظلام من أنة تهفو بغصات صبية أيتام
ونشيج مضرم من فتاة أبهظتها قوارع الأيام
ونواح يفيض من قلب أم فجعت فى وحيدها البسام
وأنين من معدم ، ذى سقام عضه الدهر بالخطوب الجسام

وفى حياته غبن :

ما أخال النجوم الا دموعا ، ذرفتها محاجر الأعوام (٣)
فلقد ضرم الشجون بنوها ، فاذا بالشجون سيل طام
واذا بالحياة فى ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام

رؤوس .. وأقدام ... وأوضاع معكوسة أورثته تلك النظرة الكابية التى ترى لآلىء النجوم دموعا .. دائما عين المغبون متشائمة ...

وفى شعره أشباح كثيرة (٤) .. أشباح وغيلان وعرائس .. غاب وجن وعوالم مسحورة وتهاويل وأطياف .. انها أعصاب مشدودة .. ويله من نفسه .. ويحه من رؤاه ...

« فى الليل ناديت الكواكب ساخطا متأجج الآلام والآراب »
« الحق يملكه جبابرة الدجى والروض يسكنه بنو الأرباب »
« والنهر ، للغول المقدسة التى لا ترتوى .. والغاب للحطاب »
« وعرائس الغاب الجميل ، هزيلة ظمآى لكل جنى ، وكل شراب »
« ما هذه الدنيا الكريهة ؟ ويلها حقت عليها لعنة الأحقاب »
« الكون مصغ ، يا كواكب ، خاشع طال انتظارى ، فانطقى بجواب »
« الفجر يولد باسما ، متهللا في الكون، بين دجنة وضباب(٥) »

---

(١) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ التليسى ص ١٠٨ .
(٢ ، ٣) الديوان ــ قصيدة « يا رفيقى » ص ٧٤ .
(٤) اقرأ قصيدة « الأبد الصغير » الديوان ص ١٥٧ .
(٥) اقرأ قصيدة « صوت من السماء » الديوان ص ١٥٨

هل هو عزاء أم حكمة مرسلة ؟ كلاهما خير ان هدمد ثورته وقرت عليه أشجانه ·

وله في الاستعلاء ضروب شتى ، فعندما حشد له الزمان في حربه معه أعداء يكيدون ، نفس عن نفسه ما يكابد من ضراوتهم في ذم النـاس تارة ، وفي غناء بروميثيوس تارة أخرى :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمـة الشماء
أرنو الى الشمس المضيئة·· هازئاً بالسحب ، والأمطـار ، والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب ·· ولا أرى ما في قرار الهـوة السـوداء
وأسير في دنيـا المشاعر ، حالما غرداً ـ وتلك سعادة الشعراء ـ
أصغي لموسيقى الحياة ، ووحيهـا وأذيب روح الـكون في انشائي
وأصيخ للصـوت الالهي ، الذي يحيي بقلبي ميت الأصداء (١)

وقد كان هذا القصيد أو النشيد بداية تطور جديد لف روحه كلها · يقول الشابي من رسالة الى صديق :

« وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت في عـين دراهم · ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له الأثر الأكبر في تلوين نفسي بهـذا اللون الجديد ، كما أن مصيف هذا العام وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة ، قد أكمل هذا التطور ونماه ·· أما الآن فانني أشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة وستدرك هذا التطور في نفسي حينمـا تطلع على قصائدي الجديدة · وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيدة « الصباح الجديد » الذي أرسلته الى أبولو ، **وقصيدة « نشيد الجبار » هو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد ·· » (٢) ·**

❋ ❋ ❋

حتى القدر خاله من أعدائه والمتربصين به :

ياليل· ماتصنع النفس التي سكنت هذا الوجود ، ومن أعدائها القدر؟
قد كبل القدر الضاري فرائسـه فما استطاعوا له دفعا ، ولا حزروا
وخاط أعينهم ، كي لا تشاهـده عين ، فتعـلم ما يأتي وما يذر
وحاطهم بفنون من حبائلـه فما لهم أبـداً من بطشـه وزر
لا الموت ينقذهم من هول صولتـه ولاالحياةتساوىالناس والحجر (٣)

---

(١) اقرأ قصيدة « نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس » ص ١٧٩ ·
(٢) مجلة الفكر ـ العدد ١ السنة ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ص ١٣ ·
(٣) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ ·

المس سخرية وأسى ...

ولا تستطيع أن تلومه على بغض القــدر خاصــة بعد أن عرفت استبشاعه للموت ومقته له ، ولعل كراهيته للقدر تسربت اليه من هذه الناحية :

وانمـا المـوت ضرب من حبـــائله
لا يفلت الخلق ما عاشوا . فما النظر ؟ (١)

فما النظر ؟ يلتمس النجاة من الموت .. ليتها ممكنة يا صديقنا الشاعر .. ولكن هل تستحق الحياة عندئذ تلك اللهفــة الحارة التى تتقد عليها .. تلك اللهفة بما فيها من شوق ونار تحرق وتضىء .. تحفز وتلهم .. تشقي وتسعد .. نار تغرى بالسعى والكفاح والانتصار .. ولهفة تغرى بالجمع السريع أو الزهد العارف ؟ .. بالجرى وراء اللذة .. باقتناص المتعة .. باهتبال الفرصة أو الصد عنها جميعا ما دامت زائلة بزوال الحياة .. ما النظر ؟

حار المساكين، وارتاعوا، وأعجزهم أن يحذروا ، وهل يجديهم الحـذر
وهم يعيشـون فى دنيا مشيـــدة من الخطوب، وكون كله خطر ؟(٢)

هنا مفتاح من مفاتيح نفسه عثرت عليه فى كتاب (مع الشابى) للأستاذ الحليوى ، يطلعنا على سر الخوف والقدر والموت الذى كان يطارد الشاعر حتى فى منازهه .. حتى فى نجوى الحبيب .. لم يخل بينه وبين هواه ...

« انى لا زلت كالماضي أشعر فى صميم نفسى بأن الأقدار تحاربنى وانما الفرق بينى وبين نفسى الأولى ، أننى كنت أتقبـل آلام الحياة وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامع باك ، أما الآن فاننى ألقاها ببسمة الساخر ونظرة الحالم ، المنتشى بجمال الوجود » (٣) .

لم يبق هناك ما يدعو الى تكهن الأسباب وتلمس وجوه التفسير .. أن الشاعر يكشف عن نفسه فى خطاب الى صـــديق ، خطاب برىء — كخطابات الأصدقاء — من سمة التكلف والتعليل المرسوم ...

انه الشعور بالاضطهاد .. الاضطهاد ومن القدر نفســه .. إنه

---

(١) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ .

(٢) لديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ .

(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى اقرأ ص ٩٤ — ٩٥ .

تفسير الشاعر على كل حال لمرضه الوبيل ... ويتمه الباكر ... وحبه الفقيد .. لا عجب ولا ملامة ، بل العجب كله ألا يفعل والعمر ينحسر كلما طلعت الشمس ، فلم يبلغ ضحى ولم يعرف الآصال ، وتجاوز سخر القدر ، الفرع الى الأصل ، فغاله والعود غض لا يقوى على هوج الريح أو تهور الأحداث .. وظل القدر سادرا فساق الحب الى الشاعر حتى اذا تفتح بين يديه كتب عليه الذبول والعدم ..

فاذا لا يشعر الشابى بالاضطهاد أو يتصوره .. لا عجب أن جار بهذه الشكوى يرفعها الى مولاه :

يا اله الوجود ! هذى جراح   فى فؤادى ، تشكو اليك الدواهى
أنت أنشأتنى غريبـــا بنفسى   بين قومى ، فى نشوتى وانتباهى
أنت عـــذبتنى بدقـــة حسى   وتعقبتنى بـــكل الـــدواهى
بالأسى ، بالسقام ، بالهم بالوحشـــة ، باليأس ، بالشقـــا المتنـــاهى
بالمنايا تغتـــال أشهى أمانى   وتذوى محاجـــرى ، وشفاهى
فاذا من أحب حفنـــة ترب   تافه ، من ترائب وجبـــاه
واذا فتنـــة الحيـــاة وسحر الكون ضرب من الغمـــام الزاهى
يتلاشى فوق الخضم ، ويبقى اليم   كالعهـــد ، مزبد الأمـــواه (١)

ويضرب الشاعر فى الأرض مبهور الأنفاس ينشد من يهدهده وهو يتمزق :

غننى ، يا أخى ، فالـــكون تيهـــاء بهـــا قد تمزقت أقـــدامى
غننى ، علـــنى أنيم همـــومى   اننى قد مللت من تهيـــامى
يا رفيقى ! لقـــد ضللت طريقى   وتخـــطت محجتى أقـــدامى
خـــذ بكفى فاننى تائه ، أعمى   كثير الضـــلال والأوهـــام (٢)

تائه .. أعمى .. ضال .. لقد برح به العذاب .. ان قدميه تجرانه من حيرة الى المقابر .. مسكين .. ظن عند الصمت الطويل جوابا ..

وهناك فى عالم الصمت توزعت نفسه الهواتف والأشباح فغاب عنا وعن ديوانه من ١٣٤ ــ ١٤٠ ولكنه كان يتعزى أحيانا فيستريح الى العزاء .. تأمل .

تأمل ... فان نظام الحياة   نظام ، دقيق ، بديع ، فريـــد
فما حبب العيش الا الغنـــاء   ولا زانه غير خوف اللحـــود

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الى الله » ص ٩٩ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « يا رفيقى » ص ٧٤ ــ ٧٥ .

ولولا شقاء الحياة الأليم   لما أدرك الناس معنى السعود
ومن لم يرعه قطوب الدياجير   لم يغتبط بالصباح الجديد (١)

وتلك سانحة أخرى من سانحاته فى تيه الغائبين

اذا لم يكن من لقاء المنايا   مناخ لمن حل هذا الوجود
فأى غناء لهذى الحياة   وهذا الصراع ، العنيف ، الشديد
وذاك الجمال الذى لا يمل   وتلك الأغانى ، وذاك النشيد
وهذا الظلام ، وذاك الضياء   وتلك النجوم ، وهذا الصعيد ؟؟
لماذا نمر بوادى الزمان   سراعا ، ولكننا لا نعود ؟ (٢)

صراع ... لم يصل به الى قرار ..

فاذا قفل راجعا الى دنيا الناس وواقع قومه هاجته أشجان وأحداث ووقائع ، فهو يمور ويثور على الوضع الخائر الذى يعيش فيه مواطنوه . ومن مسارب الثورة فى أدبه قصائد .. ومن صرخاته فى الراكدين :

خلقت طليقا كطيف النسيم ،، وحرا كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير أين اندفعت ، وتشدو بما شاء وحى الاله
وتمرح بين ورود الصباح ، وتنعم بالنور ، أنى تراه
وتمشى ـ كما شئت ـ بين المروج ، وتقطف ورد الربا فى زباه
كذا صاغك الله ، ياابن الوجود ، وألقتك فى الكون هذى الحياه
فما لك ترضى بذل القيود ، وتحنى لمن كبلوك الجباه ؟
وتسكت فى النفس صوت الحياة القوى اذا ما تغنى صداه ؟
وتطبق أجفانك النيرات عن الفجر ، والفجر عذب ضياه ؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف ، فأين النشيد ؟ وأين الاياه ؟
أتخشى نشيد السماء الجميل ، أترهب نور الفضا فى ضحاه ؟
ألا انهض ، وسر فى سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياه
ولا تخش مما وراء التلاع ... فما ثم الا الضحى فى صباه
والا ربيع الوجود الغرير ، يطرز بالورد ضافى رداه
والا أريج الزهور الصباح ، ورقص الأشعة بين المياه
والا حمام المروج الأنيق ، يغرد ، منطلقا فى غناه ..
الى النور ! فالنور عذب جميل ، الى النور ! فالنور ظل الاله (٣)

لقد تخففت نفسه من أثقالها فى هذه القصيدة فهو ينطلق خفيفا متوثبا

---

(١) الديوان ـ قصيدة « حديث المقبرة » ص ١٣٨
(٢) الديوان ـ قصيدة « المقبرة » ص ١٣٨ .
(٣) الديوان ـ قصيدة « يا ابن أمى » ص ٨٨

يشرب النور . ويعل منه ويغنى له . ويدعو الى الحرية ويعين عليها بالاثارة .

الى النور . الى النور . انه يهتف بك فى فرحته فبارك نشيده ولب نداه .. حقا ان النور يبهره .. لقد سال على الدنيا دفقة واحدة فغمر الضياء السماء والمروج والتلاع .. ونفس الشاعر .. نفس الشاعر التى شفت حتى أصبحت ترى رقص الأشعة بين المياه ..

يارب .. يانور النور .. ان الشاعر يؤمنا فى محرابك فتقبل منه ومنا الصلاة .

....

ولم تقف ثورته عند حد الوطنية السياسية ، بل اندلعت تجتاح كل شيء ..

يقول الأستاذ كرو (وبدأ ثورته بفك قيود الأدب وأغلاله ، وخلص بنفسه من طرائقه القديمة الممقوتة ، وأساليبه الرثة الميتة . فبعث طرائق فنية رائعة ، وأساليب حية ممتعة ، قوية فى روحها وموضوعها ، خلابة فى فنها وجمالها ، ساحرة فى تعابيرها وصورها) (١) .

ولم يشذ الشابى عن القاعدة . فوجد من مسخ دعوته الموقظة (ولقد رمى الشابى .. بنكران الماضى ومحاربة أمجاده ، وبالعقوق لآبائه وأجداده ، وبالثورة على المقاييس الشائعة ، والطرائق الذائعة ، وبالسخرية من التراث « المقدس » الجليل وتشويه محاسنه ومسخ جماله !!) (٢) .

ولأدع الشابى نفسه يكشف عن حقيقة موقفه ... كتب الشاعر فى معرض الرد على الدكتور مختار الوكيل الذى نقد كتابه (الخيال الشعرى عند العرب) (٣) .

(... اننى اذا كنت أدعو الى التجديد الأدبى وأعمل له ، فان ذلك لا يدفعنى الى الهزء والسخرية بآداب الأجداد .. كما قد حسب . بل اننى لأومن كل الايمان بما فيها من جمال فنى وسحر قوى ، وأعتقد أنها قد آتت فى عصورها الحية لأجدادنا كل ما طمحت اليه أشواقهم من غذاء معنوى دسم ، ولكننى أومن الى جانب ذلك **أن فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما فى الأدب العربى من آفاق** ، وأن هذا الأدب اذا كان قد سد خلة آبائنا الروحية ، فانه لعاجز كل العجز عن أن يشبع

(١ ، ٢) كتاب « الشابى » لأبى القاسم كرو ص ٥٥ ــ ٥٦ .

(٣) نشر النقد بمجلة أبولو ص ٨٣٣ سنة ١٩٣٣ .

ما فى **أرواحنا من جوع وعطش وطموح** . وأنه اذا كان لزاما علينا أن نعجب بهذا الأدب ونفخر به ، **كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية** ، وكمنجم ذهبى نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا **حليها الساحر** الجميل ، فان ذلك الاعجاب لا ينبغى أن ينقلب فى نفوسنا الى تقديس فعبادة فجمود ، فاطباق لأبصارنا عن كل ما فى السماء من أشعة ونجوم) (١) .

● أن فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما فى الأدب العربى من آفاق ...

● الأدب العربى اذا كان قد سد خلة آبائنا الروحية ، فانه لعاجز كل العجز عن أن يشبع ما فى أرواحنا من جوع وعطش وطموح

● الأدب العربى حلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية .

* الأدب العربى منجم ذهبى نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل .

فهم واع للقيم والمفاهيم الأدبية ، وتعبير ذكى لا يتأتى الا من انسان نافذ ، أسفر المعنى فى نفسه سفوراً مضيئاً مشرقاً ، فهو يعرف كل لفظة على مقدار ..

جوع وعطش وطموح .. معان ما أحوجنا الى اشاعتها فى الشرق ، وبين الشباب خاصة ، اذا كنا جادين فى احداث انقلاب فكرى واجتماعى ، تصح عليه النفوس المريضة والعزائم البالية ..

الأدب العربى منجم ذهبى للأسلوب .. أدبنا العربى غنى بحلاه وموسيقاه ، وايحاءات اللفظ واشعاعاته فيه . ولكن هناك أيضا فى الحياة آفاقاً مجهولة ساحرة غير ما فى الأدب العربى من آفاق ...

حقيقة لا ينكرها الا مكابر ، ثم لا ينفعه الانكار ، أو يجدى الأدب العربى شيئاً ، ولكن الحقائق دائماً مرة المذاق ، ومن ثم كان الفارق (كبيرا جدا بين الشابى وبين شعراء الخضراء المعاصرين له ... ذلك أن أكثرهم لم يألفه ولم يستطع فهم ما يعبر عنه ، أو يرمى اليه) (٢) .

والى هذا الجو يعزو مواطنه الأستاذ أبو القاسم كرو ، فيما يعزو شعور الشابى بالغربة ، ذلك الشعور الذى يراه أبو القاسم أول احساس وضح تضطرم به نفس العبقرى بين بقية النفوس الخاملة الخانعة ، والذي

---

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) كتاب « كفاح الشابى » لأبى القاسم محمد كرو ص ١٠٧ .

يراه مرة اخرى مصدر الهام العبقرى وتبوغه (١) .

وهذا الغبن يحسه الشابى احساساً عميقاً جـارحا ، فاذا فضفض وما أكثر ما يفعل .. سمعت منه هذا الأنين

قضيت أدوار الحياة ، مفكرا	فى الكائنات ، معذباً ، مهموما
فوجدت أعراس الوجود مآتما	ووجدت فردوس الزمان جحيما
تدوى مخارمه بضـجة صرصر	مشبوبة تذر الجبـال هشيما
وحضرت مائدة الحياة ، فلم أجد	الا شرابا ، آجنـا ، مسمومـا
ونفضت أعماق الفضاء ، فلم أجد	الا سـكونا ، متعبا ، محمومـا
تتبختر الأعمـار فى جنباتـه	وتموت أشواق النفوس وجوما
ولمست أوتار الدهور فلم تفض	الا أنيناً ، دامياً ، مكلومـا
يتلو أقاصيص التعاسـة والأسى	ويصهر أفراح الحياة هموما (٢)

ان لك أن تقول لماذا ؟ والشاعر يتوقع هذا السؤال فيأتيك الجواب :

وأنـا الشـقى فعشـت مشـطور الفـؤاد يتيما	
فى غربة ، روحية ملعونـة	أشواقها تقضى عطاشا ، هيمـا
يا غربـة الروح المفـكر . انه	فى الناس يحيا ، سائما ، مسئوما (٣)

اذن هو تفرد الامتياز فلا هو راض عن الناس ، ولا الناس عنه راضون ، فهو يحيا فيهم سائماً مسئوماً .. وقديما قالوا (لا كرامة لنبى فى قومه) ..

هذه واحدة :

ما للرياح تهب فى الدنيا ويدركهـا اللغوب
لا رياحى فهى جامحـة ، تمردهـا عصيب ؟
مالى تعـذبنى الحياة ، كأننى خلـق غريب ؟
وتهد من قلبى الجميل ؟ فهل لقلبى من ذنوب ؟ (٤)

وعذاب

ماذا عنه أيضاً ؟ سأم الم أوجاع كثيرة فوق طاقة الشعـر والشاعر ..

سئمت الحياة ، وما فى الحيـاة	وما أن تجاوزت فجر الشبـاب
سئمت الليالى ، وأوجاعهـا	وما شعشعت من رحيق بصـاب

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(٢ ، ٣) الديوان ـ قصيدة « صوت تائه » ص ٨١

(٤) الديوان ـ قصيدة « النفس الأسى » ص ٨٣

فحطمت كـــــأسي ، والقيتهـــــا بوادي الأسى ، وجحيم العـــــذابه
فأنت ، وقد غمرتهـــا الدمـــوع وقرت ، وقد فاض منها الحبـــاب
والقى عليهـــا الأسى ثوبـــه وأقبرهـــا الصمت والاكتئاب(١)

ولا شك أن عنده من بواعث الألم اليتم والفقدان والغبن ·· وانها لكبيرة غير أنها على هولها لا تسئم شاعراً لم يتجاوز فجر الشباب ، فهو أقدر من غيره على التنفيس ، بل الاستعلاء والتعويض ·

وقد تهادنه الأيام أو يكف عنه الزمن فيهتف من أعمـــاقه متهللا للصباح الجديد :

اســـكني يا جـــراح واسـكتي يا شجـــون
مات عهد النـــواح وزمـــان الجنـــون
وأطـــل الصبـــاح من وراء القرون (٢)

وقد كرر هذه الأبيات مرتين أخريين فى القصيدة ، فهـل التكرار للموسيقى أم للمقاومة ؟ هل تلح عليه الجـراح فيصرخ فيما بين لحظـة واخرى :

اســـكني يا جـــراح واسكتي يا شجـــون

لترعوى ؟ أم تراه غير مصدق نفسه فيؤكد لها بالتكرار ·· أرى وراء الأبيات علامة استفهام ···

ليت أيامه اتصلت فى (عين دراهم) ليملأ أدبنا أفراحاً تغنى

أقبل الصبح جميـــلا ، يملأ الأفـــق بهاه
فتمطى الزهر ، والطـــير ، وأمـــواج المياه
قد أفـــاق العـــالم الحسى ، وغنى للحـــياه
فأفيقى يا خـــرافى ، وهلمى يا شيـــاه

واقطفى من كلأ الأرض ، ومرعاها الجديـد
واسمعى شبابتى تشدو ، بمعسول النشيد
نغم يصـــعد من قلبى ، كأنفـــاس الورود
ثم يسمو طائراً ، كالبلبل الشـــادى السعيد
وامرحى ما شئت في الوديان ، أو فوق التلال
واربضى فى ظلها الوارف ، ان خفت الكلال

(١) الديوان ـ قصيدة « السآمة » ص ٤٤ ·
(٢) الديوان قصيدة « الصباح الجديد » ص ١٥٩ ·

وامضغى الاعشاب ، والأفكار فى صمت الظلال
واسمعى الريح تغنى ، فى شماريخ الجبال(١)

لقد نسى نفسه وتآلف القطيع كما تآلف مضغ الأعشاب مع الأفكار الشاعر والقطيع العزيز كلاهما يمضغ زاده فى صمت الظلال ..

ان فى الغاب أزاهيرا ، وأعشـــابا عذاب
ينشد النحل حواليها . أهازيجا طراب
لم تدنس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب
لا ، ولاطاف بها الثعلب في بعض الصحاب(٢)

جراحه تتحرك ، حتى فى عين دراهم لم يستطع منها فكاكا .. لقد تذكر أذى أعدائه السافرين والمقنعين . فمن الناس ذئب ينم عليه حسر أنفاسه ، ومنهم عدو فى ثياب صديق كالثعلب .

ويجتمع هذا كله فى يد النقد ، فينطلق يصفه بالتشاؤم واليأس ، ويفيض من تعليل وتبرير وملامة ، على خلاف فى الرأى والحكم .. ومن الطريف أن أحد الناقدين راح يقسم تشاؤمه ويصنفه ، وأعنى هنا الأستاذ الحليوى الذى يرى أن التشاؤم طور من أطوار فلسفة الشابى التى صبغ بها شعره (٣) الذى دخل فى ثلاثة أطوار .

(فالطور الأول هو طور **التشاؤم القاتم** ، وفى هذه المدة التى كان ينحو نحو جبران وينكب على مطالعة المعرى انكبابا كليا .. فلما نظم أول أشعاره كان مفرطا فى اليأس والتشاؤم ، وكان هذا التشاؤم من النوع السهل الرخيص الذى يشاركه فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم ، فهو تشاؤم لا تعرف مبعثه ولا الداعى اليه ولا علة ترديده وســـبب وجوده) (٤) .

أى أنه تشاؤم **تقليد وانسياق** .

(ثم يجىء الطور الثانى من أطوار الشاعر ، فتراه يستمر متشائما ولكن تشاؤمه فى هاته المرة **مصحوب بالتعليل** ، وحزنه مبعثه الحيرة ، وكآبته تعتمد على استمرار تساؤله وحيرته وتطلعه الى اليقين) (٥) .

---

(١) عين دراهم « من الشمال التونسى » حيث الطبيعة العذراء الساحرة ، والجبال الشم المجللة بالسنديان .
(٢) الديوان ــ قصيدة « من اغانى الرعاة » ص ١٥٢ ــ ١٥٤
(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٨٧ .
(٤) كتاب (مع الشابى) للأستاذ الحليوى ص ٨٧ .
(٥) « « « « ص ٩٠ .

ثم يصطاف الشاعر فى بلدة عين دراهم ، فيرى الأستاذ الحليوى فى مضيفه نقطة ارتكاز ، عندها دخل الشابى فى الطور الثالث من أطوار حياته الشعرية ، (وجهت شعوره الى وجهة جديدة) (١) .

ويرى الأستاذ عمر فروخ الشابى (شاعرا متشائما يائسا ، يحاول أن يزين شعره أحيانا بشىء من روح الأمل والتفاؤل . الا أنه كان متقلبا بين الأمل واليأس ، وكان اليأس عليه أغلب) (٢) .

وممن يقولون بتشاؤم الشابى : الأستاذ على سعد ، والأستاذ أبو القاسم محمد بدرى ، والدكتور شوقى ضيف ، والأستاذ مصطفى خريف . ويعزو كل منهم تشاؤم الشاعر الى سبب يراه ..

فالأستاذ على سعد يرى الأمر طبيعيا (أن يطغى على شعر الشابى ، وهو الذى قال : كل شعره فى طور الصبا ، والذى عاش فى وسط اجتماعى محتبس ، وفى بيئة عائلية محافظة ، هذا اللون من التشاؤم الرومنطيقى ومن النقمة على نفسه وعلى الكون ، والمجتمع ، وهو النزعة القوية للالتجاء الى الحلم من أذى الواقع) (٣) .

اننى أسجل وجها من وجوه النقد فحسب ، ولكنى لا أرى عند الشابى نقمة على نفسه أو على الكون ، لا ولا حتى على المجتمع ، فان سخريته اللاذعة وتنديده بالوضع الكريه الذى يعيش فيه وطنه وقومه ، انما ولدها شدة حبه لهم .. شدة اشفاقه عليهم .. اضطرام شوقه الى عالم أفضل يعيشونه .. فنقد الشابى وليد حب حار لا نقمة ..

ولعل الأستاذ أبا القاسم محمد بدرى يرى معى هذا الرأى أو قريبا منه ، فعنده أن الشابى والتيجانى قد تأثرا أيما تأثير بما يسود وطنهما من جمود وتقهقر وانحطاط ، وما يحيط بلادهما من فقر وجهل ومرض .. فسخطا على عيشهما ، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤما مبعثه حب الاصلاح) (٤) .

ويضيف الدكتور شوقى ضيف الى هذا أن (كان احساس أبى القاسم الشابى حادا ، وجعلته حدته محبا للحياة صبا بها ، وشعر برؤوس أفاع تمتد اليه فى طريقه فتمنعه من السير بل ترده الى داره

---

(١) كتاب (مع الشابى) للأستاذ الحليوى ص ٩٤ .

(٢) كتاب « شاعران معاصران : ابراهيم طوقان وأبو القاسم الشابى » للأستاذ عمر فروخ ص ٥ .

(٣) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم محمد كرو ص ٣٠ .

(٤) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ أبى القاسم محمد بدرى .

ان لم يكن الى فراش علته ، فرجع محزونا يجر أذياله ، والكآبة قد ملأت نفسه ، وملأها أيضا الاحساس الدقيق بالكارثة ، وما ينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبثه لواعجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه أغاني مشجية نظمها والدموع تنهمر من عينيه ، وهي لذلك تعد أشجى أغانينا في العصر الحديث) (١) .

ويرى الأستاذ مصطفى خريف أن هناك سببين أوجدا في قلب أبي القاسم ذلك السخط والتشاؤم اللذين يبدوان على شعره ، السبب الأول : الحب ، حب جارف باكر فتح الشاعر بصره عليه ، فغمره وساقه في موكب حافل من العواطف والأخيلة الواسعة ، ولم يمهله الموت فاختطف الحبيب الى القبر (٢) .

أما السبب الثاني ، فمتفرع من السبب الأول .

ففي ظلمات حزنه البالغ ، كان كل فكره وكل عاطفته وكل خياله التي يكمن فيها ، نبوغ وروحانية يتعمق وراء الكائنات ، وينظر بذلك المنظار الأسود القاتم في تصرفات الدهر وتقلباته (٣) .

***

انسان مريض حاد الاحساس متوقد الامتياز في مجتمع آسن ، كالشعلة المتوهجة في الرماد الخابي .. طعن الموت حبه فأصماه فتجهم في عينيه الواقع وأغطش الليل بعد ضياء ، فهل تنتظر من قبل هذا الجريح في نفسه وقومه ، وحبه خفة ومراحا وقهقهة خيالية ؟ لا أخال .

ليس غريبا أن ييأس وأن يمضي يتحدث عن الظلام والألم وأن تبدو على شعره الذي اعتصره من قلبه المكلوم ، آثار الجراح .. فأنا لا أنكر هنا أن الكثير من شعره مندى بالدموع ، ولكن الذي أنكره انما هو دعوى النقمة ، فالنقمة تقترن في رأيي بشر كمين في نفس صاحبها ، ولكن الشابي شاعر الألوان ، والظلال والرفيف . كان صفاء شابه كدر افتعلته معه الحياة والناس .. ولست وحدي التي أقول بهذا الرأي فان الى جانبي أستاذين يلقيان اللوم على الظروف التي أحاطت بالشاعر .. فالأستاذ محجوب يقول في استنكار :

(.. لست أفهم كيف يتشدقون بتشاؤم الشابي حتى كادوا

---

(١) كتاب « دراسات في الشعر العربي المعاصر » للدكتور شوقي ضيف ص ٥١ ــ ٥٢

(٢ ، ٣) مجلة « الامام » العدد الخامس ــ السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٤ .

يجعلونه شوبنهور العرب بعد أن قال :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى ومشاعرى عميـــاء بالأحزان (١)

ثم نجد فى شعره من آن لآخر نبرات الحزن ، ولكن ذلك لايرجع الى طبيعة سوداوية له ، بل علتها هو الألم اذا طغى عليه ، هو عقوق الناس وحسدهم له • ولئن ثار ثائره وسخط ، فثورته وسخطه على الناس لا على الحياة ••

أما الأستاذ أبو القاسم كرو فعنده أن ليس (خيالا شعريا ولا تشاؤما ما نجده فى شعر الشابى من احســاس قوى بالغربة ، وكره وازدراء للمحيط ، فان العملاق لا يبدو ولا يكون بين الأقزام الا غريبا فى نظر كل من يراه) (٢) •

بل هناك من النقاد من لا يكتفون باعذار الشاعر أو تبرير صرخاته ، فيتجاوزون المدى فى اختيار الجانب المقابل من الرأى ، فلا يتردد الأستاذ خفاجه فى القول بتفاؤل الشابى أشد التفاؤل ، ويعلنها صريحة واضحة أن الشابى فى أعماق نفسه ـ على الرغم من هوم الحياة وأحداثها ، وحزنه على بلاده ومرضه ـ متفائل أشد التفاؤل ـ يحب الحياة ويتذوقها وينصت لشاهدها والهام الجمال الأبدى فيها ، يتغنى بالطبيعة وسحرها ، ويتمنى أن يعيش فى عزلة عيشة هادئة (للجمال والفن) (٣) •

لاشك أنه كان يحب الحياة انسانا ، ويتذوقها شاعرا والا لما حزن على تسللها بالمرض • ولكن حبه هذا للحياة أقرب الى أن يورثه الأسى عليها ، وهى تغيض من أن يشيع فيه (التفاؤل) •• لقد كان المسكين ذكيا ، يرى ويحس الغروب يتعجله ، وما نعم بشعشعة الفجـر أو ألق الضحى •• فما الذى يدعوه الى التفاؤل •• قصاراه أن يتناسى أو يتلهى كما فعل فى عين دراهم •

ان الشـــابى شاعر الألم ، وحسبى أن أقتصر على هذا الوصف ولا أتجاوزه مع الأستاذ عبد العزيز الشابى الذى يراه المثل الأعلى للكآبة والحزن (٤) •

نمر بالديوان فلا نرى الا روحا تشكو وتتألم وأنفاسا تتصاعد من

---

(١) مجلة الامام ـ العدد الخامس السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٣ •
(٢) كتاب « كفاح الشابى » لأبى القاسم محمد كرو ص ١٧ ـ ١٨ •
(٣) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجة ص ١٥٨ •
(٤) مجلة الامام ـ العدد الخامس ـ السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٤٠ •

نضب التعاسة والشقاء ، لا تتصور الحياة الا ظلمة قائمة ، وترى فى نظمها لها سخرية متلونة ، فتتراجع منزعجة ، تبث ما بها الى الشعر قائلة :

يا شعر ! قلبى مثلما تدرى شقى مظلم

فلا تقلب صفحة أو تقرأ بيتا ، الا ترى البؤس يكسو روحا قوية ، تصارع الشقاء الجبار (١) ٠

٠٠ فلئن كان فى شعر الشابى بعض من بسمات الأمل ، والتفاتة الى الحياة راضية ، فهو شىء ضئيل جدا ، لا يعدو ابتسامة مسجون ، وأغنية طائر مأسور ، لا ينهض بحال على أنه مقبل على الحياة ، راض عنها ، وكيف يكون ذلك من يقول :

أيها الشـــادى المغرد ههنـــا ثمـــلا بغبطة قلبـــه المسرور
غـــرد ففى قلبى اليك مودة لكن مـــودة طائر مأســـور (٢)

واذا كان الألم ســـببا من أسباب يعزى اليها ظاهرة أو أخرى فى شعر الشابى ٠٠ بل لعله ظاهرة كبرى ، لفتت الكثيرين ٠ فمن وفاء الدراســـة أن نفرد لألم الشاعر بابا خاصـــا تتسمع فيه أناته ، وتتقصى انعكاساتها على شعره ٠

(١ ، ٢) مجلة الامام ــ العدد الخامس ــ السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٤٠

شاعر الألم

من النقاد من يعزو الى الألم وحده شعر الشابى كله بل عبقريته نفسها (فلولاه على ما يظهر ، ما تحركت فى داخل نفسه الباطنة عبقريته الشاعرة ، واقرأ فيما نشر وجمع من أغانيه وأشعاره ، فستراها كلها نبتت فى تربة الألم ، وتمايلت أغصانها فى ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه) (١) .

والناقد يعنى هنا الألم الخاص والعام (٢) .

أيها السارى مع الظلمة ، فى غير أناة
مطرقا ، يخبط فى الصحراء ، مكبوح الشكاة
تهت فى الدنيا ، وما أبت بغير الحسرات
صل يا قلبى الى الله ، فان الموت آت
صل فالنازع لا تبقى له غير الصلاة (٣)

نعم هناك ثقل يئوده تترجم عنه (مكبوح الشكاة) ...

وهو فى قصيدة (يا شعر) (٤) كثير الانفعال يهدأ ويصخب ، يضحك ويبكى تكاد تغتاله أوهامه ، ثم يفيق على شعاع من نور أو بسمة من زهرة فتنطلق نفسه ويتفاءل . واذا بالوهم الدساس يتسلل اليه وهو

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٧ .
(٢) يقول الناقد « ولم يقف احساس الشابى بالألم عند نفسه ، بل يتعداها الى أمته » ص ٥٧ من المصدر السابق .
(٣) الديوان ــ قصيدة « الى قلبى التائه » ص ٩٢ .
(٤) الديوان ص ٣٥ ـ ١ .

يعزف فيربد من جديد ثم يعود . وظل على هذه الحـــال دون أن تدرى أتطرب معه أم تبكى من أجله ؟ ..

انه لا شك مكروب وحسبه راحة أن تنفس في شعره ...

يا شعر ! قلبى ــ مثلما تدرى ــ شقى ، مظلم
فيه الجراح ، النجل ؛ يقطر من مغاورها الـدم

يا قلب ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البديع
يصغى لضجات العواصف قبل أنغـام الربيع

هبه ... عزاء وتأسية ...

يا شعر ! أنت نشـيد أمواج الخضم الساحره
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهره

تهليل وانطلاق .. لحظة ..

وبعد أن رقص شعره على وقع نشيد الموج تجهم من جديد ..

هبـا أنَّ أزهـــار الربيـــع تبسمت أكمامهـا

أين التجهم اذن ؟

ترنو الى الشـــفق البعيـد تغـــرها أحـــلامها

هنا في (تغرها أحلامها) .. هنا توجس وطيرة ..

فى صدرها أمل ، يحدق نحـــو هاتيك النجوم
لكنـــه أمل ، ســـتلحده جبـــابرة الوجـــوم

ألم أقل لك : لكأن بينه وبين الموت ترات ، فهو دائما يتخيلـه يترصده ، ويتحرش به .. مسكين شبابه يتفزع .. في الحياة .. من الموت .. لقد بكيته عند بيتيه :

يا شعر ! هل خلق المنون بلا شعـور كالجماد ؟
لا رعشـــة تعرو يديه اذا تملقـــه الفـؤاد

أرأيت أزهار الربيع ، وقـد ذوت أوراقهـــا
فهوت الى صدر التراب ، وقد قضت أشواقها

أرأيت شحرور الفلا ، مترنما بين الغصـــون
جمد النشيد بصدره ، لما رأى طيف المنون ؟

فقضى ، وقد غاضت أغاريد الحياة الطاهـره

وهوى من الأغصان ؛ ما بين الزهور الباسره؟(١)

شلت يده ... هذا الموت تمتد الى شباب ..

وهو حين يتسمع للألم أو لشعور الألم على وجه التحديد ، لا تقع عينه الا على مآسى الحياة ، فيطالعه أو تجره قدمه بوعى منه أو بغير وعى الى المقابر ، فيفزع من هول الفجيعة .. فتاة يغيب أبوها فى الثرى أحوج ما تكون اليه فى دنيا الغاب .. وحبيب فى ميعة العمر ينطفىء كالومضة وما درى بنائحة تتهاوى عليه جازعة تجأر (ويلى لمن يتركـــونه) ... وتتوالى الصرخات فى أذن الشاعر . فهذه صرخة تمزق أقسى القلوب .. نعم هى صرخة أم ريعت فى صغيرها ، وهذه أنة شريد ، وتلك شكـاة بائس (٢) . وتتكاثر الآلام فى طريق الشاعر حتى لتكاد تسـد عليه طريقه .. ومن انطباعاتها فى نفسه قصائده .

مأتم الحب (٣) ، الكآبة المجهولة (٤) ، أيها الليل (٥) .

شكوى اليتيم (٦) ، الزنبقة الذاوية (٧) ، السآمة (٨)

الدمـــوع (٩) ، أغنية الأحزان (١٠) الذكرى (١١)

مناجاة عصفور (١٢) المساء الحزين (١٣) ، بقايا الخريف (١٤)

أغنية الشاعر (١٥) ، فى فجاج الآلام (١٦) ، جدول الحب (١٧)

يا رفيقى (١٨) الى الموت (١٩) الى عازف أعمى (٢٠)

صوت تائه (٢١) نشيد الأسى (٢٢) ، قلت للشعر (٢٣)

---

(١) الديوان ـ قصيدة « يا شعر » ص ٣٨ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « فى فجاج الآلام » ص ٦٥ ـ ٦٨ .
(٣) الديوان ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٤) الديوان ص ٢٢ ـ ٢٤ .
(٥) الديوان ص ٢٥ ـ ٢٨ .
(٦) الديوان ٢٢ ـ ٢٤ .
(٧) الديوان ٢٩ ـ ٣٠ .
(٨) الديوان ٤٤
(٩) الديوان ٤٦ ـ ٤٧ .
(١٠) الديوان ٤٧ ـ ٥١ .
(١١) الديوان ٥٣ ـ ٥٤ .
(١٢) الديوان ٥٥ ـ ٥٦ .
(١٣) الديوان ٥٩ ـ ٦١ .
(١٤) الديوان ٦٢ ـ ٦٣ .
(١٥) الديوان ٦٤ .
(١٦) الديوان ٦٥ ـ ٦٨ .
(١٧) الديوان ٦٩ ـ ٧٢ .
(١٨) الديوان ٧٣ ـ ٧٥ .
(١٩) الديوان ٧٦ ـ ٧٧ .
(٢٠) الديوان ٧٨ ـ ٨٠ .
(٢١) الديوان ٨١ ـ ٨٢ .
(٢٢) الديوان ٨٣ ـ ٨٥ .
(٢٣) الديوان ٨٦ ـ ٨٧ .

أغانى التائه (١) ، الى قلبى التائه (٢) ، أكثرت يا قلبى ماذا تروم (٣) ، يا موت (٤) ، الى الله (٥) النبى المجهول (٦) صفحة من كتاب الدموع (٧) ، شجون (٨) ، طريق الهاوية (٩) الأشواق التائهة (١٠) ، أحلام شاعر (١١) ، قيود الأحلام (١٢) أنا أبكيك للحب (١٣) ، أبناء الشيطان (١٤) ، رثاء فجر (١٥) ، حديث المقابرة (١٦) ، فى ظل وادى الموت (١٧) ، قال قلبى للاله (١٨) الجنة الضائعة (١٩) ، أيتهـا الحالمة بين العواصف (٢٠) ، الأبد الصغير (٢١) ، صوت من السماء (٢٢) ، الصباح الجديد (٢٣) ، نشيد الجبار (٢٤) ، زوبعة فى ظلام (٢٥) ، شكوى ضائعة (٢٦) ، فلسفة الثعبان المقدس (٢٧) .

وهذه القصائد قد حشدت بألفاظ العذاب التى تبلغ ١١١٨ لفظا من مثل :

شجون ـ شقاء ـ ابتئاس ـ نوائب ـ البلايا ـ الرزايا ـ الارهاق ـ لظى ـ اليأس ـ الوجل ـ الهول ـ الويل ـ دامية ـ ضجيج ـ كئيب ـ غريب ـ أنين ـ حنين ـ حزين ـ اعتساف ـ اصطخاب ـ العذاب ـ ركود ـ تائه ـ حيران ـ النحيب ـ غصات ـ الحزن المذيب ـ دموع ـ هدها ـ لوعة ـ صرخت ـ قسوة ـ جهنم ـ ذكرى ـ قطوب ـ تتلوى ـ التعيس ـ المكروب ـ يطفح ـ لذع ـ تبرمت ـ كرهت ـ يعصف ـ لغوب ـ الخطوب ـ تهاوت ـ تجرع ـ نوح ـ تنهدت ـ شوك ـ أوجاع ـ لفح ـ

---

(١) الديوان ٨٩ ـ ٩٠ .
(٢) الديوان ٩١ ـ ٩٢ .
(٣) الديوان ٩٣ ـ ٩٤ .
(٤) الديوان ٩٥ ـ ٩٧ .
(٥) الديوان ٩٨ ـ ١٠١ .
(٦) الديوان ١٠٢ ـ ١٠٥ .
(٧) الديوان ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٨) الديوان ١٠٨ .
(٩) الديوان ١١٠ ـ ١١١ .
(١٠) الديوان ١١٢ ـ ١١٣ .
(١١) الديوان ١١٤ .
(١٢) الديوان ١١٥ ـ ١١٦ .
(١٣) الديوان ١١٧ ـ ١١٨ .
(١٤) الديوان ١١٩ ـ ١٢٠ .
(١٥) الديوان ١٤١ ـ ١٤٣ .
(١٦) الديوان ١٣٤ ـ ١٤٠ .
(١٧) » ١٤١ ـ ١٤٣
(١٨) الديوان ١٤٦ .
(١٩) الديوان ١٤ ـ ١٥٠ .
(٢٠) الديوان ١٥٥ .
(٢١) الديوان ١٥٦ ـ ١٥٧
(٢٢) الديوان ١٥٨ .
(٢٣) الديوان ١٥٩ ـ ١٦١ .
(٢٤) الديوان ١٧٩ ـ ١٨١ .
(٢٥) الديوان ١٨١ .
(٢٦) الديوان ١٨٦ ـ ١٨٧ .
(٢٧) الديوان ١٩٢ ـ ١٩٤ .

(شعره قد احتوى على الكثير من اليأس فى هاته الحياة والتمعض من آلامها وأظن أن هذا ما جاء للشابى الا من ناحية البؤس والشقاء والزهادة فى الحياة وزينتها • فمن الواجب أن تكون تعاليم فلسفته فى شعره ، وأن يكون شعره هو القيثار الذى يترنم بفلسفته وميوله وآرائه فى الحياة • ومن ناحية أخرى ما كان يقاسيه من أوصاب وأمراض عضالة) (١) •

***

ما أحسب الشابى زاهدا فى الحياة وان شقى بها •• وما كان ليتحسر عليها كل هذه الحسرات ، لو كانت هينة فى عينه لا تستهويه •• ولقد جأر الشابى بالشكوى الى الله وأفصح عن أسبابها فى شبه احصاء ، فلم تكن الزهادة من بينها •

ولعلك تراجع الأسباب معي :

أنت أنزلتنى الى ظلمة الأرض وقد كنت فى صباح زاه
ثم خلفتنى وحيدا فريدا بين داع من الرياح ونـاء
أنت أنشأتنى غريباً بنفسى بين قومى ، فى نشوتى وانتباهى
أنت عذبتنى بدقة حسى وتعقبتنى بكل الدواهى
بالأسى ، بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهى
بالمنايا تغتال أشهى أمانى وتذوى محاجرى وشفاهى
فاذا من أحب حفنة ترب تافه ، من ترائب وجباه (٢)

وبالطبع •• بعد هذا كله •

واذا فتنة الحياة وسحر الكون ضرب من الغمام الزاهى
يتلاشى فوق الخضم ، ويبقى اليم كالعهد مزبد الأمواه

وحدة •• غربة •• دقة حس •• أسى •• سقام •• هم •• وحشة يأس •• شقاء •• منايا •• انه حشد من الأسباب ، وليس سبباً واحداً كما يذهب فى التعليل ناقد أو آخر ، كما فعل الأستاذ محمد الحبيب بن بلقاسم فى عرضه لآلام الشابى فقد أشار الكاتب الى حب الشابى وقرر

---

(١) مجلة الامام ـ العدد الخامس ـ السنة ٣٢ بتاريخ ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٦ ـ ٣٧ •
(٢) الديوان ـ قصيدة « الى الله » ص ٩٩ •

انه كان صدمة عنيفة ، ولكنه لم يشأ أن يعزو اليه حزن الشاعر وحجته أن (الشبان أو الشعراء الذين عانوا مثل تجربته فى مثل عمره كثيرون ، ولم تصطبغ أشعارهم بهذه الصبغة القاتمة) (١) . ومن ثم راح يبحث عن تفسير آخر لكآبته غير تفسير الحب ...

وقبل أن نعرض لتفاسيره الأخرى نحب أن نقول انه لا يتحتم مطلقاً أن يستوى جميع الشبان فى درجة الاحساس أو حرارته ازاء العاطفة المماثلة ، حزينة كانت أو سارة ..

بقى أن نرى سائر التفاسير على بينها ما يغنى أو يقنع ...

يقول لكاتب (أما أحواله الخاصة فقد كان فى درجة محمـــوده من العيش ، ولم يعرف عنه التهالك على حب ملذات الحياة ، وأما مرضه فقد صادفه شاعرا كامل الأداة فليس فى أحواله الخاصة كذلك ما يعلل أحزان هذا الشاعر . فاذا نظرنا الى أحـوال تونس الأخـــلاقية والاجتماعيـة والسياسية أيضا فانـــا نجدها تورث الحزن لا محالة . ولـكن كم هم الشعراء الذين زاملوا أبا القاسم الشابى ، ولم تستبدل تلك الأحزان بأشعارهم ؟) (٢) .

كل هذا فى نظر الكاتب « روافد متممات » انما ينبغى عنده (أن يطلب تعليل آلام هذا الشاعر فى داخل نفسه ، ويبحث عن التعريف بكآبته المجهولة فى نظرته للأشياء لا غير ، لأن البحث عن غيرهما غير مجد ، وتعليق هذه الآلام بأمور أخرى خارجة عن ذاته لا تسكن اليـه النفس) (٣) .

والكاتب يعنى بداخل نفسه : (يقظة شعور الشابى التى وكلت باحصاء ما يطوف حولها) (٤) والكاتب يقدر أن الشاعر (لو عاش بهذا الشعور ولم يرافقه حنين الى حياة أخرى ، لكان من الراجح أن يشتمل شعره على اشراق وبهجة ، تنسينا أحيانا تلك الغيوم من السآمـة والضجر) (٥) .

أى أن حلم الشاعر بحياة أخرى أفضل يعزز عامل يقظة الشعور فى تلوين شعر الشابى بصيغته القاتمة وهو كما يبدو من صياغة الكاتب ليس

---

(١) مقال « آلام الشابى » من كتاب « ذكرى الشابى » ص ٣٣ .
(٢ ، ٣) ص ٣٤ من مقال « آلام الشابى » من كتاب « ذكرى الشابى »
(٤) ص ٣٤ من مقال « آلام الشابى » من كتاب « ذكرى الشابى » .
(٥) ص ٣٥ من المصدر السابق .

من (الروافد المتممات) فحسب . ولكنه يتقاسم الأهمية مــع السبب الأوحد الذى التمسه الكاتب تفسيرا لحزن الشابى وهو يقظة الشعور ..

وعندى أن مرضه ، وفقد أحبته ، وتعاسة وطنه فى أيامه ، ويقظة شعوره ، كلها عوامل لا يكاد يرجح أحدها الآخر فى تعليل ألمه بل انها تتساوى تقريبا فى الوصول الى هذا التعليل ...

بعد هذه الآلام الحادة كل سرور يغشيه الألم ، بل ان المحزون يثير السرور أشجانه كالألم سواء بسواء .. فاذا بالسرور كما أبدع الشاعر فى وصفه غمام زاه واذا به هدوء سطحى عارض ، على صفحــة خضم يتلاشى سريعا فى صخب الأمواه أحاطت به وضيقت عليه الخناق .. وغير هذا يكون الزهد الذي يختاره صاحبه وله ندحة عنه من قدرة أو وفرة .. ولكن شاعرنا يحب الحياة والمتعة والرفه .. ولوع بأسباب السرور . ولكن ما حيلته فى الأسى والسقام والهم والوحشــة واليأس والشقاء ، كلها اصطلحت عليه ، والتقى جمعها عنده .. فلم تترك له الضيافة الثقيلة فسحة للاسترواح ، أو مجالا للسرور الخالص ، الذي يشتهيه ويتقتل عليه ..

***

ولا ننسى أن فى قلب الشابى جرحا غائرا يخيل اليه معه أن البرء منه بعيد .. وهو يلح عليه حتى فى سبحات الشاعرية فيحــد من انطلاقه ..

فيك ــ ان عانق الربيع فؤادى ــ تتثنــى ســـنابلى وورودى
أنت ياشعرــان فرحت ــ أغاريدى ــ وان غنت الكآبــة ــ عــودى

الشاعر يستبعد الربيــع والفرح ... وليس أدل على السـخرية المرورة أو المرارة الساخرة ــ ان شئت ــ من اعلانه أن الكآبة تجسدته ، حتى لكأنها تمشى على قدميه ، وترى بعينيه ــ فان جاز أن تغنى الكآبة أي يغني هو فالشعر .. عوده ..

ما أحوجه الى رثاء ..

وهو اذا طفح ألمه لا يعود يرى فى الدنيــا الا ظلاما فى ظلام ، ويتنادى (الى الموت) .

الى الموت . ان حاصرتك الخطوب ، وسدت عليك سبيل السلام
ففى عالم الموت تنضو الحياة رداء الأسى ، وقناع الظــلام

وتبدو ، كما خلقت ، غضة يفيض على وجههـــا الابتســـام
تعيد عليها ظـــلال الخلود ، وتهفو عليهـــا قلوب الأنام (١)

ولكن هبه على حد تعبيره : حاصرته الخطوب وسدت عليه سبيل السلام ، ففى الحياة منافذ للسلوى والعزاء والاستعـــلاء ·· أنا لا أقر شاعرا متفتح الشباب والموهبة ، على هذه النزعة ·

وهو حين يرقرق الشعر للعازف المطبق الجفنين ، يأخـــذنى منه تهويله عليه الآلام (٢) حين توقعت منه أن يهون عليه ويغريه بالعزاء ، يجسمه له فى هبة الفن وسحر النغم ··· ولكن الشـــاعر مفعم القلب بالمرارة ، فهو يرى أن الحياة ··

قفر مـــــروع مـــاؤه سراب
لا يجتنى الطـــرف منه الا عواصف الشـــوك والتـــراب
وأســـعد النـــاس فيه أعـــمى لا يبـــصر الهـــول والمصـــاب

حسن تعليل كما يقول البلاغيون · ولكنه فى نظر الحياة المتوثبة التى تطفر من المرح والأمل والبهجة ، ليس بالحسن ·

وما يجهل الشاعر هذا أو ينكره ، فهو نفسه يتساءل :

ما للمياه نقيـــة حولى ، وينبوعى مشـــوب ؟
ما للصباح يعود للدنيا ، وصبحى لا يؤوب ؟
مالى يضيق بى الوجود ، وكل ما حولى رحيب ؟
مالى وجمت ، وكل ما في الغاب مغترد طروب ؟
مالى شقيت ، وكل ما فى الكون أخاذ عجيب ؟
فى الأرض أقدام الربيع تلامس السهل الجديب
فاذا به يحيـــا ؛ وينبت رائق الزهر الرطيب
وهناك أنوار النهار تطل من خلف الغـــروب
فتخضب الأمواج ، والآفاق ، والجبل الخصيب
ان الوجود الرحب ، والغابات ، والأفق الخضيب
لم تخب أشواق الحياة بها ، فغادرهـــا الخطوب
أما أنا ففقدتها ، والليـــل مربـــد ، رهيب
والريح تعصف بالورود فعشت سخرية الخطوب

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الى الموت » ص ٧٧ ·

(٢) الديوان ــ قصيدة « الى عازف أعمى » ص ٧٨ ــ ٨٠ ·

ولكنه بعد هذه المعرفة ، ورغم هذه المعرفة يقول وكأن به اصرارا :

مهمـــا تضاحكت الحيـاة فاننى أبـدا كئيب

(تضاحكت) لا يسلم بالضحك الخالص ولكنه كلفة وتضاحك !!:

أصغى لأوجاع الـكآبة ، والــكآبة لا تجيب
فى مهجتى تتأوه البـلوى ، ويعتلج النحيب
ويضج جبار الأسى ، وتجيش أمواج الـكروب
انى أنا الروح الذى سيظل فى الدنيا غريب
ويعيش مضـطلعا بأحزان الشـبيبة والمشيب

ترى هل نقول معه :

يا اله الوجود ! مالك لا ترثى لحزن المعذب الأواه ؟

ان الله يغفر مثل هذه البادرات ... ولعل الشاعر ليس أدنى منه الى ربه ، والى قلوبنا فى هذه الأبيات من سائر شعره :

قد تأوهت فى سكون الليـــالى ثم أطبقت فى الصباح شفاهى
وتغزلت بالحيـــاة ، وبالحب وغنيت كالسعيـــد الـلاهى
وزرعت الأحـلام فى قلبى الدامى وحوطتها بكـــل انتبــاهى
ثم لمـــا حصـــدت لم أجن الا الشوك،ماذا ترى فعلت ؟الهى !(١)

لقد لج به الألم حتى غاصبت فى الطفح (يا) النداء ... انه فى سعار يضيق بالحروف والكلمات ، الا ما يكاد يبلـــغ صوتـــه ويشيع صرخته ...

يا رياح الوجود ! سـيرى بعنف وتـــغنى بصـــوتك الأواه
وانفحينى من روحك الفخم مايبلغ صوتى آذان هـــذا الالـــه
فهو يصغى الى القوى ، ولا يصغى لصوت بين العـــواصف واه
وانثرى الورد للثلوج بـــدادا واصعقى كل بلبل تيـــاه
فالوجود الشقى غير جديـــر بالأغانى ، وبالجمـــال الزاهى
واسحقى الكائنات كونا بكـــون قبـــل ان تنتهى آذل تنـــاه
فالاله العظيم لم يخلق الدنيـــا سـوى للفناء تحت الدواهى (٢)

ان الشاعر الرقيق الناشج قد استحال الى عاصفة ، تدمـــدم ... تسخط وتسخر ...

(١ ، ٢) الديوان ـ قصيدة « الى الله » ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

خبروني هل للورى من اله راحم – **مثل زعمهم** – أواه
يخلق الناس باسما ويواسيهم ، ويرنو لهم **بعطف الهي**

لقد اعترف به ولما يفرغ من انكاره بعد ...

ويرى في وجودهم روحه السامي ، وآيات فنه المتنـاهي
انني لم أجده في هاته الدنيا ، فهل خلف أفقها من اله ؟

انه يتخبط في ظلام عابس مكفهر ... ويحه ! ما هذا ؟
ما الذى قد أتيت يا قلبي الباكي ؟ وماذا قد قلته يا شفاهي ؟
يا الهي ! قد أنطق الهم قلبي بالذي كان .. فاغتفر يا الهي
قدم اليأس والكآبة داست قلبي المتعب ، الغريب ، الواهي
فتشظى ، وتلك بعض شظاياه .. فســامح قنوطه المتناهي
فهو يارب معبد الحق ، والايمان ، والنور ، والنقــاء الالهي
وهو ناي الجمال ، والحب، والأحلام، لكن قد حطمته الدواهي(١)
اذن هو قنوط حجب عنه الرجاء ....
أنر قلبه يارب ، وسامح قنوطه المتناهي
فهو يا رب معبد الحق ، والايمان ، والنور ، والنقاء الالهي
وهو ناي الجمال ، والحب ، والأحلام ، لكن قد حطمته الدواهي

***

ترى هل انتهت قصة حياته ؟ لعلك تقول : وماذا بقي فيها .. انها لا تعدو الخمسة والعشرين ربيعا .. نعم ولكنها يا صديقي حياة عريضة ، وان لم تكن طويلة .. ومن الناس من يعيشون حياتهم بالعرض فتبذ – على قصر فيها – حياة أولئك الذين يطوون الأيام الطويلة الرتيبــة ، كما يجتر الجمل غذاءه حركة مألوفة فلا جديد ..

لا تتعجلني الدليل ، فسآتيك به في فصول أخرى .

(١) الديوان – قصيدة « الى الله » ص ١٠١

قلب شاعر

والشابي من الشعراء العشاق ، الذين شغل النقاد بهواه كما شغله هواه .. قال قوم : انها واحدة بعينها التي رقرق لها الغناء ، وقال آخرون : بل هي (المرأة) . وأقول والشواهد تتدافع نحو الصفحة لتقف معي : ان في حياته حبا كبيرا معينا يملأ دنياه ، ويوشي رؤاه .

فاذا ما لاح فجر ، كان في الفجر سناه
واذا غرد طير ، كان في الشدو صداه
واذا ما ضاع عطر ، كان في العطر شذاه
واذا ما رف زهر ، كان في الزهر صباه
فهو في الكون جمال ، يملأ الأفق ضياه
وتوشي هذه الأكوان بالسحر رؤاه
وهو في قلبي ـ الذي عانقه الفجر ـ اله
عبقري السحر ، ممراح ، وديع في سماه
ينسج الأحلام في قلبي بأضواء الحياه
ويغنيني ، فأنسى في مسرات غناه
كل ما في الكون من حزن وأفراح عداه (١)

انه حبيب من الجنة فيه من الألق والعطر والرفيف والسحر ما يكفي الربيع والفجر والأصيل والشفق .

وعنده معبد للحب يستهوي .. يقع في حضن الطبيعة .. هناك في الغاب .. كل شيء هادىء ساكن .. كأنه يسترق السمع .. اصغ معي :

---

(١) الديوان ـ قصيدة « أنا أبكيك للحب » ص ١١٧ ـ ١١٨ .

وسكتنا ، وغرد الحب فى الغاب ، فأصغى حتى حفيف الغصون
وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكـــون
معبدا للجمال ، والحب شعريا ، مشيدا على فجاج الســـنين
تحته يزخر الزمان ، ويجرى صامتا ، فى مسيله المحـــزون
وتمر الأيام ، والحزن ، والموت ، بعيداً عن ظله المأمـــون (١)

حتى فى خدر الحواس وغناء الحب يطارد الموت سبحاته وخيالاته ..

معبدا، ساحرا، مباخره الزهر، على الصخر، والثرى، والغصون

كل زهر يضوع منـــه أريج — من بخور الربيع جم الفتون
ونجوم السماء فيـــه شموع — أوقدتها للحب روح القرون

وقد لاحظ الأستاذ كرو أن هذا الحب الوئيد قد أحدث (فى حياة الشابى ، وفى أدبه انقلابا بعيد الأثر ، متعدد الجوانب والصور) (٢) .

وقد أنصف الرجل حين قال : (والواقع أن قصة حب الشابى لم تعرف فصولها بعد ، بل ان العنوان نفسه لا يزال مجهولا . وأحسب أننا لن نستطيع كشف هذه الفصول وجمعها بما يتفق والحقيقة التاريخية ، وبما جرى فعلا فى حياة الشاعر ، الا بعد الاطلاع على كافة تراث الفقيد الأدبى ، ومعرفة جوانب معينة من حياة الشابى الخاصة ، وكلا هذين يحتاج الى وقت طويل وجهد كبير . والى أن يتم كل ذلك سأظل مقتنعا كل الاقتناع بأن الشابى أحب فى حياته حبا حقيقيا صادقا ، وبأنه أغرم بفتاة معينة غراما عنيفا مشبوبا ، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان المملوءة بالحرارة والوجد ، ان هى الا صدى صادق لذلك الحب ، وتصوير رقيق لاحتراق الشاعر به وتمجيده له ، وعكوفه عليه) (٣) .

كتب الشاعر الى صديق ــ وما أصدق هذه الرسائل عندى وأخطرها فى تقييم الأثر الفنى واستشفاف نفس صاحبه من خلالها ..

أما رسالة الشابى فقد جاء فيها :

(أما هذه النفس فانها طائر معذب مطعون ، يسكب دماه فوق الصخور القاسية ، بين أشواك السبيل دون أن يظفر بعشه ،

---

(١) الديوان ــ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٣ .
(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٩٢ .
(٣) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٩٦ .

الذى عبثت به العاصفة ولا بسربه الذى شردته النسور) (١)

العش والسرب .. أحلام بيضاء عمرها بعض ليلة .. أو هى حقائق كثيرة الوقوع ، ولكنها عزت على الشاعر الملهوف ، فبدت طيوفا ، ورؤى ومنى بعيدة ، يزيدها حر الشوق ووقدة الحرمان ، وبرودة الوحدة نعيما وروعة ، تأسر المتشوف بالفتنة الخلوب ..

ويشير الأستاذ السنوسى الى أن له حبيبة (وقد ماتت وتركته يندب « جدول الحب » ولنا علم اليقين أنه قد أصيب بمرض القلب من تلك الصدمة) (٢) .

ويخلص من هذا بعد صفحات الى أن شاعرنا (برغم الصدمة التى لقيها فى حبه العذرى ، اذ ماتت صاحبته الصغيرة ، فقد أحس فى نفسه بدماء الشباب ونفحات « الحب » تغريه . ثم يقرر فى يقين أن الشابى (كان زواجه سعيدا موفقا ..) (٣) .

وقد أورد الأستاذ السنوسى قصيدتى الشاعر ومطلع الأولى :

أراك فتحلو لدى الحياة ويملأ نفسى صباح الأمل

وأخرى مطلعها :

راعها منه صمته ووجومه وشجاها شحوبه وسهومه

على أنهما قيلتا فى زوجته ..

ثم يعود فى ص ٦١ ليؤكد أن زواج الشابى كان (فى آخر أخريات عمره ، قد أحس معه بالسعادة التى خففت من تجهم شعره . ثم كان لحملها وولادة ابنه الأول والثانى أثر أعظم قد ظهر بالاشراق على أدبه) .

ولكن الدكتور شوقى ضيف يرى فى هتاف الشاعر المعول ، بالحب الفقيد رأيا آخر قد يبدو غريبا . فعند الدكتور شوقى ضيف أن هذا الحب الذى يرثيه مع قلبه **ليس الا حبه للحياة** (وما حبيبته التى يرثيها

---

(١) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٩٠ ــ ٩١ .

(٢) كتاب « أبو القاسم الشابى . حياته . أدبه » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٢٤ .

(٣) كتاب « أبو القاسم الشابى . حياته . أدبه » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٢٩ .

فى شدوه الا دنياه ، وما يتألق فى بصره من جمالها الذى يسطع على الأشياء والأشخاص من حوله) (١) .

وناقد آخر يرى أن الشابى انما كان يحب المرأة كجنس ، وليس هناك واحدة بعينها ، ودليله أن الشاعر (لا يذكر امرأة مخصوصة ولا واقعة بعينها ، وانما يذكر المرأة والحب ، ويسبغ عليهما من روحانيته العميقة كل المعانى الرقيقة والأفكار السامية التى تضاهى فى الأفلاطونية أسمى ما كتب عن هاته الأغراض) (٢) .

ليت الأستاذ الحليوى صاحب هذا الرأى يقرأ معى لشاعرنا الرقيق البهاء زهير الأبيات العذبة :

رد السلام رسول بعض النـاس ... بالله قل يا طيب الأنفـاس
رد السلام وذاك عنوان الرضـا ... بشراى قد ذكـر الحبيب الناسى
وأنزه اسمك أن تمر حروفـه ... من غيرتى بمسـامع الجـلاس
وأقول بعض الناس عنك كنايـة ... خوف الوشاة وأنت كل الناس(٣)

ويقول الأستاذ خليفة محمد التليسى ..

(... والشعر الذى قاله فى المرأة لا نستطيع أن نعثر فيه على امرأة معينة ، لها شخصيتها وطبائعها ومزاياها التى تنفرد بها . أقول هذا وأنا على بينة من المذهب الذى اتبعه الشابى فى شعره . فقد أخذ من الشعراء القـدامى سعيهم وراء الجسد ، واهمالهم الصفات التى تميز امرأة عن أخرى . ولو كانت هناك امرأة معينة تختفى وراء هذا القصيدة ، لما صح أن تترك شعره دون أن تسمه بميسم خاص يستطيع معه القارىء التعرف على شخصيتها بوضوح) (٤) .

(وحقيقة يخطىء فيها كثير من الباحثين ، وهى عدم تمييزهم بين هذه النغمة التى تصدر عن الحرمان فلا تصـور الا اللهفـة والحنين والشوق ، وتسبغ على المحبوب كل صفات الرقة والجمال ، وبين هذه النغمة التى تصدر عن الحب ، حب الذى عرف المرأة وعاشرها ففهمها وفهم طباعها ، فلم يزد فى التشبيب بها على وصفها بصفاتها المميزة لها (٥) .

---

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٥ .
(٢) كتاب « مع الشابى » للأستاذ محمد الحليوى ص ٧٤ .
(٣) ديوان أبى الفضل بهاء الدين زهير ص ١٠٩ .
(٤ ، ٥) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

ولكن الناقد لم يبين لنا أى لون من الحرمان ، ذلك الذى يعزو اليه تحرق الشابى ولهفته .. ان الحرمان لونان .. حرمان ملتاح يتخيل ولا يجد ، وحرمان مشتعل يجد ولا ينال ..

واذا كان مضمون كلام الناقد يرجح ميله الى اللون الأول من الحرمان فانى أزكى اللون الثانى ، وهو عندى أورى نارا وأقدر على ارسال (صلوات فى هيكل الحب ..) ويعزز هذا سيرة الشابى ، وشبه الاجماع المنعقد على وجود حبيبة له صوح بها الموت فى أعياد الربيع ..

وناقد آخر يرى أن (الشابى لم يكن يحب حبا ماديا ، يبغى به قضاء وطر أو وصال حبيب .. بل كان قلبه يخفق بحب روحى علوى ، يتمثل له فى مشاهد الطبيعة الساحرة وفى مناظرها البهيجة) (١) .

ولكننى من دراستى الموضوعية أقف الى جانب الرأى القائل : بأن الشابى كان يحب امرأة بعينها ، رفع اليها صلواته فى هيكل الحب ، فهذه الحرارة والدفق والبهر لا تنبعث جميعا ، وبهذه القوة والعمق والذهول الا من قلب عميد ..

***

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام   كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء   كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من طهارة ، تبعث التقديـ   ـس فى مهجة الشقى العنيد
يا لها رقة تكاد يرف الور   د منها فى الصخرة الجلمود
أنت .. ما أنت ؟ أنت رسم جميل   عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق   وجمال مقدس معبود
أنت..ما أنت؟ أنت فجر من السحر   تجلى لقلبى المعمود
وتبثين رقة الشوق ، والأحلام   والشدو ، والهوى ، فى نشيدى
أنت أنشودة الأناشيد ، غناك   اله الغناء ، رب القصيد
خطوات ، سكرانة بالأناشيد   وصوت ، كرجع ناى بعيد
وقوام ، يكاد ينطق بالألحان   فى كل وقفة وقعود
كل شىء موقع فيك ، حتى   لفتة الجيد ، واهتزاز النهود
أنت .. أنت الحياة ، فى قدسها السامى ، وفى سحرها الشجى الفريد
أنت دنيا من الأناشيد والأحلام   والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن   وفوق النهى ، وفوق الحدود

---

(١) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ أبى القاسم محمد بدرى ص ٥٩ .

أنت قدسي ، ومعبدي ، وصباحي وربيعي ، ونشوتي ، وخلودي (١)

رحيق يحتسى في صمت معسول ... كافرة بالفن أنا ان حاولت له شرحا أو تحليلا ..

وهو يرسم للقاء صوراً مونقة تغرى بالحب شيوخ الرهبان ...

أراك ، فأخلق خلقا جديداً كأنى لم أبل حرب الوجود
ولم أحتمل فيه عبئا ، ثقيلا من الذكريات التى لا تبيد
وأضغاث أيامى ، الغابرات وفيها الشقى ، وفيها السعيد
ويغمر روحى ضياء ، رفيق تكلله رائعات الورود
وتسمعنى هاته الكائنات رقيق الأغانى ، وحلو النشيد
وترقص حولى أمان ، طراب وأفراح عمر خلى ، سعيد (٢)

أفراح غامرة لا شك ...

أراك فتخفق أعصاب قلبى وتهتز مثل اهتزاز الوتر
ويجرى عليها الهوى ، فى حنو أنامل ، لدنا ، كرطب الزهر
فتخطو أناشيد قلبى ، سكرى تغرد تحت ظلال القمر
وتملؤنى نشوة ، لا تحد كأنى أصبحت فوق البشر
أود بروحى عناق الوجود بما فيه من أنفس ، أو شجر
وليل يفر ، وفجر يكر وغيم ، يوشى رداء السحر (٣)

ان الشاعر لم يعد من طين .. من لحم ودم .. جماعه الآن روح شفافة .. هفافة مجنحة .. أثير يهفو الى الليل والفجر والغيم والشجر .

ومن عجب أن هذا الفن لم يسلم من الغبن فكاتب كالأستاذ فروخ لم يكد يسلم في ص ١٨٨ بأن الغزل فن عظيم عند الشابى ، حتى ندم فى الصفحة المقابلة ص ١٨٩ وقال (أكثر هذا الغزل عادى صريح ، ضعيف الخيال والبناء ، كثير التقليد) (٤) .

وفي ختام فصل (الغزل عند الشابى) يقول الناقد (ان كثيراً من الذين أحبوا حبا صادقا ثم أصابتهم صدمة فى حبهم هذا قد انقلبوا

---

(١) صلوات فى هيكل الحب ص ١٢١ ـ ١٢٣ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « أراك » ص ١٢٥ .
(٣) الديوان ـ قصيدة « أراك » ص ١٢٦ .
(٤) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ عمر فروخ .

منغمسين في الملذات ضالين في شعاب الهوى متهتكين ، ويبدو أن الشابي ــ مما ترى من شعره على الأقل ــ كان من هؤلاء) (١) ٠

هكذا كانت بداية الفصل ، وهكذا كان الختام ! وفى أى موضوع ٠٠ فى الغزل الذى يعده الناقد أحد فنى الشاعر العظيمين (٢) ٠ والذى يعد الأستاذ محمد فهمى أحد قصائده فيه ، قصيدة « صلوات فى هيكل الحب » (عروس قصائد هذا الشاعر ، بل عروس جميع القصائد الغزلية فى الشعر العربى) ٠ تلك القصيدة التى يراها الأستاذ التليسى بحق (أرفع صلاة توجه الى امرأة فى أدبنا العربى ، قديمه وحديثه) (٣) ٠ ولكنه الأستاذ عمر فروخ ٠

ولكن هذا الحب الذى طار به على أجنحته الى آفاق من نور ، ليست من طبيعة الناس ولا هى من دنياهم ٠٠ هذا الحب نفسه استولت عليه السماء ، فظل هناك وأقفرت منه يد الشاعر ٠٠ ولما ريع بالفقدان ، هوى على الأرض حطاما ، فيه دماء من روح تسخو بالدميع ، ولا يكف عن ذكر الحياة والموت ٠٠ الحياة التى تعيش فيها مثخنة بالجراح ، والحياة التى أصبحت ذكرى ٠٠ والموت الذى رأته رأى العين ، يطبق عليها وينتزع منها حبيبها ، ويمضى هو به ، حين يترك لها الشرود والدموع ، والزفرات المحرقة ، والعذاب ٠ ولكنه ــ على بشاعته ــ حين تركها جمرة تتلظى ، ضمن لها الوقود الذى يحفظ عليها الوهج والضوء ، ومعانى الحياة ٠٠٠ فان للحياة والموت فى شعر الشابى صدى بعيـدا ، جعلهما ظاهرة من الظاهرات الكبرى فى شعره ٠٠

فاذا انقطع هذا الفصل هنا فلأنه سيتصل فى فصل (الحياة والموت فى شعر الشابى) ٠٠ سيتصل فى أكثر من موضع ، فان حب الشاعر بما اكتنفه من وجدان وفقدان ، ألهمه الكثير من حكمة الحياة والموت ، مما يلقى ظلالا على فصول أخرى أيضا غير فصل (الحياة والموت) ٠٠

كان حبه حيا وميتا ، مفتاح الكثير من شعره ٠٠ امض معى ٠٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨ ٠

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٣٥ ٠

الحياة والموت في شعر الشابي

تقول الشاعرة نازك الملائكة : (ان مظاهر عشق الشابي للموت تنتشر عبر شعره) (١) • ويلتقي مع نازك كاتب آخر يرى الشاعر (مقبلا على الموت اقبالا ايجابيا واعيا ، راجيا أن يجد في صدره الراحة من هذا العالم المظلم) (٢) ••

وكاتب يقول (ان أبا القاسم ما انفك يحيي في شعره ، مشكلة الموت باعتبار أن الموت ينقذه من الشقاء ، ويفتح في وجهه أبواب الجمال السرمدي • وبذلك أيضا يتضح لنا أن تشاؤم أبي القاسم بالحياة انما ينطوي على تفاؤل بما بعد الحياة • وبما أن الوجود السرمدي ، يمثل القيم القصوى من حيث الحقيقة والجمال ، فان تفاؤل أبي القاسم به ، يحور تماما معنى تشاؤمه بالحياة البشرية) (٣) •

وقد قرأت ديوان الشابي قراءة مستأنية دارسة ، فلم أر الا استعلاء فقط •• عندما أيقن أنه سيخترم سريعا ، حاول أن يصرف نفسه عن مرارة الكأس أو يهون هذه المرارة على الأقل •• ولكنه أبدا ما عشق الموت ، وما كان الموت ليعشق حتى ولو شقيت الحياة •• ولا أحاج هنا بالمنتحرين ، فهؤلاء المنهارون لم يستحضروا الموت حبا ، أو لماذا •• ولكن ضعفا وخوراً وحربا •

يا موت ! ماذا تبتغي مني وقد مزقت صدري ؟

(١) مجلة الآداب العدد السابع السنة الثانية ـ يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٥

(٢) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٠٢ •

(٣) مقال « الشابي وتجربة الفجر البعيد » للأستاذ الشاذلي القليبي مجلة الندوه عدد ١٠ السنة الأولى • أكتوبر سنة ١٩٥٣ •

ماذا تود ، وأنت قد سودت بالأحزان فكرى
ان كنت تطلبنى فهات الكأس ، أشربها بصبر
أو كنت ترقبنى فهات السهم ؛ أرشقه بنحرى
خذنى اليك ! فقد تبخر فى فضاء الهم عمرى
خذنى اليك ! فقد ظمئت لكأسك الكدر الأمر (١)

ما رأيك ؟ .. ان شقاءه كله أخف بلاء من الموت ... الأمر ...

****

وقد رأت نازك رأيها من خلال تعبير الشابى عن الموت بأنه (ذوبان فى فجر الجمال) من قصيدة (هكذا غنى بروميثيوس) ..

ولكن مطلع القصيدة يفسر هذا التعبير الذائب فى فجر الجمال .. فالقصيدة تستهل بالتحدى . تحدى العزيز المغلوب على أمره ، فهو يحس الواقع احساسا عميقا حتى اذا برح بـه الألم .. الألم النفسى خاصة ، عكس الواقع المحسوس ، كمن يخادع نفسه ليهرب من أحاسيسها . والشاعر فى هذه القصيدة له عدوان عداوتهما غير خافية فلا جدوى للكتمان .. الداء والأعداء .. الداء يفتك به ويستل منه الحياة بضعة بضعة ، والأعداء تتربص به لتشمت فيه .. ما حيلته فى هذا كله ان لم يكن فى الحر استعلاء ؟ ومن طبع الاستعلاء أن يستبض الخير من الشر ان عجز عن تحويله . وهكذا صنع الشاعر وكأنه يقول للأعداء : لا تظنوا أنى سأموت موتا حقيقيا ، ينطمس معه اسمى كجسمى ، ولكنى سأعيش رغمكم ورغم الداء ، أى سأخلد بفنى .. ان الموت ليس نقمة تحل بى دونكم .. ان هو الا ذوبان فى فجر الجمال ..

وأقول للجمع الذين تجشموا هدمى ، وودوا لو يخر بنائى
من جاش بالوحى المقدس قلبه لم يحتفل بحجارة الفلتاء

رحم الله الشابى .. لقد كان يذوب حسرة على نفسه التى تنداح ، على الأيام .. ولأمر ما كرر لفظة الحياة فى شعره ١١٦ مرة ..

ويرى أحد النقاد أن (الألم الذى يقطر فى كثير من قصائده الأولى ، انما هو نتيجة لخوفه من الموت ، فلقد كان يراه شبحا مخيفا لا يبقى على شىء من آمال الانسانية) (٢) .

---

(١) الديوان ــ قصيدة « يا موت » ص ٩٦ .
(٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠١ .

كانت الحياة عنده نعمة غالية ، لا يطيق أن يذكـره الداء البغيض بزوالها ٠٠ آه ! لو استطاع أن يجمع عليها يده ، كما نفعل عند امتلاك جوهرة في حضرة لص مفتوح العين ٠٠ اذن لما أفلتت من انطباقة اليـــد الولوع ٠٠٠ ولكن لص الشاعر أمهر من كل حريص ٠٠ انه الموت الذى يدرك ضحيته أينما تكون ، ولو تحصنت بالبروج المشيدة ٠٠٠ الموت الذى كان الشاعر فى فزع دائم منه ٠٠ ومع الفزع حسرة دامعة ٠ فالحياة لا تعبأ بذاهب ، بل تجرى فى سيرها المألوف كأن لم يحدث شيء :

والدهر يدفن فى ظلام الموت حتى الذكريات (١)

اذن ليس للميت عزاء حتى من ذكرى ٠٠ يا ضيعة الشباب ، والشاعرية ، والآمال ، والأشواق يغتالها الموت من الشاعر ٠ ويغتاله معها ٠٠

والموت تحفر ــ أينما يخطو ــ المقـــابر واللحود
وتمـر بين فجاجها اللذات ، حالمـــة ، تميـــد
سكرى ٠٠ وأشواق الورى ترنو الى الأفق البعيد
وتظل ترقص للأسى ، للهـو ، أشبـــاح الدهـور
حتى يواريهـا ضباب الموت فى وادى الدثـــور
وتظـــل تورق ، ثم تزهـر ، ثم ينشرها الصباح
للموت ، للشوك الممزق ، للجداول ، للريـــاح
بسمات ثغر ، حالم ، يفتر فى ســـهو السرور
وورود روض ، باسم ، يصغى لألحـــان الطيـور
وتظل تخـفق ثم، تشـدو ، ثم يطويهـــا التراب
قبل ، وأطيـــار ، تغرد للحياة ، وللشبـــاب
وتظل تمشى فى جـــوار المـــوت أفراح الحياة

هل هو احساس خفى بمصيره العجلان ؟ عذاب لا شك ٠٠ هـذا الاحساس ، ولكنه ككل شيء فى الدنيا لا يخلو من الخير ــ يحفز صاحبه فى أحيان كثيرة الى الجود بذخر نفسه سريعا ٠٠ سريعا قبل القطاف ٠٠٠ ولعل من هؤلاء الشاعر أو هو كذلك فى تقديرى ٠

وهذا الاحساس بالقطاف وبالهدر ٠٠ بالغبن ٠٠ بحرب الزمان ٠٠ كل هذا تعكسه مقطوعته (قال قلبى للاله) (٢) :

---

(١) الديوان ــ قصيدة « قلب الأم » ص ١٣٣ ٠
(٢) الديوان ص ١٤٦ ٠

في جبال الهموم ، أنبت أغصاني   فرفت بين الصخور بجهد
وتغشاني الضباب · فأورقت   وأزهرت للعواصف ، وحدى
وتمايلت في الظلام ، وعطرت   فضاء الأسى بأنفاس وردى
وبمجد الحياة ، والشوق غنيت   فلم تفهم الأعاصير قصدى
ورمت للوهاد أفناني الخضر ،   وظلت في الثلج تحفر لحدى
ومضت بالشذى فقلت : ستبنى   في مروج السماء بالعطر مجدى
وتغزلت بالربيع ، وبالفجر   فماذا ستفعل الريح بعدى

(فماذا ستفعل الريح ؟) وهم ملح يطارده حتى في نشوة الحب يرتعد فجأة من خاطر يلوح ···

الحب جدول خمر ، من تذوقه   خاض الجحيم،ولم يشفق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة ، فما   خوفي اذا ضمني قبري؟وما فرقي؟(١)

يخفى خوفه فيعلنه ·· لقد صرح به وما درى ! انه يرتجف فزعا من القبر ·· ما أتعسه ·· اشتهى الحياة فاخترم ولما يبلغ وطره من الحياة ···

الحب غاية آمال الحياة ، أحقا هذا أم عزاء ؟

وفي معبد الحب ، تحت الغصون ، تخفف الشاعر من همومه المركومة · وأقبل على الهوى ظامئا لهفان ، ينهل منه ويعل :

··· وسكرنا هناك ··· في عالم الأحلام
تحت السماء ، تحت الغصون

وتوارى الوجود عنا بما فيه   وغبنا في عالم مفتون

لا تصدق فأعصابه مشدودة ، لا يخدرها شيء ودليلي بينه :

ونسينا الحياة ، **والموت** ، والكون   وما فيه من منى **ومنون** (٢)

أين هو النسيان ، أعني النسيان التام الكامل ، الذى لا يتذكر ولا يحفل بالذكر ·· رحمه الله ·· كان يحس دائما أنه فريسة للموت يطارده أينما كان ·· حتى في الغاب ·· حتى في معبد الحب ··

احساس بالمطاردة أراه ، وتراه نازك الملائكة مظهراً لعشق الشابى

---

(١) الديوان — قصيدة « الحب » ص ٤٥ ·
(٢) الديوان — قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٤ ·

الموت ! والا فكيف يذكره (عندما يتحدث عن الجمال والحياة والشباب والأمل والربيع فى قصيدة (تحت الغصون) :

فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت : للضياء البنفسجي الحزين

للشباب السكران ، للأمل المعبود ، لليأس ، للأسى ، للمنون

ولكن هذا عندى من الحاح وهم الموت عليه ٠٠ وقد تساءلت الباحثة نفسها (أكان الغرام بالموت يتصل بالوفاة المبكرة عن طريق الايحاء على وجه ما ، أم كان نتيجة لادراك غامض للموت المبكر الذى ينتظره فى زاوية المستقبل القريب ؟) (١) ٠

بل خرجت عن التساؤل الى التقرير حين قالت (ولعل هذه الحقيقة تبيح لنا أن نعتقد أن هذا الولع الذى صبه شعراؤنا على الموت ، كان يتضمن ادراكا باطنيا سابقا للخاتمة المبكرة ، تسوقهم اليه ملاحظتهم الخفية لانعدام التوازن بين المبذول من طاقتهم العاطفية ، والرصيد الكامل منها فى كل حياة انسانية ٠ وكأن الواحد منهم كان يشعر بأنه يقتل نفسه شيئا فشيئا ، حينما يسرف فى طاقة الانفعال) (٢) ٠

وأرى أن هذا بعينه هو الذى حملهم على تجميل الموت ليهون عليهم البذل ولعلهم فعلوا هذا لا اراديا ٠٠ أو لعله دفاعا عند من يرون انفعالاتهم (حماقة) (٣) وكأنهم يقولون لهم : لتؤد هذه الانفعالات الى الموت ٠٠ ماذا فى الموت ؟ ٠٠ انه (ذوبان فى فجر الجمال) فما لكم أنتم ؟ انه على كل حال خير من حياة راكدة آسنة عفنة ، لا حركة فيها ولا نبض ولا انتفاض ٠٠

ولكن يظل الموت بعد هذا كله حقيقة مرة مبغضة ٠٠ عند الشابى وعندى أيضا :

حقيقـــــة ، مـــرة ، ياليـــل ، مبغضـــة
الموت ، لكن اليها الورد والصـــــــدر (٤)

قد تقول : كيف يرهب الموت وهو يناديه ؟ تعال ٠٠ أليس القائل :

(١ ، ٢) مجلة الآداب ـ العدد السابع ـ السنة الثانية ـ يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٦ ـ ٨ ٠

(٣) تقول الشاعرة نازك الملائكة : (ولا شك فى أن هذا يلوح حماقة للمتوسطين من الناس وهم أغلبية البشر ٠٠) مجلة الآداب يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٨ ٠

(٤) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٧ ٠

وزد الخيـــاة مرنق ، والمـوت مورده معين
ولربما شـــاق الردى الداجى ، وأعماق المنـون
قلبا ، تروعه الحياة ، ولا تهادنه السنـــــون
ومشاعرا حسرى ، يسير بها القنوط الى الجنون (١)

كلا يا صاح .. هذه انقباضة اليأس ، وما كان يمض هذه المضاضة لولا شغفه المنهوم بالحياة وأفراحها ...

لقد هتف بالحياة ... بالأمل ... ٣١٥ مرة فى ديوانه ظفرت لفظة (الحياة) وحدها ب ١٦ موضعا .. فعينك تأخذ فى لمحة مثل هذه الألفاظ فى قصيدة : الأمانى ـ سرور ـ السلام ـ ابتسام ـ نغم ـ الجمال ـ الطروب ـ بهجة ـ نشيد ـ الرجاء ـ الأفراح ـ خمر الحياة ـ يبنى ـ الحب ـ شوق ـ رقص ـ غناء . أليست هذه الألفاظ لبنات الحياة البناءة الآملة الراغبة ؟ ..

حقا ، لقد ذكر الموت ١٢٥ مرة في ديوانه وهـــو كثير ، ولكن الموسنوس لا يفتأ يردد الوهم الذى يعاوده ..

ولو أخذنا بدلالة العدد فلا ندحة عن التسليم بغلبة الحياة على الموت في شعوره وشعره .. ان الحياة لم تفز ب ٢١٥ لفظا فحسب ، بل ان فى رصيدها ١٦١ لفظا آخر ، هى ألفاظ القوة والاستشراف فى الديوان مثل : مجد ـ يثأر ـ الحق ـ الحسام ـ القوة ـ تشتعل ـ اليقظة ـ أجج ـ يثير ـ الجسور ـ أجنحة ـ متدفع ـ هب ـ بأس ـ اباء ـ أضرم ـ العز ..

أليست القوة والاستشراف من معانى الحياة ؟ من مقوماتها الأصيلة ... أليست القوة والاستشراف مساك الحياة الكريمة ، على صاحبها وعلى الناس ؟

وهو يعترف بالحياة والأمل اعترافا صريحا سافراً :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى ـ ومشاعرى عمياء بالأحـزان ـ
أنى سأظمـــــأ للحياة ، وأحتسى من نهرها المتوهج النشـوان
وأعود للدنيـا بقلب خـافق للحب ، والأفراح ، والألحـــان
حتى تحـركت السنون ، وأقبلت فتن الحياة بسحـــرها الفتان
واذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والهذيـــان
ان ابن آدم مى قـــرارة نفســـه عبد الحيـــاة الصادق الايمان (٢)

---

(١) الديوان ـ قصيدة « الذكرى » ص ٥٤ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « الاعتراف » ص ١٨٢ .

انها الأحزان التى تعمى الحواس ٠٠ ولكن الشاعر فى قرارة نفسه كلف بالحياة مولع ٠٠ ولا أستطيع أن أتقبل بسهولة عزو أحد الكتاب احساس الشاعر بالغربة الى ايمــانه بعالم المــوت (١) ! ولم لا يكون احساسه بالغربة وليد شعوره بالتفرد والامتياز ، الذى يجعل اندماجه بمن حوله صعبا عليه وعليهم أيضا ٠ فهو غريب بينهم وهم غرباء ؟

انه ينكر التشاؤم فهل هو متفائل ؟ وكيف يتفاءل من يحيق به الداء والأعداء والغبن برحيل الأحبة ؟ كيف يتفاءل من يرى قومه يغطون فى سبات عميق والمظالم تتخطفهم من كل جانب ؟ كيف يتفــاءل من يعيش بقلب صريع غالى بحبه ، حتى رفعه الى منازل التقديس (٢) ، فاذا به وسط قهقهة القدر الساخر ، يوسده الثرى ويودعه التراب فيصير حفنة من تراب ٠٠٠ والوداعة والجمال والشباب المنغم والرقة ، التى يكاد يرف الورد منها فى الصخرة الجلمود ، والخطو الموقع كالنشيد والصوت الحالم كرجع ناى بعيد ٠٠ أين أين ؟ كل هذا أيضا حفنة من تراب ؟ عــلام التفاؤل ٠ اذن ؟ وما جدوى الحياة نفسها ؟ فى رأيه على الأقل ٠٠

لقد عاش الشاعر فهو ابن الحياة والأم حبيب وان عنفت ، جميلة وان شاهت ٠ ومات الشاعر فى حياته أو مات بعضه فى أبيه وحبيبته فالموت غريمه ٠٠ وقد خلق شاعراً فامتلأ شعره بالحياة والموت ، واذا أنت فى حضرته تتزاحم على سمعك أصوات مختلفة ، فبينما الضحكات ترن فى جانب من الديوان ، اذا بالنحيب يعلو فى جانب آخر ٠٠ هنا دمعة وشهقة وزفرات ، وهناك روعة وخفقة وبسمات ٠ ولا أحسب أحدا تجتمع له العوامل التى اجتمعت للشابى ثم يفعل غير ما فعــل ٠٠ ويلتقى بى الأستاذ خليفة محمد التليسى هذه المرة فيقول :

(على أن الشابى ظل عميق الحب للحياة ، وليس تشاؤمه الا صورة من صور النقمة على الأوضاع المريضة التى كان يعيش فيها مجتمعه ٠ وهو ينطوى على الرغبة فى الحياة الرفيعة الخالقة المبدعة ٠ أكثر مما ينطوى على كراهية الحياة) (٣) ٠

---

(١) اقرأ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ من كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ٠

(٢) أنت من ريشــة الالــه ، فلا تلــقى بفن السـما لجهل العبيد
أنت لم تخلقى ليقربك الناس ولكن لتعبــدى من بعيــد
الديوان ــ قصيدة « أيتها الحالمة بين العواصف » ص ١٥٥ ٠

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠٩ ، ١١٠ ٠

(ومجمل الرأى أن الكآبة التى تطغى على شعر الشابى انما صنعها عصره بما كان يشيع بين شبابه من ألوان الحزن ، وصنعها مزاجه الموروث وبيئته التى كانت ترسف فى تقاليد الأجيال الغابرة ، وقراءاته الرومانسية ومرضه العضال) (١) .

ويقول كاتب آخر :

(لعل الأقرب الى الواقع أن نقول : ان الشابى كان يحب الحياة حبا مثاليا رفيعا ، كما يحب الناس حبا خالصا ساميا ، ويرنو الى الكون وما فيه بعين ملؤها الشوق الصادق والتعبد النزيه) (٢) .

ولكن واقع الشابى المزدوج لابد أن يخلف انطباعاته على نفسه ورأيه وشعره ، لابد أن يكون له فلسفته الخاصة به أو نظرات فى الحياة والأحياء ، وان كان يحلو للبعض أن يطلق عليها « فلسفة » بمعنى مذهب ، بل غلا بعضهم فأضفى عليها صفة التمام والكمال . فالأستاذ الحليوى يرى فى دهشة العجب ، أن الشابى (ترك لنا فلسفة تامة متصلة الأطراف ، على قصر حياته ، وقصر الزمن الذى اشتغل فيه بالأدب ، وعجيب حقا أن يصل المرء بمحض مجهوده الفردى وعقله المجرد ، فى مدى عشر سنوات الى بناء فلسفة فى الحياة تامة الحلقات ، لم يقلد فيها الا نفسه ، ولم يصف الا ما رأى وما جرى حوله من الأحداث ، وما اغترفه فى قلبه ، فى ذلك الأبد الصغير ، من دنيا محجبة وظاهرة ..) (٣) .

هنا غلب الصديق الباحث العلمى فى الناقد ، فليست نظرات الشابى فى الحياة والحى ، فلسفة بمضمونها الصحيح ، ولكنها تأملات واعية ، ونفاذ فحسب ، لا فلسفة قائمة متكاملة أو تامة الحلقات ، كما يغالى الأستاذ الحليوى فى تقديره ..

ويقسم كتاب الحركة الأدبية والفكرية فى تونس الشعر الوجدانى فيها الى مسلكين ... المسلك الحكمى والمسلك الغزلى . فيتخذ (للمسلك الحكمى مثالا أبا القاسم الشابى) (٤) .

وأدنى الصواب عندى ما يراه الأستاذ محمد بدوى فى فلسفة

(١) المرجع السابق .

(٢) مقال « الشابى وهذه الحياة » للأستاذ عبد الله شريط — مجلة الندوة عدد ١٠ السنة الأولى أكتوبر ٥٣ ص ١٠ .

(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور . اقرأ ص ١٧٨ .

الشابى الخاصة – والفلسفة هنا كما سترى بمعنى الرأى ·· الاتجاه الشخصى ··· يتركب (من عنصرين هما مزاج السرور والأحزان ، أو بتعبير آخر نشوة اللذة التى تعقبها مرارة الألم) (١) ·

أى أنه شاعر يعيش بالشعور وللشعور كما يقول ·· فهو يرسل الحكمة كما يرسل الدمع كما يفتر عن الابتسامة ··· وراء كل حالة شعور ما يلون رأيه وتفكيره ··· وكثيرا ما تكون له نظرات نافذة وآراء واعية ، أنضجتها التجربة وطول الفكرة ، على طراءة السن وفوة الشباب :

ما قدس المثل الأعلى وجمله ... فى أعين الناس الا أنه حلم
ولو مشى فيهم حيا لحطمه ... قوم ، وقالوا بخبث : (انه صنم)
لا يعبد الناس الا كل منعدم ... ممنع ، ولمن حاباهم العدم
حتى العباقرة الأفذاذ ، حبهم ... يلقى الشقاء، وتلقى مجدها الرمم (٢)

ويطيب له أحيانا أن يرسل الحكمة على طراءة عمره · ولكن لعل له فى التجربة عمرا ثانيا يمده فيقول :

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما ... فى كفها الغار ، أو فى كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئدا ... غنت لك الطير ، أو غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض ... والجم شعورك فيها ، انها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ... ومن تجلد لم تهزأ به القمم (٣)

بل ويصطنعها أحيانا كقوله :

اذا صغرت نفس الفتى كان شوقه ... صغيرا ، فلم يتعب ، ولم يتجشم
ومن كان جبار المطامع لم يزل ... يلاقى من الدنيا ضراوة قشعم (٤)

ومن شعره الفلسفى قوله :

ضحكنا على الماضى البعيد ، وفى غد ... ستجعلنا الأيام أضحوكة الآتى
وتلك هى الدنيا ، رواية ساخر ... عظيم ، غريب الفن ، مبدع آيات
ولو مشى فيهم حيا لحطمه ... ووسط ضباب الهم، تمثيل أموات
وكان يؤدى دوره ·· وهو ضاحك ... على الغير، مضحوك على دوره العاتى (٥)

---

(١) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ محمد بدرى ص ٢١ ·
(٢) الديوان – قصيدة « الناس » ص ١٧٨ ·
(٣) الديوان – قصيدة « السعادة » ص ١٥١ ·
(٤) الديوان – قصيدة « متاعب العظمة » ص ١٤٦ ·
(٥) الديوان – قصيدة « الرواية الغريبة » ص ١٦٤ ·

ومن هذا الطراز قصيدته (شكوى ضائعة) ٠

وفى سهمة من حيرته وشروده يتساءل كالذاهل :

نحن نمشى ، وحولنـا هاته الأكوا
ن تمشى ٠٠ ، لـكن لأيـة غـايه ؟
نحن نشـدو مع العصـافير للشمس ،
وهـــذا الربيـــع ينفخ نـايه !
نحن نتلو رواية الـكون للمـوت
ولكن مـاذا ختـام الروايـــه ؟
هكذا قلت للرياح فقـــالت :
«سل ضمير الوجود : كيف البدايه؟»

وتغشى الضباب نفسى ، فصبـــاحت
فى مـــلال مر : «الى أين أمشى ؟»
قلت « سيرى مع الحياة ٠٠ » فقالت :
«ما جنينا ، ترى،من السير أمس» ؟
فتهافت كالهشـيم ــ على الأرض ،
وناديت : « أين يا قلب رفشى ؟ » (١)

وقد أورثه هذا كله مرارة ، تطفح حينا سخطا سافرا ، وآنا مقنعا ، تلفه سخرية تكشف منه أكثر مما تدارى ٠٠٠

أظمأت مهجتى الحيــاة ، فهل يوما تبل الحيــاة بعض أوامى ؟
يا رفيقى ! ما أحسب المنبع المنشود الا وراء ليل الرجام (٢)

احسب ان طال انتظاره بليل حتى ظن الفجر ضل طريقه فى حلك الظلام ٠ وخاض يوما الزحام مع الجموع المتدافعة ، وبلا الحياة والناس ، وخبر الأشياء ، فخرج من التجربة يلهث وهو يتمتم :

كان ظنى أن النفـوس كبـــار   فوجدت النفوس شيئا حقـيرا
لوثته الحيـــاة ، ثم استمرت   تبذر العالم العريض شرورا
فاحصدوا الشوك ٠٠ يابنيها وضجوا   واملأوا الأرض والسماء حبورا(٣)

---

(١) الديوان ـ قصيدة « فى ظل وادى الموت » ص ١٤١ ٠
(٢) الديوان ـ قصيدة « يا رفيقى » ص ٧٣ ٠
(٣) قصيدة « أبناء الشيطان » ص ١٢٠ ٠

ويبدو أن التجربة الأولى أعقبتها تجارب أخرى ، حتى عم غضبه فقال :

لو كان هــذا الكون في قبضتي ... ألقيته في النــار ، نــار الجحيم
ما هذه الدنيا ، وهــذا الورى ... وذلك الأفق ، وتلك النجــوم ؟
النــار أولى بعبيــد الأسى ... ومسرح الموت ، وعش الهموم (١)

ولكنك تحس مع شـعره أنه ليس متشائما ، بمعنى أنه مقفــل النفس ، لا يرى الا حلكا من ظلام ، ولكنه مجرد سخط على الواقع لبعد الفرق بينه وبين المثال الذى يشتهيه شاعر مثله ، مملوء بأشواق الحياة كما تعلن هذه الأبيات :

كل ما هب ، ومـا دب ، ومـا ... نام ، أو حام على هــذا الوجود
من طيور ، وزهــور ، وشذى ... وينابيع ، وأغصــان تميــد
وبحــار ، وكهـوف ، وذرى ... وبراكين ، ووديان ، وبيــد
وضــياء ، وظلال ، ودجـى ... وفصــول ، وغيــوم ، ورعــود
وثلوج ، وضــباب عابــر ... وأعاصير ، وأمطــار تجود
وتعــاليم ، ودين ، ورؤى ... وأحاسيس ، وصمت ، ونشيــد
كلهــا تحيــا بقلبى ، حرة ... غضة السحر ، كأطفال الخلود (٢)

ولكنه كما يقول الأستاذ عبد العزيز عتيق :

(كان شديد الانحاء على الجمود والجامدين ، والجور والجائرين ، كما كان شديد البرم بالحياة والسخط على ما فيها من المتناقضات ، سخطا كان يدعوه أحيانا الى الثورة على الوجود والناس ، واليأس من صلاحهم ! حتى اذا ما انتهت ثورته أوى الى دنياه ، يتلمس فيها العزاء ، يتلمسه فى النجوى العفيفة ، والزنبقة الحالمة ، والجداول النائمة ، والجبال الوقورة ، والأغوار الرهيبة ، والمروج الخضراء ، والرياض الفيحاء ، والآجام المتأشبة ، والسواقى النائحة ، والنجوم اللاغية ، والليل الغريب . أجل يتلمس العزاء فى كل أولئك وغيره ، ثم يخرجه لنا فنا خالصا ، وشعرا تموج فيه العواصف وتزخر ، وتتعانق فيه الرؤى والأحلام) (٣) .

وكان الشابى لا يكتم حنقه على الجامدين هؤلاء ، بل كان يعلنه غير هياب :

---

(١) قصيدة « زوبعة فى الظلام » ص ١٨١ .
(٢) قصيدة « قلب شاعر » ص ١٨٣ .
(٣) مجلة الامام ــ العدد الخامس ــ السنة ٣٢ فى ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٠ .

كل قلب حمل الخنف ، ومـا مل من ذل الحيـاة الأرذل
كل شعب قد طغت فيه الدمـ دون أن يثأر للحق الجلي
خلـه للموت يطويه ! .. فمـا حظه غير الفناء الأنكـل (١)

سخرية ولكنها من الشعراء هذه المرة :

وفى المهامه أشلاء ، ممزقة تتلوعلى الفقر شعرا ، ليس ينتحل (٢)

وذاك لون من الشعر لا ينتحل ، لأنه مكتوب بالدم ومنظوم من العمر كله ، فالانتحال هنا يكلف عزيزا .. يكلف الحياة نفسها .. ومن هنا جاء الزهد فيه .

ومن أدواته في السخرية « اللفظ » أيضا :

رباه ! كم من فتاة ، تشكو الحيـاة وتبكى ،
ومعـدم ، بوأته الدهـور مقعد ضنك

تأمل (بوأته) هذه ، واذا كان من المسلم به أن مقعد الضنك لا يبوأ ولكن يساق صاحبه اليه قسرا عرفت الى أى مدى يسخر الشاعر .. من كل شيء ...

ولكن هل امتدت سخريته هذه الى (الدين) ؟

لا يهولنك السؤال ، فلم يكن ليخطر لى ، وقد قرأت شعره حرفا حرفا فلم يأخذ عينى دليل ولا شبهة ... ولكن يدفعنى الى الخوض فى الموضوع ، ناقد يرى الشابى قليل الاحتفال بالدين كله (٣) .

بل يتجاوز هذا القول بأن الشابى (غير متقيد بشيء منه ـ فى شعره ـ ثم هو ينحو فى تشابيهه واستعاراته أحيانا منحى لا يقره التوحيد ، أو هو زندقة فى رأى النقاد القدماء . يتكلم الشابى عن المرأة فيقول مثلا :

أنت قدسى ، ومعبدى ، وصباحى ، وربيعى ، ونشوتى ، وخلودى
يا ابنة النور ، اننى أنا وحدى من رأى فيك روعة المعبود
وحرام عليك أن تسحقى ، آما ل نفس ، تصبو لعيش رغيد
فالاله العظيم لا يرجم العبد اذا كان فى جلال السجود (٤)

(١) الديوان ـ قصيدة « خله للموت » ص ١٤ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « غرفة من يم » ص ١٧ .
(٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٤ .
(٤) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٦ .

أى زندقة ؟ ... شاعر يرى فى الجمال مظهر قدرة الله ... يرى فى الجمال روعة المعبود ... أتكون الزندقة فى البيت الأول (قدسى .. معبدى) واضح من الرفيف الشعرى أنه تعبد لا عبادة حقيقية دينية .. أتكون الزندقة فى البيت الأخير ؟ .. ان العرض لله هنا فيه تعظيم ، فهو يتوسل بالعظيم المتعالى بأن يجعل منه مثالا يرجو الحبيب أن يتطلع اليه ويتأثر به - وقد سبقه مع اختلاف فى الموضوع والجو الشعرى ، أبو تمام وقصته مع أحمد بن المعتصم معروفة .

يقول الشابى فى احدى وطنياته :

لست أبكى لعسف ليل طويل ،	أو لربع غدا العفاء مراحه
انما عبرتى لخطب ثقيل ،	قد عرانا ، ولم نجد من أزاحه
كلما قام فى البلاد خطيب ،	موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهى بالعسف ،	أماتوا صداحه ونواحه (١)

ترى هل وصف الصوت « بالالهى » هنا يدخل أيضا فى باب استهتاره بالدين ؟

ان الخطيب الموصوف فرض شعرى لا انسان معروف بذاته .. ومن ولع الشاعر بوطنه يرى صوت المصلحين وكأنه صوت من السماء .. اذن أوصافه المنسوبة الى الله أقرب الى العقل أن تكون من شدة حبه للمشبه .. ومن شدة تعظيمه للمشبه به .

ان العمر - أقصد عمر الناقد أيضا - أغلى وأضيق معا من تبديده فى تصيد حرفية لفظ هنا أو هناك ... وحرام فى شرعة الدين ، وفى شرعة الوطنية ، وفى شرعة القومية العربية العامة ، أن نشوه أصوات المقاومة فى نواحى الوطن العربى ، باحداث لغط قصاراه أن يشوش ... ولكن هيهات أن يحول دون نفاذها الى القلوب ... والى التاريخ ... تاريخ المقاومة الشعبية فى أفريقيا ...

ماذا على الشابى ، حتى يكون موقفه فيما يتعلق بالدين فى أشكاله المختلفة ، واضحا لا يحتاج الى تعليق كما يقول الناقد ؟ الا انه قال :

ملىء الدهر بالخداع ، فكم قد ضلل الناس من امام وقس !

وهل نقده للامام والقس ، معناه نقد للاسلام والمسيحية ؟ ان الأديان كلها يا صديقى صفاء وسلام وخير ومحبة ، ولكن معتنقيها أو

(١) الديوان - قصيدة « تونس الجميلة » ص ١٣ .

بعضهم على الأقل شيء آخر ... أو ماذا في رأيك ؟ هل جميع المسلمين والمسيحيين كما شاء الاسلام والمسيحية لهم أن يكونوا ؟ .. اقرأ في وجهك كلمة (لا) ... اذن فما العجب في بيت الشابي ؟ ماذا يريبك من المسكين حتى (تبدى) عينك في شعره (المساويا) ؟ ...

على أنه مما يهون النقد أن صاحبه لا يستقر على رأى بعينه ، فكم ناقض نفسه في أكثر من موضع وموضوع ... فهو بعد أن رمى الشابي مثلا بالزندقة من وراء ستار القدماء ، راح يقول :

(ان الشابي وان كان قد أدار ظهره للدين ، لم يكفر بالله ولم يكن زنديقا ، بل ظل له شيء من الايمان « بالعظيم المجهول » .

ان من أصغى الى صوت المنون
وصدى الأجداث
وابتسامات الحياة الساخره
– بين أزهار الربيع الساحره
ليس تستهويه ألحان الطيور
عن جلال الله

أما في المقطعين التاليين ، فنرى أن الشابي نفسه ، قد تحلل من مدلول الألفاظ الديني تحللا تاما ، ورفع المحبوب الى مكان الألوهية ، أو أنزل الله الى درك المحبوب المادى) (١) .

اذن كفر أو تزندق على الأقل ، وهذا مما نفيته عنه منذ قليل .... مسكين الشابي اذ قال :

في فؤادى الرحيب معبد للجمال
شيدته الحياء بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاه في خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

هل تفهم من أبيات الشابي هذه ما فهمه الناقد ؟ حتى ولو تعنت وحملت الألفاظ أكثر من مدلولها ؟ لا أخالك تفعل ... وليس بضائرك أن تعلن عجزك التام عن اصطناع طريقة الناقد ذات الأغوار ...

(وأشد ايغالا في التحلل من ذلك ، ما نجده في قصيدته « صلوات في هيكل الحب » قال يخاطب محبوبته ، ويقيمها مقام الألوهية ، في

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروخ ص ١٧٢ .

القدس والعبادة ، وفى القدرة والارادة ، وفى الشفاعة والزلفى) (١) .

أنت أنشودة الأناشيد غنـــا ك اله الغنـــاء ، رب القصـــيده
أنت ، قدسى ، ومعبدى ، وصباحى وربيعى ، ونشوتى ، وخلـــودى
يا ابنة النور ، اننى أنا وحـدى من رأى فيك روعـــة المعبـــود
فدعينى أعيش فى ظلك العــذ ب ، وفى قرب حسنك المعبـــود
عيشة الناسك البتول ، يناجى ال رب فى نشوة الذهول الشـــديد
وامنحينى السلام والفرح الرو حى ، يا ضوء فجـــرى المنشود
وارحمينى فقد تهدمت فى كــو ن من اليـــأس ، والظلام مشيد
فحـــرام عليـــك أن تســـحقى آ مال نفس ، تصبو لعيش رغيـــد
منك ترجو سعادة لم تجدهـــا فى حياة الورى وسحر الوجـود
فالاله العظيم لا يرجم العبـد اذا كان فى جلال الســـجود

***

كلنا نعبد الجمال أيها السيد ... ومن أين أتيت بالقدرة والارادة ، وسائر الصفات الالهية ، التى تزعم أن الشاعر خلعها على حبيبه ؟ أتراك شممت هذا كله فى مثل (امنحينى السلام ... ارحمينى ...) ألا يردد شعراء الغزل مثل هذا وأكثر منه ؟ ودعك من الشعراء . أليس كل انسان له قدرة وقدرات وارادة والا ففيم حسابه اذا كان مسلوب القدرة والارادة ؟ .. وهل قدرة الحبيب على الاسعاد ، تعنى أنه اله أو شبيه .. ؟ تعنى أن قدرته كتلك التى ندين بها لله الذى لا يعرف لقدرته أو رحمته أو علمه حدود أو نهايات ؟ أحسب أن الناقد لا الشاعر هو الذى أساء الى الله حين أنزله هذا المنزل ، أو استحضره فى هذا المقام ...

ان النقد اذا كان تبصيرا أو هداية فما أحرانا أن نقول للسيد الناقد (ياهادى الطريق جرت) ... وما أقلها بعد الذى قال ...

***

سأل الأستاذ الحليوى الشابى ، فى احدى رسائله رأيه فى بيت قاله :

حـاملا كالالـه قلبـا كبيرا فيه ما فى الوجود من أكوان (٢)

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ عمر فروخ ص ١٧٢ .
(٢) مجلة الفكر ـ السنة ٢ العدد ١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ص ٣٠

فجاءه جواب الشابي في هذه السطور :

(ان الفنان يا صديقي ، لا ينبغي أن يصغي لغير ذلك الصوت القوي العميق الداوي في أعماق قلبه .. أما اذا أصغى الى الناس وما يقولون ، وسار في هاته الدنيا بأقدامهم ، ورآها بأبصارهم ، وأصغى اليها بآذانهم ، فقد كفر بالفن ، وخان رسالة الحياة ...

ولو شئت أن أسوق الأبيات التي لي ، على غرار بيتك هنا ، في التشبيه بالاله والآلهة لأكثرت ، وخرج بي القلم عن غايته ، ولكنك سترى ذلك في الديوان ان شاء الله : « وانني لأعمق ايمانا بالله من كل أحد حينما أعبر بهاته التعابير الكافرة ، في نظر أولئك الناس . فالألوهية وما تعرف منها هي رمز للمثل العليا ، التي نصبو اليها بأرواحنا ونشخص اليها بأبصارنا في هاته الحياة . ولذلك فاذا أردنا أن نعبر عن معنى نحس له بجلال المثل الأعلى وسموه فانما سبيلنا في ذلك أن تفرغ عليه رداء الألوهية التي هي أسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الأعلى وجلاله) (١) .

الحياة ... الموت ... كلاهما جنى على الشابي ، فلا الحياة مدت له من اسبابها .. ولا الموت تباطأ وأمهله ، حتى يقضي وطرا .. أو لعلهما أحسنا اليه فلولا أن ألهبته الحياة بأشواقها ووخزته بأشواكها ولولا أن نازله الموت مرتين ظافرا من المعركتين بأبيه وحبيبه .. ثم ظل يطارده في الشعور وفي الخيال ... لولا هذا كله فيما يبدو ، لما عزف نايه ، وبكى وتره ، وضم ديوانه هذه الأنغام التي نعيش في جوها وصداها الى يومنا هذا ... ليته يدرى أننا الى اليوم نعيش في ذكراه ...

---

(١) نفس العدد ص ١١ ـ ١٢ .

القسم الثانى

فن الشاعر

أنت ياشعر ، فلذة من فـــؤادى ... تتغنى ، وقطعـــــة من وجـودى
فيـك ما في جوانحي من حنـين ... أبدى الى صميم الوجـود
فيك ما فى خواطرى من بكـاء ... فيك ما فى عواطفى من نشـــيد
فيك ما في مشـاعرى من وجـوم ... لا يغنى ، ومـن سرور عهيـــد
فيك ما فى عوالمى من ظــــلام ... سرمدى ، ومن صـباح وليـد
فيك ما فى عوالمى من نجــوم ... ضاحكات خلف الغمام الشرود
فيك ما فى عوالمى من ضـبـاب ... وسراب ، ويقظـــة ، وهجــود
فيك ما فى طفولتى من سـلام ، ... وابتســام ، وغبطـــة ، وسعود
فيك ما فى شبيبتى من حنين ، ... وشجون ، وبهجة ، وجمود (١)

نحن الساعة أمام ديوان فيه : حنين ، وبكاء ، ونشيد ، ووجوم ، وسرور ؛ وظلام ؛ ونور ؛ ونجوم ، وضـباب ، وسراب ، ويقظـــة ، وهجود ، وسلام ، وابتسام وشجون ، وبهجة ، وجمود ٠٠٠ ديـوان حافل لا شك ٠ وهو خليق باحتفال ؛ لأنه فلذة من فؤاد صاحبه ٠٠ قطعة من وجود انسان ٠٠ لا مجرد ألفاظ وقواف قــد تطـرب أذنك بالرنين ، ولكنها لا تتجاوز الأذن الى ما بعدها ، فهى لا تملك قوة الخلق ، ولا شعلة الروح ، التى تهبها القدرة على اسعادك وتجديدك والتحليق بك ٠٠٠٠

كتب الشابى الى صديق يقول :

« الشعر يا صديقى « تصوير وتعبير » تصوير لهذه الحياة التى

---

(١) الديوان قصيدة « قلت للشعر » ص ٨٦ ٠

تمر حواليك: مغنية، ضاحكة ، لاهية ، أو مقطبة، واجمة باكية ، أو وادعة حالمة ، راضية أو مجدفة، ثائرة، ساخطة ، **أو تصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك** ، وتقلبات أفكارك وخلجات نفســـك ورفرفة أحلامك وعواطفك ... **وتعبير عن تلك الصور** أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ماؤه القوة والحياة» (١)

وهو يفهم رسالة الشعر ومهمة الشاعر فهما قويما ، فمقياسه أن ان تنظر فى الشعر (هل هو من ذلك النور الذى يوسع أفق الحياة فى نفسك ويجعلها تحس بتيارات الوجود ، أكثر مما كانت تحس ، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك ، وينسيك وجودك الانسانى لحظة ، لتستغرق فى عالم الجمال المطلق الذى يخلقه الشاعر حواليك ، ويسبغ منه على نفسك) (٢) .

الأستاذ محمد الحبيب شلبي يؤكد لنا أن أبا القاسم الشـــابى (أعظم شاعر لا فى الشمال الافريقى فحسب ، بل فى الشرق العـــربى بأجمعه ، وجميع بلاد الناطقين بالضاد) (٣) .

ومن يقرأ كتاب (كفاح الشابى) للأستاذ أبى القاسم كـــرو ، تأخذ عينه كثرة الأحكام القاطعة الجامعة المانعـــة بأولوية الشـــابى فى الشعر العربى فى أكثر من موضوع واتجاه (٤) .

ويراه صاحب كتاب (الحركة الأدبيـــة والفكرية فى تونس) آية الشعر فى هذا الطور ، وأن منهجه السائر على خطة محددة مدروســـة مرتبطة بنزعته التجديدية العامة ، هـــو كمل مثـــال للمنهج الشعـــرى الجديد (٥) .

وليس هذا من قبيل التعصب الوطنى ، فان مصر أيضا تؤمن على هذا الكلام فيعد الدكتور شوقى ضيف ، الشابى (فلتة من فلتات عصرنا الحديث فى حدة الاحساس وعمقه ودقته) (٦) .

وهو عند الأستاذ خفاجي (.. أحد أولئك الأفذاذ العالميى الروح ،

---

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٤١ .

(٣) مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر فى ١٢/٣١/ص ٣٠

(٤) كتاب « كفاح الشابى » اقرأ الصفحات ٧١ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١١١

(٥) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور ص ٢٧٨ .

(٦) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٠ .

الذين لم يبهروا النقد الموضوعي فحسب من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية ، بل بهروا كذلك مقاييس المثالية الرفيعة من خلقية ووطنية وانسانية ، وكانت معجزتهم في الازدواج بين هذه المزايا وفي الانسجام التام بينها ، وهذا قلما يكون الا للصفوة الموهوبين ...) (١) .

بل يرى أن الشابي (بضربه المثل الأعلى ، صار يحفز النقاد والمجلات الآن الى الاهتمام بأشعار الشرنوبي ، والفيتوري ، وتاج السر ، وأمثالهم) (٢) .

ولكني مع احترامي لهؤلاء النقاد جميعا ، ولغيرهم أيضا ممن يخالفونهم في الرأي ، أرى ديوان الشابي أوقع حكما وأوفى شاهدا

لقد دار الناقدون حول جمال التعبير والتصوير وعمق الاحساس .. فهل قالوا كل ما يمكن أن يقال ؟ ... هذا أحدهم يقول :

(انني لم أقدم كل ما كان يجب أن يقدم من حياة الشابي وجوانب شاعريته ، وانما بذلت جهدي في أن أعطي للقارىء صورة واضحة المعالم ، كاملة الخطوط ، عن حياة الشابي وبيئته ، وجوانب أخرى تتصل بهذين اتصالا وثيقا مرة ، وغير وثيق مرة أخرى ..) (٣) .

على أني لا أعتقد أنني أسعد حظا من الباقين ما دامت آثار الشابي جميعا لم تتواجد عندي ... ان للشابي عدا ديوانه (أغاني الحياة) كتابين :

(الخيال الشعري عند العرب) (٤) و (صفحات دامية) .

ومن الروايات :

المقبرة .

ومن القصص :

١ ـ جميل وبثينة .

٢ ـ قصة (روح ثائرة) .

ومن المسرحيات :

السكير .

ورسائل (٥) .

(١ ، ٢) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجي ص ١٦٧ ، ص ١٦٩ .

(٣) كتاب « الشابي » للأستاذ أبي القاسم كرو ص ٧ .

(٤) أقرأ كتاب « الحركة الأدبية والفكرية في تونس » ص ١٧٠ .

(٥) وهي مجموعة رسائله الى أصدقائه أبي شادي ، والحليوي ، وابراهيم ناجي وغيرهم . زاخرة بآرائه في الأدب والحياة .. مبعثرة على قيمتها لم تجمع أبدا .

ومذكرات (١) ومحاضرات (٢) ومقالات ودراسات (٣) ٠

فأنى لي هذا كله لأكتب عنه كتابا جامعا ماوسعني الجهد ؟

وأكثر هذه المؤلفات مجهول مصيرها اليوم ٠ كما أن بعض الأدباء التونسيين المعاصرين للفقيد يعتقدون بوجود آثار أدبية أخرى ، غير تلك التي تحدثت عنها ٠ وهم يظنون أنها لا تزال باقية فيما خلفه من تراث أدبي عند أهله وأقاربه (٤)

ولكن رغم الضياع تبقى دلالة هذه المؤلفات ٠٠٠ لابد أن وراءه نفسا ثرة ، خصبة ، بل هي نفس فذة تلك التي تعطي هذا كله في بضعة أعوام ، هي عند غيره اما مجال للتلقي والأخذ ، لا العطاء ، واما مجال للهو والطيش العابث ٠ ولكنها عند الشابي ابن الخمسة والعشرين ربيعا ، جهد مشبوب في اتصال واستمرار وخلق ٠٠٠ ولا عجب أن تحترق الشمعة سريعا ، مادامت ترسل من الضوء فوق طاقة الشموع ٠٠٠

لم يبق أمامنا الا الديوان ، فلنقتصر بحكم هذا الوضع على الدراسة الموضوعية له ٠٠٠

آميز وأنفس ما في هذا الديوان عندي ، شعر الوطنية فيه ٠٠ أسجل هذا الآن فحسب ، لأفرد لخفقات الوطنية هذه فصلا خاصا حفيا فليس أكرم على الأدب وعلينا من تمييز الهدف فيه واسناد القيادة اليه ٠٠ اننا اليوم ننفر وكأن بنا لسع النار ، أن يكون الأدب مسلاة لفرد أو شعب ٠ انه اليوم في صحوتنا الحاضرة كما أردنا له ، وكما يجب أن يكون ، لهيب تتكشف في ضوئه القيم ، وتحترق في ناره الأوهام والزيوف ، ورواسب العصور المظلمة ٠

سأنتقل الى ظاهرة أخرى قبل أن أنسى الديوان كله من أجل شعر الوطنية فيه ، وما حفزني في الحقيقة الى دراسة الديوان غير توهج وطنية صاحبه ، وعرامها ٠٠ وولائها ٠٠٠

---

(١) دون الشابي كثيرا من ذكرياته بعنوان « مذكراتي » وقد نشرت فصول منها في مجلات « العالم الأدبي » و « مكارم الأخلاق » و « الصباح » و « الأسبوع » ٠

(٢) كمحاضرته عن « قصة الهجرة النبوية » ومحاضرته عن « الأدب العربي في العصر الحاضر » ٠

(٣) كدراسته « شعراء المغرب » التي أعدها للمحاضرة في النادي الأدبي ولم تشأ الظروف أن يلقيها ٠٠ اقرأ عن مؤلفات الشابي وآثاره في كتاب (أبو القاسم الشابي) للأستاذ زين العابدين السنوسي ص ٦٥ – ٦٧ ٠

(٤) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ٠ اقرأ من ص ٩٨ – ١٠٥ ٠

والظاهرة الأخرى التي تستوقف العين والبحث هي الغناء بالطبيعة غناء فرحا مبهورا ، ظل الأدب العربي يفتقده طويلا ...

وظاهرة ثالثة هي غناء أيضا ، ولكنه هذه المرة من القلب واليه وله ... لا أريد أن أسمي هذا اللون من الغناء شعر الغزل . فطالما حفل قصيدنا في كل عصوره بالغزل ألوانا وفنونا ، ولكن ما رقرقه الشابي ليس غزلا وانما هو ... صلوات في هيكل الحب ...

ألا ترون معي ، أن نفرد لكل من الظاهرتين الغنائيتين فصلا خاصا ، يعنى بها ؟ .. وحتى لا تلهينا الظاهرتان بغناهما عن الجوانب الفنية في الديوان ..

كان الشابي وصافا مفتونا .. عنده عيون فيها نجل وسحر ورؤى .. فيها ملائك من الملأ الأعلى ، وصبايا رواقص ، وعذارى فتون ، وجنة ونار ، وخمر نشوة ، وجنون ...

أي دنيا مسحورة ، أي رؤيا طالعتني في ضوء هذي العيون
زمر من ملائك الملأ الأعلى يغنون في حنو حنون
وصبايا رواقص ، يتراشقن بزهر التفاح والياسمين
في فضاء مورد حالم ، ساه أطافت به عذارى الفنون
وجحيم تؤج تحت فراديس كأحلام شاعر مجنون
أي خمر متأجج ولهيب مسكر أي نشوة وجنون (١)

وشفاه :

وردتها الحياة في لهب السحر ، ونور الهوى ، وظل الشجون (٢)

وهو مصور صناع ... ومن أفانينه : صورة رائقة للطفولة في حلاوتها ، وطهارتها ، وخبثها ، ووداعتها ، وعبثها ؛ ومرحها ؛ وتوثبها ؛ وتشوقها وفضولها ، وبنائها وهدمها ، وابتكارها وتقليدها ، واقبالها وعزوفها ، ورضاها ونفورها ، وسلاستها وشموسها ، وانطلاقها وضحكها ، وغناها ورقصها ، وبراءتها وخلوها ، وخيالاتها وأوهامها ، وغرورها الحلو واعتدادها ، ودلالها المعشوق ونعيمها ، وأمرها المرهوف ونهيها ، وأمانيها الطفلة وتحقيقها .... صورة رائقة للطفولة ، مع العصفور في المرج ، والموج على صدر الشاطيء ، والغناء في الجدول ، والصفاء في الغدير ، والنحل في أحواض الزهر ، والفراش في الروض والسنابل في الحقل ، والريح في الخلاء ، والصدى في الفضاء ، والشاة

(١ ، ٢) الديوان ـ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

في المرعى ، والقطة في الفراش .. صورة رائقة للطفولة التي تهفو بجناحين ...

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة المرج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيام لم تعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الأنيق وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة ، تحت أعشاش الطيور
مسقوفة بالورد ، والأعشاب ، والورق النضير
نبنى ، فتهدمها الرياح ، فلا نضج ولا نثور
ونعود نضحك للمروج ، وللزنابق ، والغدير(١)

وفي معرض الغناء بالطفولة يحضرنا رأى للأستاذ خليفة محمد التليسي ، لا يخلو من طرافة ، فهو يذهب في تفسير غنائه بالطفولة مذاهب شتى ...

(فليست الطفولة غريبة عن حياة العباقرة الأعلام . فهم يعيشون بروح الأطفال) (٢) .

***

هذا وجه .. ووجه آخر أن الشابي :

(حين أعياه الاصلاح ، وأوهنت قواه عوامل الشر والفساد ، التفت الى طفولته باحثا عن جنته الضائعة ، فقد أيقن أن حصاده من حقول العالم الرحيب الخطير لم يزد على غير الندامة ، والأسى واليأس ، والدمع الغزير ... التفت اليها يبكى أصائلها الذهبية وأسحارها الفضية وعيشها البرىء) (٣) .

ويفسر الناقد سر غناء الشاعر بالطفولة ، الى ايمانه الراسخ بجدة الحياة ، ولما كانت الطفولة مظهرا باذخا من مظاهر هذه الجدة ، فقد تعلق بها الشابي في حب وفرحة صداحة مسعدة ...

(١) الديوان ـ قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .
(٢) « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٧٠ .
(٣) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٧٣ .

ثم راح يعدد مظاهر غناء الشـــاعر بالطبيعة ·· فرأى أنه تغنى بطفـولة الطبيعة فى ربيعها ·· زمن الحب والبحث والتجديد ، وطفولة اليوم ·· فجره وصباحه ·· وما أكثر ما نقرأ من تمجيد للفجر القدسى ، وللصباح الجديد ·

والناقد يعدد مظاهر غنائه بالطفولة في شاعرية فذة لا تنطبق على الحقيقة كل الانطباق ، ولكنها ليست مقطوعة الصلة بها ·· فعنده أن غناء الشابى للطبيعة فى ربيعها سره أن الربيع زمن الحب والبحث والتجديد وغناءه بالفجر والصباح ، سره أنهما يمثلان طفولة اليوم ، وهو كما ترى تخريج بادى الجهد يحمد للناقد من غناء ، حتى ولو لم يخطر للشاعر على بال ·· يقول الناقد (وفاتنته التى أوحت اليه صلواته فى هيكل الحب لم يجد ما يتقرب به اليها سوى أن يخلع عليها من صفات الطفولـــة ما يجعلها محببة لكل قلب ···

عـــذبة أنت كالطفولة ، كالأحـلام ، كالصـــباح الجـديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء، كالورد، كابتسام الوليد (١)

ان الطفولة هنا معنى واحد فى موكب حافل من المعانى وجدهـا الشاعر فى خصوبة نفس وترف خيال ·· وأى معان ؟ الأحـــلام ··· اللحن ·· السماء الضحوك ·· الليلة القمراء ·· كلها شبت عن الطوق ، بل أمعنت فى الشموخ والارتفاع ، حتى تجاوزت الأرض الى السماء ···

ولكن طفولته بعد هذا سعيدة على أى حال ···

وهذه السعادة الغامرة التى سخت بها طفولته انداحت مع الأيام ·· كما (يغنى النشيد الحلو فى صمت الأثير) فهو لا يكتفى مثلنا بذكر عهد الطفولة ؛ بل يتحسر عليه :

أواه ، قد ضـاعت على ســـعادة القلب الغرير
وبقيت فى وادى الزمان الجهم أدأب فى المسير
وأدوس أشـــواك الحياة بقلبى الدامى الكســير
وأرى الأباطيــــل الكثيرة ، والمآثـم ، والشرور
وتصـــادم الأهــواء بالأهــواء فى كل الأمــور
ومذلة الحق الضعيف ، وعزة الظـــلم القدير
وأرى ابن آدم سائرا ، فى رحلة العمر القصير (٢)

---

(١) المرجع السابق ·

(٢) « أغانى الحياة » قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٤٧ ــ ١٤٩ ·

الأباطيل ـ المآثم ـ الشرور ـ تصادم الأهواء ـ صراع الحق والظلم، كلها صفات لواقع مادى محسوس ، فهو لم يبالغ ولم يتزيد ، ولكنها جانب واحد من الحياة يمكن المرء أن يعبره ، الى آخر زاه مشرق ٠٠ ولا نعيب على الشاعر أن صوره ، بل العيب ألا يفعل بوصفه شاعرا يصوغ الحياة فى شعره ٠٠ الحياة كلها من جميع نواحيها ٠٠ ولكنا نشفق عليه أن طال اللبث عندها والوقف ٠

ومن صوره الجفون التى تبسم ، أو تحلم بالنور ٠٠ بالهوى ٠٠ بالنشيد :

قد رأينا الشعور منسدلات   كللت حسنها صباح الورود
ورأينا الجفون تبسم٠٠ أو تحلم   بالنور ، بالهوى ، بالنشيد(١)

ويلاحظ الأستاذ عبد المنعم خفاجى تلاحق الصور عنده تلاحقا فنيا سريعا فريدا (٢) ويرى الأستاذ محمد خليفة التليسى أن :

(٠٠ صفة الفن بارزة فى جميع ما تناوله هذا الشاعر ، فقد كان يستخدم فى شعره مرقم الموسيقى وريشة الرسام وتعبير الشاعر الفحل٠ ولا يعسر على المرء أن يستخرج من هذا الشعر الرائع صورا فنية فاتنة ، عمل الخيال فى تلوينها ، وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من حاسة ٠ وتستطيع أن تحس بذلك فى استعاراته وتشابيهه التى تعرض على القارىء فى جملة قصيرة لوحة باذخة تنسجم فيها الأضواء والظلال) (٣) ٠

(وهو يستعين فى ذلك ٠ بقدرة خارقة على الايحاء والتأثير على القارىء ، بحيث يضع أمام بصره فى تعبير بسيط صورة لا نهاية لروعتها ، وأسلوبه تصويرى تتعانق فيه الصور ، وتتلاحق فى موكب فخم ، وهو مسرف فى نثر هذه الصور ، ولكنه الاسراف الذى يدل على الوفر والغنى، ولا يدل على الجهد والعناء)(٤) ٠

كما يرى أن التجسيم أو التشخيص احدى الملكات التى يتمتع بها الشابى ، وتساعده على ابراز معانيه والتعبير عما فى نفسه (٥) ٠

---

(١) الديوان قصيدة « الجمال المنشود » ص ١٠٩ ٠
(٢) اقرأ كتاب « مذاهب الأدب » ص ١٦٧ ٠
(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ محمد خليفة التليسى ص ١١٦ ٠
(٤) المصدر السابق ص ١١٨ ٠
(٥) المصدر السابق ص ١١٨ ٠

ويقرنه السيد محجوب بن خليفة بن ميلاد بالشاعر الانجليزى كيتس (فمن افتتان بالجمال واحد ، الى تطلع الى دنيا أسحر وأهدأ متشابه ، الى آلام متماثلة ، الى فن وخيال أخوين • كلاهما كرع من ديمومة الجمال ، وترجم عن أشواقه فى قصائد خالدة ، منعمة بصور شعرية عجيبة ، وكلاهما صنع الآلام التى تصده عن التمرغ فى أحضان الجمال ، وأنشأ لنفسه دنياه المنشودة ، وعاش فيها حياة شعور واحساس نابذا العقل وأهواءه ، ان وجد دنيانا قاسية ضالة ! • فان صاح جون كيتس : « لايوجد فى العالم سوى حقيقة واحدة ! الجمال ! أما الفلسفة فهى محض ضلال • اذ لكل مذهب مضاد له على خط مستقيم ! فمن لى بحياة احساس وشعور ! من لى ! •• »

فان صاح كيتس تلك الصيحة قال الشابى :

عش للشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وانها لتجف لو شيدت على التفكير

وأن كتب كيتس « أنديميون » أو قصيدته المهداة « الى البلبل » جاعلا شعاره هذا البيت :

كل أثر جميل غبطة لا تزول

قال الشاعر التونسى نسيبه المشتعل غراما (١) •

والمقارنة هنا ذات موضوع وان تكن لا تعنى (التأثر)

ويقرنه ناقد آخر بلامارتين ويراه (متأثرا به تأثرا ظاهرا ملموسا • وقد كان لامرتين يجعل من الحب موضوعا للتأملات السامية ، والذهول الصوفى ، فالشابى كالشاعر لامرتين يذكر الغابات ، والأنهار ، والجبال ، والأحجار ، والغدو والآصال) (٢) •

والى لامارتين يعزو أيضا نظرة الشابى الى الطبيعة (فقد نظر الى الطبيعة نظرة « الحى الخاشع الى الحى الجليل » متأثرا فى ذلك بلامرتين الذى قرأه قراءة معجب وجعل قصته رفائيل كتابه المختار الذى لا يصبر على مفارقته) (٣) •

ومن الطريف أن يقرنه بلامارتين ، حتى فى ظهور كل منهما فى

---

(١) مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر فى ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٣ •
(٢) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ٧٤
(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٧٨ ــ ٧٩ ــ اقرأ أيضا ص ٩٥ •

لغته فجأة كشاعر تام النضج (١) .. مع ما في هذه الظاهرة من عنصر المصادفة الذي يلمح عرضا في مجال المقارنة والقياس .

ولكن هل شرط محتم أن يكون كل صوت نسمعه في ديارنا صدى لآخر بعيد ؟ ان حدة الاحساس ورهافته ، اذا توفـــر لها نبل الغرض تستطيع أن تجعل الحب (موضوعا للتأملات السامية والذهول الصوفي) ولم لم يقرأ صاحبها (لامارتين) ..

ألم تعجب قصة روفائيل الكثيرين . فلماذا لم يتواجـــد بيننـا (كورس) يغنى بالطبيعة غناء الشابي ، مادام الاعجاب الشديد وحده يكفي للانطباع ؟ .

لست بهذا آنفي بصفة قاطعة ، أن يكون الشابي قد تأثر بلامارتين .. ولست أدافع عن مبدأ التأثر فما بالعيب الذي يستحق الدفاع أن يتأثر فنان بفنان ، ولكن وجوه التأثر التي ذكرها الناقد بالذات لا تحتاج الى التماس الأسباب من تأثر أو احتذاء

***

لا أدرى لعل شبهة التقليد هذه تدخل في هموم الفنان التي تحدث عنها الشابي . سألته صاحبته وقد

راعهـــا منه صمته ووجومه — وشـــجاها شحوبه وسهومه
« أيها الطائر الكئيب تغرد — ان شدو الطيور حلو رخيمه »
« وأجبني . فدتك نفسي . ماذا — أمصاب ؟ أم ذاك أمر ترومه ؟ »
« بل هو الفن واكتئابه ، والفنان — جم أحـــزانه وهمـــومه » (٢)

ولست بهذا — مرة أخرى — أغض من نقد الناقد ، فقد كان يدعوه دائما صديقه عند كل كلام ينقد فيه رأيا من آراء الشـــابي ، وكأنه يلمح طريقة القرآن في الجدل المعارض حين يرســـل الكلام على لسان الأنبياء من أصحاب الدعوة الى أممهم مصبدرا بكلمة « ياقومي » استمالة لقلوبهم .. كلمة آسرة يتفتح على حروفها ما استغلق من النفوس .

وقد يعزو قوم هذا الى صداقة واقعة فعلا بينهما .. صـــداقة كبيرة تستعلن في الرسائل والكتب ، وتحدو بالأســـتاذ الحليوي الى

---

(١) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوي ص ١٣٠ .
(٢) الديوان — قصيدة « الساحرة » ص ١٤٤ .

المبالغة (١) فى تقدير الشاعر ككل محب .. ولكنه مهما كانت الأسباب فهو نقد مصقول على كل حال .

نعود الى الشابى الذى كان يغالى بالفن الجميل ، وينكر على الدنيا فى زأره ، أن تعدله بغيره من مظاهر الحياة والأحياء :

الويل للدنيا التى فى شرعها فأس الطغام كريشة الرسام

والسخرية الملفوفة فى هذا البيت تستعلن تهكما واضحا فى بيت آخر :

وبنو الأرض كالقرود ، وما أضيع عطر الورود بين القرود

حسبه فى هذا الجو أن يرسل ألحانه رضى لضميره وحده :

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء تهدى لرب السرير
حسبى اذا قلت شعرا أن يرتضيه ضميرى (٢)

وهذا الشمم يؤهله فى عين نفسه لارسال الحكمة ، فتسمع منه أحيانا مثل هذا البيت :

اذا طمحت للحياة النفوس فلابد أن يستجيب القدر (٣)

ولكن هذا الشمم نفسه ، العازف عن المدح والرثاء ، فوت حقيقة من الحقائق على ناقد كالأستاذ كرو ، فاعتقد أو شبه له أن الشابى قد امتنع عن قرض الشعر فى الرثاء بعامة (٤) .

وذهب فى هذا الى مدى ، نفى معه رثاء الشاعر لوالده (٥) ، ويرى فى قصيدة (يا موت) فى رثاء أبيه زعما من ناشرها كما (زعم كاتب آخر انها فى رثاء حبيبته) ويقول هو بدوره أن (القصيدة نفسها لا تحدد شخصا معينا ولكنها طافحة بالحزن واليأس والعذاب) (٦) .

ولكن القصيدة مصدرة بتعليق عليها من الشابى نفسه نصه (.. قلتها فى أيام الأسى التى تلت نكبتى بوفاة الوالد ، رحمه الله) .

---

(١) اقرأ فى كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ، ص ٨٥ حول فلسفة الشابى .
(٢) الديوان ـ قصيدة « شعرى » ص ٣٣ .
(٣) الديوان ـ قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٧٠ .
(٤) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٨٥ .
(٥) كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٥١ .
(٦) كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٥١ ـ ٥٢

وإذا جاز أن يحتاج هذا التعليق الى دليل فهذه الأبيات :

ورزأتني ، في عمدتي ، ومشورتي في كل أمر
وهدمت صرحا لا ألوذ بغيره ، وهتكت ستري
ففقدت روحا ، طاهرا ، شهما ، يجيش بكل خير
وفقدت قلبا ، همه أن يستوي في الأفق بدري
وفقدت كفا ، في الحياة يصد عني كل شر
وفقد ركني في الحياة ، ورايتي ، وعماد قصري
وفقدت نفسا ، لاتني عن صون أفراحي وبشري
وفقدت وجها ، لا يعبسه سوى حزني وضري (١)

سمات الأب في عين الابن ·· ألست ترى معي هذا ؟ أما الحبيبة فلها من الصفات التقليدية والخاصة ما يغنيها عن المشورة واللياذ والشهامة والحماية · بل لعل هذه الصفات بالذات لا تتواءم مع الحبيبة مواءمتها مع فارسها الذي تتطلب هي فيه هذه المزايا ·

ولكن الذي زعم أنها في رثاء حبيبته له عذره أيضا ، فقبل الأبيات التي سقتها أبيات أخرى عليها طابع الحب وميسمه ، مثل قول الشابي :

وأعده فجري الجميل ، اذا ادلهم علي دهري
وأعده وردي ، ومزماري ، وكاساتي وخمري
وأعده ، غابي ، ومحرابي ، وأغنيتي ، وفجري ··

ألفاظ رواقص فيها برد الهوى وعبقه وهي أشبه بطبيعة المحبوب وهوى سمعه ·· ومع ما في الورد والمزمار والكاسات والطلا من جمال وبهر ، فهي لا يتوسل بها الى وصف الأب ·· مجرد الوصف بله الرثاء ·· ألفاظ رواقص كما قلت · لا تليق أبداً أن تقرب من محراب الأبوة والبنوة ·· ولا تستطيع ··

ومن هنا يأتي دور الأستاذ كرو في العذر لاعتباره القصيدة (لا تحدد شخصا معينا ، ولكنها طافحة بالحزن واليأس والعذاب) (٢) ·

وعندي أن القصيدة قالها الشابي في رثاء والده غير أنه غلبه شبابه وهواه وولعه المفتون بالحالم من اللفظ ، كالورد والمزمار والكاسات والخمر والغاب والغناء ·· غلبه شبابه وهواه · فتنفست الطاقات الهائلة للحب في صدره من طول احتباسها ·· في غير مجالها ·

(١) الديوان قصيدة « ياموت » ص ٩٥ ـ ٩٦ ·
(٢) كتاب « كفاح الشابي » للأستاذ كرو ص ٥٢ ·

ويعده الأستاذ السحرتي (من أظهر شعراء الرومانتيكية) (١) •

ويراه مع (الزهاوي ، والرصافي ، وأبو شادي ، وعمر أبو ريشة ، ورشيد معلوف ، وجورج صيدح ، وقبلان مكرزل ، وغيرهم • في توزعهم بين الأدب الرومانسي والواقعي ، قد مهدوا مرحلة الانتقال ؛ الى دنيا الواقع والحياة ؛ ونزلوا من أبراجهم الى أرض الأحياء ، وأكثر هؤلاء الشعراء لم ينهجوا نهجا واعيا ، ولم يسيروا على مبادىء مبلورة ، وانما كانت ثورة أغلبهم تفسيرا لتجارب باطنية ، قد تكون عارضة ، الا أن الأدب قد غنم منهم تجارب واقعية جديدة ، أو نفسية موحية مشرقة ، فرأيناهم يبذرون الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويتغنون بالآمال الوطنية ، ولا يكتمـون فرحتهم بالحياة •••) (٢) •

والشابي شاعر ولوع بالنغم يوفره لقصيده • ومن وسائل التنغيم عنده : التكرار •• تكرار مطالع القصائد في الوسط أو الختام كالتسليم الموسيقي في عالم الألحان •• ومن قصائد هذا اللون :

تونس الجميلة (٣)
الكآبة المجهولة (٤)
جدول الحب (٥)

وهناك قصيدة :

أنت يا شعر ، فلذة من فؤادي   تتغنى ، وقطعـــة من وجودي

التي يضيق بها الأستاذ فروخ ، لأن فيها يقول : (ثلاثة وعشرين **بيتا تبدأ هكذا : فيك ما في جوانحي من حنين •• فيك ما في خواطري من** بلاء •••• فيك ما في عوالمي من ظلام •• فيك ما في عوالمي من نجوم •• فيك ما في عوالمي من شـــباب وسراب ويقظة وهجود •• فيك ما في طفولتي ••) (٦) •

يبدو أن الناقد لم يكن في حالة انشراح وهو يقرأ الشابي فهو يتبرم

---

(١) اقرأ ص ٢٣١ من كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث •
(٢) من كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ٢٣٥ •
(٣) الديوان ص ١٣ ـ ١٤ « المطلع هو الختام » •
(٤) الديوان ص ٢٣ ـ ٢٤ « فيها مقطع في الوسط تكرر في الختام » •
(٥) الديوان ص ٥٩ ـ ٧٢ « المطلع تكرر في الوسط »
(٦) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٨

من ظاهرة يولع بها الأدب العربى ويستعين بها ـ كثيرا ـ على التنغيم ٠

على أن ظاهرة التكرار هذه قد تكون محاولة من الشابى لتهدئـــة نفسه المختلجة ، اذا أغلب ما يكون التكرار فى قصائده الحزينة ٠

وفى شعر الشابى تقسيم كقوله :

فأنت ، وقد غمرتهـا الدمـــوع **وقرت** ، وقد فاض منها الحباب (١)

وقوله :

ولعلعة الحق الغضوب لها صـدى ودمدمة الحرب الضروس لها قم (٢)

وهذه الأبيات :

فالدهر **منتعـــل** بالنار ، **ملتحف** بالهول ، والويل ، والأيام تشتعل
والأرض **داميـــة** ، بالاثم **طاميـة** ومارد الشر في أرجائها ثمـل
والموت كالمارد الجبـــار ، منتصب في الأرض يخطف من قد خانه الأجل (٣)

ومن آلاته الموسيقية ، الاتباع :

البسوا روحه قميص اضطهـاد **فاتك شـــائك** يرد جماحه (٤)

ومن الحانه :

قوى ، غلوب ، كسحر الجفون ، شجى ، لعوب ، كزهر حزين
ضحوك ، وقد بللته الدموع ، طروب ، وقد ظللته الشجون (٥)

وهو نابض القوافى والألفاظ والمعانى والموسيقى :

حســـبنا زهرنا الـــذى ننتشى حسبنا كأسنا التى نترشف
ان فى ثغرنا رحيقـا سماويـــا وفى قلبنـا ربيعـا مفـوف (٦)

وله ألفاظ عليها جدة ولها رواء ، من مثل النبات البليل ٠٠

كان فيه النسيم يرقص سكرانــا على الورد ، والنبـات البليل (٧)

---

(١) الديوان ـ قصيدة « السآمة » ص ٤٤ ٠
(٢) الديوان ـ قصيدة « الى الطاغية » ص ٤٣ ٠
(٣) الديوان ـ قصيدة « غرفة من يم » ص ١٧ ٠
(٤) الديوان ـ قصيدة « تونس الجميلة » ص ١٣
(٥) الديوان ـ قصيدة « المساء الحزين » ص ٥٩ ٠
(٦) الديوان ـ قصيدة « ألحانى السكرى » ص ١٦٦
(٧) الديوان قصيدة « ذكرى صباح » ص ١٦٢ ٠

ومن توليداته :

(ويستمنحون مزاميرهم ، فتمنحهم كل لحن عجيب) (١) ٠

ومع هذا يرى ناقد كالأستاذ محمد خليفة التليسي أن : (قوة أسلوب الشابي ليست في ألفاظه رغم براعته في استخدامها ، ورغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقي العبقري ٠ ولكنها في قوة احساسه ٠ انه أسلوب تحسه قبل أن تفهمه ، لأن الروح التي تسري فيه ، تأخذ عليك طريقك وتحاصرك فلا تعرف تحديد موضع القوة فيه) (٢) ٠

ويصور الشاعر الوصاف السعادة فيقول :

ترجو السعادة يا قلبي ولو وجدت — في الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولا استحالت حياة الناس أجمعها — وزلزلت هاته الأكوان والنظم
فما السعادة في الدنيا سوى حلم — ناء ، تضحي له أيامها الأمم
ناجت به الناس أوهام معربدة — لما تغشتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده — كأنما الناس ماناموا ولاحلموا (٣)

وهو رقيق رقة محببة ، مثل خفق الوتر ، على حد تعبيره (٤) ٠

ومن طرائفه في التعبير :

أبداً يحمل الوجود بما فيه — كأن ليس للوجود زعيمه (٥)

أرى في (زعيمه) كناية لطيفة عن « الله » ٠

ومن طرائفه في الصفات : الجيد الثمين ، والطرف الساهي ، والخطو الموقع (٦) ٠

ومن تشبيهاته الذاتية :

سمعتها صرخة مضعضعة
كجدول في مضايق السبل (٧)

---

(١) الديوان قصيدة « المساء الحزين » ٦٠ ٠
(٢) كتاب « الشابي وجبران » ص ١١٤ ٠
(٣) الديوان قصيدة « السعادة » ص ١٥١ ٠
(٤) الديوان — قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٦٨ ٠
(٥) الديوان — قصيدة « الساحرة » ص ١٤٤ ٠
(٦) الديوان — قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧١ ٠
(٧) الديوان — قصيدة « الكآبة المجهولة » ص ٢٢ ٠

صورة جميلة فيها الصوت ودرجته ، واللون ، والحركة ، والانفعال .

*****

ولكن هذا الأسلوب المشرق لا يخلو من هنة هنا وهناك ، فالشاعر الرقيق المتانق أجاز لنفسه أن يقول ، ولا أدرى كيف :

ان للحب على الناس يدا تقصـــــف الأعمـــار (١)

لماذا ؟ ان الحب يطيل الحياة بالعرض ، اذ ينضرها ويخصبها ..

وزلة أخرى فى القصيدة نفسها :

وله فجرا على طـــول المـــدى ساطـــــع الأنـــــوار

اقرأ معى من قصيدته (قلب الأم) (٢) :

كل نسوك ، ولم يعودوا يذكرونك فى الحياة
الا فؤاداً ، ظل يخفق فى الوجود الى لقـــاك
ويود لو بـــذل الحياة الى المنيـــة ، وافتداك
فان رأى طفلا بكاك ،وان رأى شبحا دعاك (٣)

التيار مشدوه ... يذيب على الوصف بله النظر

هو قلب أمك ، أمك **السكرى** بأحـزان الوجـــود

هنا يبدو لنا رأى ... فمع الحزن يعبر عن فقدان الوعى بالذهول ... بالشرود لا بالسكر الذى له ايحاء السرور والخلو ..

وقلب الأم ألهم الشاعر قصيدة طويلة متدافعة العاطفة كالسيل ، متدفقة التعبير كالطوفان .. وقد طال نفسه فيها حتى أرضى .. غير أنه انتهى منها فجأة كمن يقطع حـــديثا اندمجت الأذن فيه ، فقلب الثكلى لا ينسى مهما توالت المظاهر .. مظاهر الاغراء التى عددها الشاعر فى آخر القصيدة وأفاض ، حتى كدنا ننسى الموصوف الأصيل فى الموضوع ، وهو قلب الأم الذى كان السياق يقتضى الشاعر أن يؤكد وفاءه فى الختام كما نوه به أثناء القصيدة . ولست أدرى ان كان هذا يعد من هناته أو من محاسنه كفنان أصيل لا ينطق عن صناعة وتعمل ، بل ينحدر مسيراً باللحظة التى هو فيها .. يمده الهام فتنطلق المعانى من خلاله فاذا ارتفع

(١) الديوان — قصيدة « فى الظلام » ص ١٩ .
(٢) الديوان ص ١٢٩ — ١٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٣١ .

الوحي وتوقف العرض الذى اتخذ من الشاعر مجلاه .. توقف فى أى نقطة ...

ومن لغوياته لفظه (عراص) (١) .

ومن ألفاظه الغريبة هذه القائمة :

الأسكوب (٢) كضت الأيام (٣) الخميس المجر (٤) صمات الغروب(٥) معسبات الحياة (٦) يشجى صماته (٧) .

ويبدو أن الشابي كبير الرضا عن صيغة فعيل وفعول ، فهو يقدم الى رواده هذه الألفاظ وكأنها بعض صحبه :

العهيد (٨) السفيح (٩) الذريف (١٠) ضريح (١١) شطيف (١٢) جفيف (١٣) عنيد (١٤) وهيد (١٥) عسوف (١٦) الفروح (١٧) .

على أنه يكاد ينعقد الاجماع على جمال أسلوب الشابى .. سلم بهذا حتى الذين تعنتوا معه ، فالأستاذ فروخ الذى يسخو فى اطلاق الأحكام المقتضبة من غير شاهد يثبت صواب رأيه أو حتى يسوغه (١٨) .

والذى لا يرى فى شعر الشابى أثراً لثقافة واسعة (١٩) ! ناسيا أو متناسياً أن مهمة الشاعر ليست أن يصنف موسوعات علمية ... وهو بعد يجب أن يستوحي قلبه أولا ، فمن الشعور لا العقل اشتق الشعر .. مثل هذا الناقد على كل حال يرى أن شعر الشابى (كلام جميل) ولو

(١) الديوان ص ٦١
(٢) الديوان ص ٣٧
(٣) « « ٥٠
(٤) « « ٥٢
(٥) « « ٦٠
(٦) « « ٦٠
(٧) « « ٦٧
(٨) « « ٦١
(٩) « « ٦٢
(١٠) « « ٦٢
(١١) « « ٦٢
(١٢) « « ٦٢
(١٣) « « ٦٢
(١٤) « « ٨٦
(١٥) « « ٧٧
(١٦) « « ٦٢
(١٧) « « ٧٧
(١٨) اقرأ ص ١٦٩ من كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروخ .
(١٩) المصدر السابق ص ١٦٩ يقول الناقد : (ليس فى شعر الشابى أثر لثقافة واسعة ان الرجل يتكلم من قلبه لا من عقله) .

أنه عز عليه أن ينصفه لو صح أن (كلام) هذه لا تخلو من تهوين ٠٠٠ فمضى يقول (وشعره كلام جميل أكثر منه كلاما مصيبا ، وفيه موسيقى أكثر مما فيه منطقا متسقا) ٠

وهل ينفصل الصواب عن الجمال ؟ ألا يشنوه الخطـأ الجـمال فى (الكلام) فلا يعد يوصف بأنه جميل ٠٠ ما أحوج النقد الى نقد ٠

لا ضير فان الشابى حظى من الانصاف بالكثير ، أو ذكراه بتعبير أصح ، فلســت متأكدة ان كان يدرى من وراء الحجب الذى ضربت بيننا وبينه بهذا الذى تمنى بعضه في حياته ، فلم يظفر الا بالجحود والنكران وجد الشابى على كل حال من يقول :

(اذا كان الشعر الحى الخالد هو الذى تظهر فيه شخصية صاحبه قوية واضحة ، وتطبعه بطابع خاص ، فشعر الشابى من هذه الناحية من أخلد الشعر وأشده حيوية ٠ فشخصية الشابى تظهر فى شعره بقوة ووضوح فائقين حتى أنك لو وضعت شعره بين مئات من شعر غيره لما خفى عليك ، ولعرفته بهذه اللألاء الباهر المتجلى فى ديباجته المشرقة ، وهذا الخيال الرائع القوى الجبار (١)) ٠

ومن كمال هذه الشخصية عند الأستاذ خليفة محمـد التليسى ، وأبرز مظاهر استقلالها أن : تكون لها نظرة في الحياة تنسجم مع مقوماتها ، وفلسفته ، أو نظرته الى الحياة لا تستقل عن شخصيته ، بل هى موسومة بطابع لا يمكن أن يكون لغيره ، **ولقد بلغ من وضوحه وقوته درجة تستطيع أن تتبينه فى من أثر فيهم الشابى ٠ وليس أيسر من الاحساس بنغماته خلال عدد كبير من قصائد شعراء الشباب (٢)**

وحين يؤرخ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور للحركة الأدبيـة فى تونس يرى أن : اللغة العربية ومناهجها الأدبيـة ، لم تستعص عن محاولاته المرهقة ، بل لانت له كما يلين الصخر لنحت الفنان ، فجاءت قوالب شعره رقيقة صافية محكمة النسج رائقة النظم ، شيقة التعبير ، معتدلة المقاطع ، ثرية من طلاوة الفصاحة ورونق البديع ، بحيث أن أشد الناس انكارا لمذهبه فى تحديد المعانى والأغراض ، لا يقدر أن يغض من

---

(١) الأستاذ محمد الحبيب شلبى ٠ مجلة الامام ــ العدد الخامس ــ السنة ٣٢ الصادر فى ٣٤/١٢/٣١ ص ٣١ ٠

(٢) كتاب « الشابى وجبران » ٩٩ ٠

براعته العجيبة في اتقان الصناعة البلاغية التي هي مقيـــاس الجـــودة المشترك بين المشارب المتباينة (١) ٠

ويلهج الأستاذ كرو بأسلوب الشابي في أكثر من موضع من كتابه (الشابي) فمظهر امتيازه (دقة بالغة في تعبيره ، وبراعة فائقـة في في تصـويره ص ٧٧ ثم يعود في الصفحة التالية ص ٧٨ يرى شاعريته ممثلة في صدقه في التعبير ودقته في التصوير ٠٠ ويبدو أن صديقنـا النـاقد متأثر هنـا بتعريف الشابي للشعر الذي نشره له في ص ١٣٩ (مقال الشعر) ٠٠٠ ومع ما في هذا الوصف من اشارة وتقدير ، فان ايراده على هذه الصورة وبهذا الاصرار الذي يوحي بالقصر ٠٠ فيه غبن لشاعر تعددت ميزاته ومجالاته ٠٠

والشابي شاعر طويل النفس يستبقيك معه فترة ليست بالقصيرة في قصائده : أيها الليل (٢) ، يا شعير (٣) ، في فجاج الآلام (٤) ، جدول الحب بين الأمس واليوم (٥) ٠

نشيد الأسى (٦) ، النبي المجهول (٧) ، صلوات في هيكل الحب (٨)، قلب الأم (٩) ، حـديث المقبرة (١٠) ، الجنـة الضائعة (١١) ، ارادة الحياة (١٢) ، تحت الغصون (١٣) الغاب (١٤) ٠

والديوان تغلب عليه « القافية الواحـــدة » التي نظم منهـا ٥٩ قصيدة (١٥) :

---

(١) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية في تونس » ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ٠
(٢) الديوان ص ٢٥ ــ ٢٨
(٣) الديوان ص ٣٥ ــ ٠١
(٤) الديوان ص ٦٥ ــ ٦٨
(٥) الديوان ص ٦٩ ــ ٧٢
(٦) الديوان ص ٨٣ ــ ٨٥
(٧) الديوان ص ١٠٣ ــ ١٠٥
(٨) الديوان ص ١٢١ ــ ١٢٤
(٩) الديوان ص ١٢٩ ــ ١٣٣
(١٠) الديوان ص ١٣٤ ــ ١٤٠
(١١) الديوان ص ١٤٧ ــ ١٥٠
(١٢) الديوان ص ١٦٧ ــ ١٧٠
(١٣) الديوان ص ١٧١ ــ ١٧٤
(١٤) الديوان ص ١٨٨ ــ ١٩١
(١٥) القصائد :

« تونس الجميلة » ص ١٣ ــ ١٤		« من حديث الشيوخ »	ص ١٤
« خله للموت » ص ١٤		« الحياة »	« ١٥
« غرفة من يم » ص ١٧		« أيها الليل »	« ١٥ ــ ٢٨
« زئير العاصفة » ص ٤٢		« الى الطاغية »	« ٤٣
« السآمة » ص ٤٤		« الحب »	« ٤٥

حين عدد القوافي في ١٥٠ قصيدة (١) . منها قصيدتان عبارة عن مقطوعات ذات روي مستقل ، هما : (نظرة في الحياة) و (شعري) .. ومنها قصيدة هي رباعيات مزدوجة ذات رويين متتابعين (٢) .

= « أيها الحب » ص ٤٥
« المجـــد » ص ٥٢
« الذكرى » ص ٥٣
« قالت الأيام » ص ٥٨
« أغنية الشاعر » ص ٦٤
« صوت تائه » ص ٨١
« قلت للشعر » ص ٨٧
« الى قلبي التائه » ص ٩١
« ياموت » ص ٩٥
« النبي المجهول » ص ١٠٢
شجون » ص ١٠٨
أحلام شاعر » ص ١١٤
« أنا أبكيك للحب » ص ١١٧
« رثاء فجر » ١٢٦
« حديث المقبرة » ١٣٤
« قال قلبي للاله » ١٤٦
« السعادة » ١٥٦
« الأبد الصغير » ١٥٦
« ذكرى صباح » ١٦٢
« ارادة الحياة » ١٦٧
« الناس » ١٧٨
« الاعتراف » ١٨٢
« قلب الشاعر » ١٨٣
« شكوى ضائعة » ١٨٦
« فلسفة الثعبان المقدس » ١٩٢

« الدموع » ٤٦
« سر مع الدهر » ٥٢
« مناجاة عصفور » ٥٥
« بقايا الخريف » ٦٢
« يا رفيقي » ٧٣
« نشيد الأسى » ٨٣
« يا ابن أمي » ٨٨
« اكثرت يا قلبي فماذا تروم » ٩٣ ـ ٩٤
« الى الله » ٩٨
« صفحة من كتاب الدموع » ١٠٦
« الجمال المنشود » ١٠٩
« قيود الأحلام » ١١٥ =
« صلوات في هيكل الحب » ص ١٢١
« فكرة فنان » ١٢٧
« الساحرة » ١١٤
« الجنة الضائعة » ١٤٧
«أيتها الحالمة بين العواصف» ١١٥
« صوت من السماء » ١٥٨
« الرواية الغريبة » ١٦٤
« تحت الغصون » ١٧١
« نشيد الجبار » ١٧٩
« حرم الأمومة » ١٨٢
« الدنيا الميتة » ١٨٤
« الغاب » ١٨٨

(١) القصائد :

« نظرة في الحياة » ص ١٥
« الطفولة » ٥٧
« الى عازف أعمى » ٧٨
« من أغاني الحياة » ١٥٢
« أبناء الشيطان » ١١٩
« الى طغاة العالم » ١٨٥
« الى الشعب » ١٧٥

« شعري » ص ٣٢
« الأشواق التائهة » ١١٢ـ١١٣
« أراك » ١٣٥
« الصباح الجديد » ١٥٩
« زوبعة في ظلام » ١٨١

(٢) قصيدة « الطفولة » ٥٧

ومن تواشيحه : مأتم الحب (١) ، شكوى اليتيم (٢) ، أغاني (٣) .

ونظم الشابي من الرباعيات (الثنائية) سبع قصائد (٤) ، ومن رباعياته المزدوجة غيرها قصيدته (في ظل وادي الموت) (٥) .

ولا يهم هنا الاحصاء الا من حيث دلالته الخاصة بالشاعر ومنحاه نحو التحرر من قيود القافية العربية أو التمسك بها ، ثم دلالته العامة على نزعة الشعر العربي في أمر هذه القافية .. أما فيما عدا هذا فلتؤد الطاقة الشعرية .. الطاقة الفكرية .. الطاقة المعنوية .. في أي صورة من الصور .. شعر مقفى أو مرسل ما دام يزكي قدرتنا على التقدم ، ويزيد ثروتنا من الابداع الأصيل ..

وبالشابي ميل الى التسكين . وتسكين القافية عنده غير قاصر على موشحاته ورباعياته ، بل يتناول قصائده أيضا .

ويقول الأستاذ زين العابدين السنوسي :

" أن أبا القاسم لم يكن يكتب شعره بيتا بيتا . بل كان يخطر له القصيد « خاطرة » واحدة ، ونفحة واحدة ، فاذا غرق في صناعة تلك النفحة ، غرق في نفسه فلا يلتفت لقلم ولا ورق ، وانما اذا أتمه ارتاح لحظة ، حتى اذا استجم نشاطه من جديد ، أخذ الورق والقلم ، وبدأ يستنسخ القصيد أو المقطوع فينقلها الى ورقة عن الأصل الذي انصاغ في قلبه ونقش في ذاكرته) (٦) .

---

(١) الديوان ص ٢٧ .
(٢) الديوان ص ٢٩ .
(٣) الديوان ص ٨٩
(٤) القصائد :
« أنشودة الرعد » ص ١٨ — « في الظلام » ص ١٩
« الزنبقة الذاوية » ص ٣١ — « يا شعر » ص ٣٥ .
« جدول الحب بين الأمس واليوم » ص ٦٩ .
« قلب الأم » ص ١٢٩ .
« الحاني السكرى » ص ١٦٥ .
(٥) الديوان ص ١٤١ .
يعد الأستاذ ابراهيم العريض قصيدة الشابي « في ظل وادي الموت » مثالا من امثلة تنويع القوافي ، بالمناوحة بينها في كل عقد يؤلف من ثلاثة أبيات فاكثر على أشكال في قصيدة ذات عقود متشابهة النغم .
اقرأ كتاب « الشعر وقضيته » للأستاذ ابراهيم العريض ص ٧٨
(٦) مجلة الندوة ــ السنة الأولى العدد ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٣ .

ويؤيد هذا ما جاء في رسالة الشاعر الى صديقه الحليوى من اشارة الى قصيدة (نشيد الجبار) والاشارة تهمنا هنا بقدر كشفها عن طريقته في النظم ودلالة هذه الطريقة عليه ٠٠ اليك قصته :

(٠٠ نمت معذب النفس مهموم القلب ، ثم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فلجت بي الآلام وضربت بي في كل سبيل ، حتى لقد كاد رأسي ينفجر وأحسست أني لا بد مشف على الجنون لو دام بي ذلك الحال الى الصباح ٠ وتطورت نفسي في غمرة الألم فبعد أن كانت معذبة باكية في ظلمة أحزانها ، تكاد تجن من الأسى ، انقلبت ثائرة هائجة ، واثقة من نفسها ، ساخرة بالقدر والداء والأعداء ٠ وكل آلام الحياة ، وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت « نشيد الجبار » فذابت آلام نفسي ، وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما ألقيت عن منكبي عبئا ثقيلا يهد القوى ٠ وقد نظمتها في تلك الليلة ٠ ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها ، وفي نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئنا ، وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت منها كلمة واحدة ، فكتبتها ولم أزد عليها الا نحو بيت أو بيتين ، وبعض تنقيحات رأيتها لا بد منها ٠٠٠) (١) ٠

***

يقولون (ان المرء اذا عظم كثرت أسماؤه) ويبدو أن الشابي يريد أن يعدل قليلا هذا المثل فيستبدل بالأسماء ، الصفات ٠٠ فقد تعددت صفاته فهو :

صاحب مدرسة (٢)
صاحب فلسفة (٣)
صاحب مذهب (٤)
شاعر عبقري (٥)

---

(١) مجلة الفكر — العدد ١ السنة ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ٠
(٢) الأستاذ الحليوى كتاب « مع الشابي » ص ١٠٧ ٠
والأستاذ كرو كتاب « الشابي » ص ٧٢ ٠
(٣) الأستاذ كرو كتاب « الشابي » ص ٨٥ ٠
(٤) الأستاذ كرو كتاب « الشابي » ص ١٠٨ ٠
(٥) الأستاذ السحرتي « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ٣٩ ( )
واقرأ للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي « مذاهب الأدب » ص ١٥٠ — ١٥٣ ٠

شاعر متحلل (١)

من أصحاب المذهب الاجتماعى (٢)

شغل النقاد فى حياته وبعد الحياة ·· اذن لا بد أن نخرج من هذا كله مجتمعا ومتفرقا بأنه كان موجودا ·· وسواء سمى قوم الجذوة المتوهجة النور والاشراق ، أو سموها النار والاحراق فهى جذوة · تتضوأ وبهذا ترتفع على الرماد المعتم المتخلف عن الخلق ، القابع فى سلبية وخمول ·

هذا هو ديوان الشابى الذى رفعه قوم الى سماء الخلـــود ، وحكم عليه أو على بعضه ، آخرون بالاعدام ـ أى والله بالاعدام ! فالأستاذ فروخ ـ مثلا ـ يرى (أن ديوان الشابى لا يجوز أن ينشر كاملا بل يحسن أن تنشر منه مختارات فقط) (٣) ·

هب يا ســيدى أن الديوان به الغث والسمين ، ألا ترى كناقد أن الدراسة العلمية الصحيحة تقتضى تواجد آثار الفنان جميعـــا ـ الغث والسمين ـ للتفسير والاستشفاف ، ولمح التطور عليه وعلى فنه ··

ترى هل من المختارات المرضى عنها ، شعر الشابى فى الطبيعة ، وطنياته ؟ أيا كان الجواب سأتحدث عن هذين اللونين للحقيقة والتاريخ ولكم ··

---

(١) الأستاذ فروخ كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٢ ·
(٢) الأستاذ السحرتى فى كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ١٥ ·
(٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٧٠ ·

يا أيها الشادى ، المغرد ها هنـا ثملا يغبطـة قلـبه المسرور
قبل أزاهـير الربيع ، وغنهـا رنم الصباح الضاحك المحبور
واشرب من النبع الجميل، الملتوى ما بين دوح صنوبر وغـدير
واترك دموع الفجر فى أوراقهـا حتى ترشفها عروس النـور (١)

الا يذكرك هنا بروسو ، الذى كان يتحاشى النمـل فى الحقـول فلا تطؤه ، من الرحمة قدماه ؟

ويبدو الشاعر علائيا فى هذه اللفتة من لفتاته :

يا زهرة سامها العابرون خسفا وهونـا
لو كنت شوكا عضوضا ما داسك العابرونا
لأنهم يجهلون الوحى الذى تضمرينـا

هم يسخرون بهمس الزهور ، وهو بديـع
وينصتون لصوت الأشواك ، وهو مريـع
فلا تبـالى بقـوم الحق فيهم صريع (٢)

ان زهرة الصديق ، لتذكرنا بفرخ أبى العلاء الذى وصفه له الطبيب فسخر من الحياة وطبها ، فى هذه الزفـرة المأثورة عنه (استضعفوك فوصفوك فهلا وصفوا شبل الأسد ؟) .

يا زهـرة سامها العابرون خسفا وهـونا
لو كنت شوكا عضوضا ما داسك العابرونا

(١) الديوان ـ قصيدة « مناجاة عصفور » ص ٥٦ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « فى فجاج الآلام » ص ٦٨ .

ان الرجلين يتلاقيان ... فى تقديرى على الأقل ..

وهو مفتوح الحس والهوى والفؤاد للطبيعة :

وافتح فؤادك للوجود ، وخلـــه — لليم للأمــواج ، للديجــور
للثلـج تنثره الزوابــع ، للأسى — للهــول ، للآلام ، للمقــدور
واتركه يقتحم العواصف ، هائمـا — فى أفقهـــا ، المتلبد ، المقـرور
ويخوض أحشاء الوجود ، مغامرا — فى ليلهـا ، المتهيب ، المحـذور
حتى تعانقــه الحياة ، ويرتــوى — من ثغرها المتأجج ، المسجــور
فتعيش فى الدنيا بقلب زاخـــر — يقظ المشاعر ، حالم ، مسحـور
فى نشوة صوفية ، قدسيـــة ، — هى خير ما فى العالم المنظور (١)

ان الشاعر هنا يعيش فى لحظة مضيئة زاخرة تجيش فيها عاطفته ، وتتدافع حتى لا يملك معها وقتا يختار فيه لفظه ، ثم يجرفه تيارهـا العاتى الى مثل هذا التعبير (يخوض أحشاء) .. صورة بشعة فيها فتك وضراوة ، ويزيد فى وقعها على النفس صدورها عن شاعر رقيق حالم مخملى الأسلوب .. ويزيد فى وقعها على النفس ، ورودها فى موضوع محلق .. فطالما تمنيت على الأدب العربى وله ، أن يتحد بالطبيعة ويفيضها الروح والحرارة فتتحرك وتحس .. ويتجاوبان ..

وفى حضن الطبيعة ملاعبه ، يغنى مع النسيم تارة ، ويصغى تارة أخرى الى قلب الطبيعة المتغنى :

نحن نلهو تحت الظلال ، كطفلين — سعيدين ، فى غرور الطفولـــه
وعلى الصخرة الجميلـة فى الوادى — وبين المخـــاوف المجهــــوله

نحن نغـــدو بين المروج ونمسى — ونغنى مــع النســيم المغنى
ونناجى روح الطبيعة فى الكـــون — ونصغى لقلبهـــا المتغنى (٢)

ويناجيها فى حب رؤوم :

يهجـع الـكون فى طمـأنينة العصـفور ، طفلا ، بصدرك الغربيب (٣)

وبأحضانك الرحيمة يستيقظ فى — نضرة الضحــوك ، الطروب
شاديا ، كالطيور بالأمـل العـذ — ب ، جميلا ، كبهجة الشـؤبوب

نفس تنتفض نشوة على وقع قطرات المطر :

---

(١) الديوان ــ قصيدة « فكرة الفنان » ص ١٢٨ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « الحانى السكرى » ص ١٦٥
(٣) الديوان ــ قصيدة « أيها الليل » ص ٢٥ ــ ٢٦ .

ياظلام الحياة ! ياروعة الحـــزن ! ويامعــزف التعيس الغريب

يا روعة الحزن ·· نفس هفافة ·· كل شيء يروعها حتى الحزن ··

يا ظلام الحياة ! ان الغناء المنهل في أول القصيدة ، ليس الا تغطية ما لبثت أن تخلت عنه عند بيته :

يا ظلام الحياة ! يا روعة الحـــزن ! ويا معزف التعيس الغريب

واذ أفلت الزمام من يده انطلق على سجيته الحقيقية :

صاح ان الحياة أنشودة الحـــزن ، فرتل على الحيـــاة نحيبى
ان كأس الحياة مترعـة بالدمـــع ، فاسكب على الصباح حبيبى
ان وادى الظـــلام يطفح بالهـــول ، فما أبعد ابتسام القـــلوب
لا يغرنـــك ابتســـام بنى الأرض ، فخلف الشعاع لذع اللهيب
أنت تـــدرى ان الحياة قطـــوب وخطوب ، فما حياة القطوب ؟
ان فى غيبة الليالى تبـــاعا لخطيبا يمر اثر خطـــوب

حقا لا يغرنك ابتسام بنى الأرض ، فخلف الشعاع لذع اللهيب ·

ولكن ليس معنى هـــذا أن يستسلم لتشـــاؤم لا يرى فى الحياة اشراقا ، أو صفوا حتى ليقول :

ماسكوت السماء الا نجـــوم مانشيد الصباح غـــير نحيب
ليس فى الدهر طائر يتغنى فى ضفاف الحياة غير كئيب
خضب الاكتئاب أجنحة الأيـــام ، بالدمع والـــدم الأسكـــوب
وعجيب أن يفرح الناس فى كهف الليالى بحزنها المشـــبوب !

وهيهات أن تزحزحه عن هذا الرأى ·· فى هذه القصيدة على الأقل ·

لا تحاول أن تنكر الشـــجو ، انى قد خبرت الحيـــاة خبر لبيب
فتبرمت بالسكينة والضجة ، بـــل قـــد كرهت فيها نصيبى
انه ضـــيق بـــكل شيء ·· لم ؟ أى شيء يسر نفس الأريب .
أنفوس تموت ، شاخصـــة بالهـــول ، فى ظلمة القنـــوط العصيب ؟
أم قلوب محطمات على ساحل لج الأسى ، بمـــوج الخطـــوب ؟

انما الناس فى الحيـــاة طيـــور قد رماهـــا القضـــا بواد رهيب
يعصف الهول فى جوانبه الســـود فيقضى على صدى العندليب (١)

---

(١) الديوان ــ قصيدة « أيها الليل » ص ٢٧ ·

ولكن هذا الألم لا ينسيه الطبيعة .. أبدا .. انه يزيده منها قربا ، ويزيده بها تعلقا . بل اتحادا .. امتزاجا .. تجاوبا ..

مـالى تعـذبنى الحيـاة كأننى خلق غريب ؟
يا مهجـة الغاب الجميـل ألم يصـدعك النحيب ؟
يا وجنـة الورد الأنيـق ألم تشوهـك النـدوب ؟
ياغيمـة الأفـق الخضيب ألم تمزقـك الخـطوب ؟
يا جدول الوادى الطـروب ألم يرنقـك القطـوب ؟
يا كوكب الشفق الضحـوك أما ألم بك الشحوب ؟ (١)

..... **ومن حديثه مع « الزنبقة الذاوية » :**

وان جرفتنى أكف المنون الى اللحـد ، أو سـحقتك الخطوب
فحزنى وحزنـك لا يبرحـان أليفين رغم الزمـام العصيب

وتحت رواق الظـلام الكئيب اذا شمل الكون روح السحـر
سيسمع صوت ، كلحن شجى تطاير من خفقـات الوتـر

يردده حـزننا فى سـكون على قبرنا ، الصامت المطمئن
فنرقد تحت التراب الأصـم جميعا على نغمات الحـزن (٢)

واشهى الغناء عنده ما كان :

« للضياء البنفسجى الحـزين »
« للضـباب المورد ، المتـلاشى كخيالات حـالم ، مفتـون »
« للمسـاء المطل للشفق الساجى لسحر الأسى ، وسحر السكون »
« للعبير الذى يرفرف فى الأفق ويفنى ، مثل المنى ، فى سكون »
« للأغانى التى يرددهـا الراعى بمزمـاره الصـغير ، الأمين »
« للربيع الذى يؤجج فى الدنيـا حيـاة الهـوى ، وروح الحنين »
« ويوشى الوجود بالسحر والأحلام والزهر ، والشذى ، واللحون »(٣)

وهـو مفتون بالطبيعة ... ضباب الصباح .. وسحر المساء ... وضوء القمر ... والنور ... والظل ... والنبع ــ والمرج .. والزهر والطير .. والنسيم والمطر .. **حتى الظلام يأسره فيهتف :**

« آه ! ما أجمل الظلام ! وأقوى وحيه فى فـؤادى المفتـون ! »

(١) الديوان ــ قصيدة « نشيد الأسى » ص ٧٣ ــ ٧٤ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « الزنبقة الذاوية » ص ٣٢ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧١ .

« أنظرى الليل فهو فى حلة الأحلام يمشى على الذرى والحزون »
« واسمعى الغاب، فهو قيثارة الكون تغنى لحبنا الميمون »
« ان سحر الضباب، والليل، والغاب بعيد المدى ، قوى الفتون »
« وجمال الظلام يعبق بالأحلام والحب .. فابسمى والثمينى (١) »

انها الطبيعة لا تغيب عنه فى غضبه ورضاه ، فهى مجلى وصفه مهما اختلف الموضوع ، حتى فى ثورته على قومه النيام (٢) ..

حتى صرخاته للحرية والكرامة يستوحيها من .. الكائنات .. من روحها المستتر .. من الوجود حوله .. من الطبيعة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر فى جوها ، واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لى الكائنات وحدثنى روحها المستتر (٣)

فالريح تدمدم :

« اذا ما طمحت الى غاية ركبت المنى ، ونسيت الحذر »
« ولم أتجنب وعور الشعاب ولا كبة اللهب المستعر »
« ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر » (٤)

والأرض تقول :

« أبارك فى الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر »
« وألعن من لا يماشى الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر »
« هو الكون حى ، يحب الحياة ويحتقر الميت ، مهما كبر »
« فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر »
« ولولا أمومة قلبى الرءوم لما ضمت الميت تلك الحفر »
« فويل لمن تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر (٥) »

ولما كان معنى النفس بآلامه وآلام شعبه معا .. شعبه الذى يصرخ فيه فتضيع صرخته فى الفضاء ، أو هكذا يخيل اليه ، فهو يريد أن يتناسى

(١) الديوان ـ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٤ .
(٢) ص ١٧٥ ـ ١٧٨ الديوان قصيدة « الى الشعب » .
(٣ ، ٤) الديوان ـ قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٦٨ .
(٥) ص ١٦٨ .

هذا الواقع الحالك ، فيرتمي في أحضان الطبيعة الرءوم على صدرها . يهدهد أساه فتحلو له صحبة أطفالها : الجدول ، والبلابل ، والغاب ، والفجر ، والنجوم ، والنهر ، والضياء ، والصدى ، والطل ، والنسيم .. ان الانسان ابن الطبيعة البكر ، وهو أدنى الى قلبها من هؤلاء جميعا ، لأنه أشد بها علوقا وأكثر لها تمجيدا ..

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا ... سعيداً بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال، وفي الغابات، ... بين الصنوبر المياد
وأغني مع البلابل في الغاب ، ... وأصغى الى خرير الوادي
وأناجي النجوم، والفجر، والأطيار ... والنهر ، والضياء الهادي
عيشة للجمال ، والفن ، أبغيها ... بعيداً عن أمتي وبلادي
لا أعني نفسي بأحزان شعبي ... فهو حي ، يعيش عيش الجماد
وبعيداً عن المدينة والناس ، ... بعيدا عن لغو تلك النوادي (١)

يقول الأستاذ أحمد المختار الوزير معللا غضبه الشابي هنا :

(فشعور أبي القاسم بدائه (في هذا القصيد) ليس الا خيطا مفردا ، له حصة من الوجود النفسي الشامل له ولغيره ، من خيوط أخرى مكونة باضافتها اليه ، وباضافته اليها نسيج الحالة النفسية المعبر عنها . وليست حصة ذلك الخيط من الوجود النفسي هي أوفى الحصص ، ولا نصيبه من ذلك الوجود هو أوفى نصيب ، بل ان **أثر الحياة الاجتماعية ليبدو من خلال القصيد ، أبعد توغلا في نفس الشابي من كل شيء سواه مما له اتصال بعلته واشتداد علته** » (٢) .

(لقد وسع قلب الشابي ولبه حياة الناس يومذاك وشعر بما كان شائعا مستفيضا في دواخلها من سوء وفساد ، **فلم يضق بشيء من ذلك بمثل ما قد تألم له** . ولم ينشد لنفسه فرارا منه ، بمثل ما أراد له من صلاح . ولم ييأس من قدرته على صلاحه ، بمثل ما آمن به من تلك القدرة على الصلاح ، وهل قصيدة « أحلام شاعر » الا صورة من ذلك الايمان ، وان تغشاها لون من اليأس ؟ أليس الأحق أن نقول : ان الشابي في هذه القصيدة ، لا ينشد الفرار ، وانما كان ينشد القرار ؟ وهيهات أن يجد القرار ، ما دام مرددا بين النقص والكمال) (٣) .

***

---

(١) الديوان – قصيدة « أحلام شاعر » ص ١١٤ .
(٢ ، ٣) مجلة الفكر – عدد أكتوبر سنة ١٩٥٦ مقال « أحلام شاعر » ص ٣١ .

وهو منبهر بالغاب ينشده مستراضا ومعــزلا ، وقدس هـوى ، ومجلى الهام ، ومسرح أحلام ، ومغنى شاعر ... فيه يتملى سحر الطبيعة وسحر الحبيبة في حنان ولذة وذهول ، وفيه يروى من الحسن المشرق في أمان وفرحة ...

كان فيه النسيم ، يرقص سكرانا ... على الورد ، والنبات البليــل
وضباب الجبال ، ينساب في رفق ... بديع ، على مروج السـهول
وأغاني الرعاة ، تخفق في الأغوار ... والسهل ، والربا ، والتــلول
ورحاب الفضاء تعبق بالألحـان ... والعطر ، والضــياء الجميـل
والملاك الجميـل ، ما بين ريحـان ... وعشب ، وســنديان ، ظليـل
يتغنى مع العصافير ، في الغــاب ... ويرنو الى الضــباب الكســول
وشعور الملاك ترقص بالأزهـــار ... والضوء ، والنسيم ، العليل (١)

ويروى الأستاذ كرو عنه أنه (لم تكن للشابي طيلة حياته أمنية أو رغبة يحن اليها ويرغب في تحقيقها ، كالغـــاب بسروه وسنديانه وبكل ما فيه من نبات وحيوان ، وسماء صافية ، وماء نمير) (٢) .

الغاب ... الغاب ... يروعه ويستهويه ... وهو عنده :

بيت ، من السحر الجميل ، مشيد ... للحب ، والأحلام ، والالهام (٣)
في الغاب سحر ، رائع ، متجدد ... باق على الأيام والأعــوام
وشـذى كأجنحة الملائك ، غامض ... ساه يرفرف في سكون سـام
وجداول تشـدو بمعسول الغنـا ... وتسير ، حالمـة ، بغير نظـام
ومخارف نسج الزمان بساطها ... من يابس الأوراق والأكمـام
وحنا عليها الدوح ، في جبروته ... بالظل ، والأغصان ، والأنسـام
في الغاب ، في تلك المخارف ، والربا ... وعلى التلاع الخضر ، والآجـام
كم من مشاعر ، حلوة ، مجهولة ... سكرى ، ومن فكر ، ومن أوهام

وللغاب عنده قصة بل أقاصيص :

لله يوم مضيت أول مـــرة ... للغاب ، أرزح تحت عبء سقامي
ودخلته وحدي ، وحـــولي موكب ... هزج ، من الأحلام والأوهـــام

---

(١) الديوان ــ قصيدة « ذكرى صباح » ص ١٦٢ .

(٢) كتاب « كفاح الشابي » للأستاذ كرو ٩٢ .

(٣) الديوان ــ قصيدة « الغاب » ص ١٨٨ ــ ١٩٠ .

ومشيت تحت ظلاله متهيبا … كالطفل في صمت ، وفي استسلام
أرنو الى الأدواح ، في جبروتها … فأخالها عمد السماء ، أمامي
قد مسها سحر الحياة ، فأورقت … وتمايلت في جنة الأحلام
وأصيخ للصمت المفكر ، هاتفا … في مسمعي بغرائب الأنغام ،
فاذا أنا في نشوة شعرية … فياضة بالوحي والالهام

والغاب …
ساج ، والحياة مصيخة … والأفق ، والشفق الجميل ، أمامي
وعروس أحلامي تداعب عودها … فيرن قلبي بالصدى وعظامي
روح أنا ، مسحورة ، في عالم … فوق الزمان الزاخر الدوام

وفي الغاب (١) نفض همومه ، وتخفف من أحزانه ، ونسي الناس وحبائلهم وسخافاتهم .. في كل شيء … كل شيء … تطهر وكأنه ولد من جديد … تفتح للحياة والضوء ، والنسيم … تفتح للخيال والشعر .. :

في الغاب ، في الغاب الحبيب وانه … حرم الطبيعة والجمال السامي
طهرت في نار الجمال مشاعري … ولقيت في دنيا الخيال سلامي
ونسيت دنيا الناس، فهي سخافة … سكرى من الأوهام والآثام
وقبست من عطف الوجود وحبه … وجماله قبسا ، أضاء ظلامي
فرأيت ألوان الحياة نضيرة … كنضارة الزهر الجميل النامي
ووجدت سحر الكون أسمى عنصرا … وأجل من حزني ، ومن آلامي
فأهبت ـ مسحور المشاعر ، حالما … نشوان ـ بالقلب الكئيب الدامي
« المعبد الحي المقدس هاهنا … يا كاهن الأحزان والآلام »

لقد تكاثرت الهموم حوله حتى انقطع لها وصار لها كاهنا :

فاخلع مسوح الحزن تحت ظلاله … والبس رداء الشعر ، والأحلام(٢)

ووعى النقاد هذا الشعر فامن بعضهم عليه ، وسلم بأن الطبيعة « تفجر له من ينابيع المعرفة أصفاها وأعذبها ، وتكشف له عن جمالها وفتنتها في ساعات الصفاء والانفراد وتخلق له دنيوات أخر ، تخصه بها وتؤثره ! » (٣) .

---

(١) سنفصل الحديث عن سر تعلق الشابي بالغاب في فصل « الشابي والمهجر »
(٢) الديوان ـ قصيدة « الغاب » ص ١٩١ .
(٣) الأستاذ عبد العزيز عتيق . مجلة الامام ـ العدد الخامس السنة ٣٢ بتاريخ ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٠ .

وتجاهله البعض الآخر . لا بل ان هناك من أغمض عينيه ثم راح يقول أنه لا يرى شيئا ، وأن وصف الطبيعة عند الشابي (... قليل جدا بل هو نادر بالاضافة الى مجموع شعره) (١) . وهي دعوى كبيرة كما ترى لا تترك عادة بغير تلطيف فأردف الناقد قائلا : (على أن أقرب شعره المنشور الى وصف الطبيعة بالمعنى المقصود قصيدتان : قصيدته « في تونس » ، وقصيدته « من أغاني الرعاة ») (٢) .

الطبيعة عند الشابي قصيدتان .... قصيدتان فقط ...

لقد ذهب الشابي في طفولتي الباكرة . فأنا لم أره الا في شعره . أما معرفتي بالناقد فلا تتجاوز كتابه (شاعران معاصران) أي أني لم أر الشاعر أو الناقد ، ولكني رأيت تحاملا ، فليست الطبيعة بالموضوع الوحيد الذي ثلب فيه الأستاذ فروخ الشابي بل حاول أن يغض من هتفة الوطنية عنده ثم لم يكفه هذا كله فغمزه في دينه ! تلمح هـذا كله في موضعه من الكتاب ... فلنأخذ الشاهد من موضوع هذا الفصل وهو الطبيعة ... وأعني قصيدة (أغاني الرعاة) التي التقى النقـاد كلهم (٣) عندها ، لا يستجيدها الأستاذ فروخ الا بعد أن لفتت أنظار الشاعر الأسوجي « كارل ألوف سفننغ » فنقلها الى اللغة الأسيوجية (السويدية) ...

ومع هذا لا بأس من أن يشوب المدح بشيء من التجريح ، فالقصيدة موفقة لأنها (خارجة من قلب الشاعر ، وأحسن تعبيرا عن نفسه من عدد من قصائده التي تكثر الصنعة المعنوية فيها) (٤) .

***

لا ضير فالشابي مهما تفوق نبوغه ، لا يعدو أن يكون ابن الحياة ، والحياة على غناها وصلاها يراها كثيرون كالحة أو مكفهرة ، ومن هـؤلاء الشابي نفسه في أزماته وان كان مفتونا بها في صفوه وانشراحه ...

(١ ، ٢) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢٠٠ .

(٣) يقول الأستاذ كرو في كتابه « كفاح الشابي » ص ٩٢ .

(وفي قصيدة « أغاني الرعاة » قطعة حية من فؤاد الطبيعة ، وصورة متحركة من مشاهدها الخلابة ، وهي أعلى وأعمق قصيدة تصف الرعاة وحياتهم ، والمراعي وجمالها ، في شعرنا العربي كله) .

وصاحب كتاب « الشاعران المتشابهان » يرى فيها « صورة فنية نادرة » ص ٣٩ .

(٤) كتاب « شاعران معاصران » ص ٢٠٤ .

فلا بأس أن تحيفه نقد ، أو تحامل عليه ناقد فقد أنصفه كثيرون ··· هذا كاتب يراه بعد مقارنة واعية ···

(··· يقف الشابى قمة شامخة بين الشعراء المعاصرين ، الذين ظفرت الطبيعة فى شعرهم بنصيب كبير ··) (١) ·

(ان الطبيعة التى يصورها الشـــابى ليست متعددة المشـــاهد ولا متنوعة المناظر . وشعره خال من « اللوحات » الطبيعية الكاملة ، فلا ترى وصفا خاصا بنهر ، أو روض ، أو غير ذلك من المجالى الطبيعية الرائعة · ولكننا حين نقرأ شعره نحس أن الشاعر يعبد الطبيعة عبادة عميقة ، تصل به الى درجة الفناء فى جمالها الأخاذ ، ويدرك أن شعوره بها لم يكن شعورا بسيطا ، ولكنه كان شعورا مركبا ، لأنه لا يتذوقها فى سذاجة المتلذذ المتنعم ، الذى لا يشغله منها الا ما تهيئه له من راحة وظل وفير ··· وأغانى الرعاة عند الناقد (··· من أعمق شعر الطبيعة فى الأدب العربى) (٢) ·

***

وعبادة الطبيعة ليست مجرد وصف سخى ، نخلعه مجاملين على الشابى · فان هذا اللون من الشعور كان يعرفه الشاعر ويتعمقه ويؤمن به عن وعى وبصـــيرة · فلا غـــرابة أن يدين به فى حمـــاس وحب عظيمين ···

هذا الايمان ··· هذا الحماس ··· هذا الحب ··· نستشفه من رأيه فى نظرة الأدب العربى الى الطبيعة ··· لقد كان الشابى يرى (أن النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة ازاء النظرة الغربية ، مهما بلغت من العمق والشعور · وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية عميقة ، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحى الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمق وطراز جميل ، وهى لا تزيد عن الاعجاب البسيط · ومثل هذه النظرة الفارغة لا ينتظر منهـــا أن تشرق بالخيال الجميل · لأن الخيال الشعرى منشؤه الاحساس الملتهب ، والشعور العميق · وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق فى قلب الطبيعة الا شعورا بسيطا ، خاليـا من يقظة الحس ، ونشـــوة الخيال) (٣) ·

(١ ، ٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ٨٣ ــ ٨٤ ·

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للاستاذ التليسى ص ٩٣ ــ ٩٤ ·

شعب وشاعر

أيها الشعب ! ليتني كنت حطابا ... فأهوى على الجذوع بفأسي !
ليت لى قوة العواصف ، ياشعبى ... فألقي اليك ثورة نفسي !
فى صباح الحياة ، ضمخت أكوابى ... وأترعتها بخمرة نفسي !
ثم قدمتها اليك ، فأهرقت ... رحيقي ، ودست ياشعب كأسي !

اننى ذاهب الى الغاب ، ياشعبى ... لأقضى الحياة ، وحدى ، بيأسي
والشقى الشقى من كان مثلى ... فى حساسيتى ، ورقة نفسى (١)

طالما شكا الشابى وتألم حتى عذلناه ولكننا يجب أن نقر – هنا على الأقل – أن يأسه لم يصدر عن ضعف وهروب وخمول ، ولكنه يأس الجذوة المتضرمة التى تتوهج بالنار ، وتزغرد بالشرر ، لتوقظ الرماد الهامد حولها ، وتبعث فيه منها النار المقدسة ... فلا يصيخ ولا يعين ... الا أن الشاعر لم ييأس الا بعد أن أجج قصيدة « النبى المجهول » فما ظفر بجواب ..

لهذه القصيدة قصة يرويها لك أبو القاسم كرو فى كتابه (كفاح الشابى) :

« ... وتقوى الرجعية الباغية على طليعة الأحرار ، فيعلن الحداد من فوق منابر الجوامع ، ويحكم على الشابى بالجحود والكفر على أعمدة الصحف ، وتتألب عناصر الرجعية على بذرة الاصلاح النابتة فى قلوب الشبيبة ... » (٢) .

---

(١) الديوان – قصيدة « النبى المجهول » ص ١٠٣ .
(٢) كتاب « كفاح الشابى » ص ٧٠ .

أحسب أن هذه الثورة لم تمنع الأستاذ كرو من الجهر بأن (قصيدة « النبى المجهول » وهذه الأبيات منها بوجه خاص « المطلع » لهى أعظم شعر قاله شاعر عربى ، فى حب الشعب ، وفى التعلق به ورغبة الخير له) (١) .

أخيرا ينصفه قومه !

وقصيدة « النبى المجهول » من القصائد التى شغلت النقاد وتجمعت حولها الآراء ...

تساءل الأستاذ محمد العروسى المطوى :

ما هو شعور الشابى نحو شعبه ؟ وكان جوابه :

(يتمثل هذا الشعور أولا فى الاشفاق والحسرة ، وابداء العطف والحنان ، والاستعداد للفداء . ثانيا فى اثارة الشعب ضد الظلم والطغيان، وفساد الأوضاع ، وباطل التقاليد ، ويشتمل ثالثا فى تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وطغيانه ، وسيله الجارف الغشوم . ثم يتمثل هذا الشعور فى تشاؤم الشابى ويأسه وصب جام غضبه عليه ، ثم الاعتزال والهروب الى عالم خيالى ، اختاره ليعيش فيه ، مع عالمه العاطفى الذى شاده من آماله وآلامه الاشفاق والعطف) (٢) .

***

وينتهى من هذا الى : أن الشابى يئس وطغى به اليأس الى النقمة ، الى الغضب العنيف الصاخب .. انه ليثور حتى يتمنى تحطيم هذا الشعب وازالته من عالم الحياة . لأنه لا يصلح للحياة فى نظر الشابى ذلك (النبى المجهول) (٣) .

وهكذا تكون رسالة الشابى فى نظر الناقد (قد انتهت بسلبيه بغيضة ويأس قاتل ..) (٤) .

هذا حين يرى الأستاذ محسن بن حميده أن :

(الشابى هو فى زمانه الشاعر الوحيد ، الذى كان يعيش مأساة

(١) كتاب « كفاح الشابى » ص ٧١ .
(٢) كتاب « ذكرى الشابى » مقال « الشعب فى شعر أبى القاسم الشابى » ص ١٧ .
(٣) كتاب « ذكرى الشابى » مقال «الشعب فى شعر أبى القاسم الشابى » ص ٢٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٤ .

شعبه كلها ، ويحاول أن يبعث فيه روح الثورة على المـوت والايمـان الصادق بانتصار الحياة ...

هذا يجعل الشابى فى نظرى أبا الشعر العربى المعاصر ، لأنه أول من عاش مأساته الخاصة فى مأساة شعبه ، ولم يحاول قط فى أنانيـة وادعاء ، أن يفصل هذه عن تلك ولربما لم يكن التلميح أو الاشـارة الى مأساته الخاصة الا مجرد وسيلة للتعبير عن المأساة العامة) (١) .

ويقول الأستاذ بوراوى الملوح :

(شعر الشاعر بتفاهة بعض الرجـال من معاصريه واتضحت له سذاجة غاياتهم فحاول الكفاح عن كيان هذا الشعب ، واستخدم كل ما لديه من قوة جارفة ، وقريحة صاخبة ، ليدفعه الى الوعى الحقيقى . ولما رأى أن الصـخور لا تتزحزح ، انهـال عليهـا ضربا وتهـديما وسخرية ..) (٢) .. وهنا استشهد الكاتب بمطلع قصيدة (النبى المجهول) ..

ثم يقول :

(وأظنك لبيبا ، لا تجهل أن محبة الشعب ليست فى الفاظ معسولة تقدمها له لتخدره ، بل انما المحبة الحقة فى صيحات ثائرة صاخبة ترسلها لتوقظ همته) (٣) .

حين يصف الأستاذ الشاذلى القليبى ثورة الشابى بانهـا (ثورة تهديمية ناتجة عن يأس ، متغلغل فى أعمـاق نفسـه ، وملل وسآمة ، وارادة تحطيم وتقويض ، هذه العناصر الثلاثة هى ينابيع قريحته) (٤) .

وهذه القصيدة نفسها يتخذ منها الأستاذ التليسى (نقطة انطلاق فى تحديد وطنية الشابى ، ذلك لأنها تحمل خطوطا عريضة واضحة تدل على مدى احساسه بضرورة البعث والتطور ، وتشير الى الأهداف التى يريدها لمجتمعه . وهى فى عنفها وقسوتها أدل على نواحى الضعف التى

---

(١) مجلة الفكر عدد أكتوبر سنة ٥٦ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) مجلة الشباب عدد ٦ فبراير سنة ٥٧ « مقال ـ أبو القاسم الشابى شاعر الوطنية » ص ٣٨ .

(٣) مجلة الشباب ـ عدد ٦ فبراير سنة ١٩٥٧ « مقال أبو القاسم الشابى شاعر الوطنية » ص ٣٧ .

(٤) مجلة الندوة عدد ١٠ السنة الأولى ـ أكتوبر سنة ٥٣ من مقال « الشابى وتجربة الفجر البعيد » ص ٩ .

كان يئزح الشعب تحت عبثها ، ونواحي القوة التي يتطلع اليها الرواد من الشباب) (١) ٠

والدكتور شوقي ضيف يفسرها : بأن الشابي لم يكن يلقى خصومه بشيء من التسامح (فقد كان حاد الحس والشعور ، فتحول يقذفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمي رءوسهم ، ووسع الدائرة التي يقذف فيها بحجارته ، فلم يقف بها عند طائفة معينة من ٠٠٠ شعبه ، بل عم بها الشعب في ساعة غضبه ، فاذا هو يصب عليه طوفانا من الأحجار ٠٠) (٢) ٠

ثم يقول بعد سلسلة من الأبيات ، (ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه الا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترا يصب جام سخطه عليه ، حين رآه لا يعرف مواهبه ، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التي ينبغي أن تستقبل بها) (٣) ٠

ويبدو أن الدكتور احسان عباس يشايعه في هذا الرأي ، فعنده أن : حملة الشاعر على الشعب ليست لنقص حقيقي في الشعب نفسه ، بل لنقص اعتباري ـ لأن الشعب أبى أن يعترف بعبقريته الشعرية ، التي رمز لها الشاعر بالكأس والأزاهير (٤)

***

أهذا كل السبب ؟ أيذكى سبب كهذا مثل وقدة الشابي ، ويعبيء مثل شحنته ؟ ٠٠٠ لا أخال ٠٠٠ ولماذا نغالط الحقيقة ٠٠٠ ألم تأخذ شعوبنا العربية في أيام الشابي سنة من نوم ، بل غط بعضها في سبات عميق ؟ (٥) ٠٠٠ ألا يعد الرقاد نقصا في عصر طائر مجنح ؟

---

(١) كتاب « الشابي وجبران » ص ٧١ ٠

(٢) الدكتور شوقي ضيف ، « كتاب دراسات في الشعر العربي المعاصر » ص ٦٣ ٠

(٣) الدكتور شوقي ضيف ، « كتاب دراسات في الشعر العربي المعاصر » ص ٦٣ ٠

(٤) الدكتور احسان عباس كتاب « فن الشعر » ص ٢٤٠ ٠

(٥) يقول الأستاذ بوراوي الملوح « الشعب التونسي في عصر أبي القاسم الشابي لا يشبه شعبنا التونسي اليوم في بعض مظاهره وقد شعر الشاعر بتفاهة بعض الرجال من معاصريه ، واتضحت له سذاجة غاياتهم فحاول الكفاح عن كيان هذا الشعب ، واستخدم كل ما لديه من قوة جارفة ، وقريحة صاخبة ليدفعه الى الوعي الحقيقي ٠ ولما رأى أن الصخور لا تتزحزح انهال عليها ضربا وتهديما وسخرية » ٠

أحسب أن الذى يؤذى الشابى أكثر ، انما هو عدأ الاستجابة لمعانى القوة وانتفاضات الحياة والكرامة فى شعره فقد كان هـــذا هدفه الأول وحلمه المؤرق ٠٠٠ كان هذا الهدف يأتى عنده قبل التقدير الذى ان سره ككل انسان فهو لا يغنى عنه شيئا حين تحقق الاستجابة الشعبية لشعره فورة دافعة الى أمام ٠٠٠

كان اذا نكأ طاغية جرحا لوطنه ، فكأنمـا مس شاعرنا شـــواظ فيهدر كسيل عات . وتتدفع منه هذه الأبيات تتضاغى :

لك الويل يا صرح المظالم من غد ... اذا نهض المستضعفون ، وصمموا
اذا حطم المستعبدون قيـودهم ... وصبوا حميم السخط أيان تعلم
أغرك أن الشعب مغض على قذى ... وأن الفضاء الرحب وسنان،مظلم
ألا ان أحلام البـــلاد دفينــــة ... تجمجم فى أعماقهـــا ما تجمجم
ولكن سيأتى بعد لأى نشورهـــا ... وينبثق اليـــوم الذى يترنم
هو الحق يغفى٠٠ثم ينهض ساخطا ... فيهدم ما شاد الظلام ، ويحطـم
غداالروع،ان هب الضعيف ببأسه ... ستعلم من منا سيجرفه الدم
لك الويل يا صرح المظالم من غد ... اذا نهض المستضعفون وصمموا!!(١)

ألا يزدهيك الغموض الرهيب ، يكمن خلف « صمموا » ؟

وفى قلبه من المستعمر نار لا تخبو ٠ فيا أيها المستعمر الباغى :

رويدك ! لا يخدعنك الربيـــع ... وصحو الفضاء ، وضوء الصـباح
ففى الأفق الرحب هول الظـــلام ... وقصف الرعود ، وعصف الرياح
حـــذار ! فتحت الرمـاد اللهيب ... ومن يبذر الشوك يجن الجراح(٢)

هذه الرقة الحالمة الموشاة التى طالعتك فى غنائه للحب والطبيعة ٠٠٠ هذه الرقة تنتفض فجأة اذا ذكره ذاكر بحال شعبه ٠٠ هنا يهب المـارد فيه كمن مسته نار ، ويمطر قومه حاصبا من اللفظ للاهاجة والاثارة حتى يحطموا القيد ويسحقوه سحقا :

والقيد يألفه الأمـوات ، ما لبثوا ... أما الحياة فيبليها وتبليـــه (٣)

ان فى قلبه من المستعمر جمرة تتلذع ٠٠٠ ذلك القوى الظلوم الذى يعصر من الآلام السود لضحاياه من الشعوب لذة ومداما ٠

---

(١) قصيدة « الى الطاغية » ص ٤٣ من الديوان ٠
(٢) قصيدة « الى طغاة العالم » ص ١٨٥ من الديوان ٠
(٣) قصيدة « سر النهوض » ص ١١٨ من الديوان ٠

يتحسار ضاحكا ··· لا يراه سبا خلقت في الوجود الا طعاما (١)

وهو مع هذا يريد ، من غيره ، أن يمزق هذا الشعب الذي يتمزق هو من أجله ·· من وطنية وحيوية وعرام :

أين ياشعب، قلبك الخافق الحساس أين الطموح ، والأحلام ؟
أين ياشعب، روحك الشاعر الفنان؟ أين الخيال والالهام ؟
أين ياشعب، فنك الساحر، الخلاق ؟ أين الرسوم والأنغام ؟
ان يم الحياة يدوى حواليك فأين المغامر ، المقدام ؟
أين عزم الحياة ، لا شيء الا الموت ، والصمت والأسى والظلام
عمر ميت ، وقلب خواء ودم ، لا تثيره الآلام
وحياة ، تنام في ظلمة الوادى وتنمو من فوقها الأوهام
أى عيش هذا ، وأى حياة (رب عيش أخف منه الحمام) (٢)

انه يريد أن يوقظ النيام ·· أن يدفع الجامدين بقبضة يده ، أن يلفحهم بحر أنفاسه ·· أن يحرقهم بوقدة أشواقه ليخرجوا الى الحياة السليمة البريئة من القيود ··

انى لأحسب لو تجمع قومه في رجل واحد لهزه هزا عنيفا متواليا ، أو لصفعه صفعة فيها نار وشوك ليفيق ·· لتدب فيه الحياة العاملة الساعية الطموح ·· الحياة ذات الاشواق ، والغايات ، والرغائب ·· الحياة الراكضة المتدافعة ·· الجادة العاملة ·· البريئة من آفة الركود وعطن الجمود وخدر التبطل ··

قد مشيت حولك الفصول وغنتك فلم تبتهج ، ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء حتى أوشكت أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك فلم تضطرب ، ولم تتألم
يا الهي ! أما تحس؟ أما تشدو أما تشتكى ؟ أما تتكلم ؟
مل نهر الزمان أيامك الموتى وأنقاض عمرك المتهدم
أنت لا ميت فيبلى ، ولا حى فيمشى ، بل كائن ، ليس يفهم(٣)

انه يريد أن يثير حفيظته على المستعمر ، أن يلهب نخوته ، أن يشعل ناره ، فلا يجد ولا أجد أنا معه أقسى من هذين البيتين للاستنفار :

---

(١) قصيدة « أبناء الشيطان » ص ١٢٠ من الديوان·
(٢) قصيدة « الى الشعب » ص ١٥٧ من الديوان··
(٣) قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ من الديوان··

فالزم القبر .. فهو بيت شبيبه بك في صمت قلبه ، وخرابه
واعبد«الأمس»واذكر صور الماضي فدنيا العجوز ذكرى شبابه (١)

أحسب أن لو قيلا بين سكان الحفر لهبوا من رقدة العدم مرعدين .
وصف أنت هذه الأبيات :

وإذا مرت الحياة حواليك جميلا ، كالزهر غضا صباها
فاحذر السحر ، أيها الناسك القديس إن الحياة يغوى بهاها
وتمل الجمال في رمم الموتى بعيدا عن سحرها وصداها
وتغزل بسحر أيامك الأولى وخل الحياة تخطو خطاها (٢)

هل هى سخرية حانقة أم صرخات تخترق أذن الأصم ؟

وكما لم تغب الطبيعة عنه في رضاه لم تزايله صورتها في غضبه فهو يلمحها في ثورته على قومه النيام في سخرية «مرور :

واذا هبت الطيور مع الفجر تغنى بين المروج الجميله
ومشى الناس في الشعاب،وفي الغاب وفوق المسالك المجهوله
ينشدون الجمال والنور والأفراح والمجد ، والحياة النبيله

الحياة النبيلة .. هذه هي المقصودة

فاغمض الطرف في الظلام وحاذر فتنة النور .. فهى رؤيا مهوله

يسخر من نظرات قومه الى الحياة وآرائهم فيها ..

وصباح الحياة لا يوقظ الموتى ولا يرحم الجفون الكليله (٣)

★★★

كل شىء – الاك – حي ، عطوف يؤنس الكون شوقه ، ونشيده
فلماذا تعيش في الكون يا صاح وما فيك من جنى يستفيده
لست يا شيخ للحياة بأهل أنت داء يبيدها وتبيده
أنت قفر ، جهنمى لعين مظلم ، قاحل ، مريع جموده (٤)

لقد وقعت الواقعة ..

أنت يا كاهل الظلام حياة تعبد الموت .. أنت روح شقى
كافر بالحياة والنور .. لا يصغى الى الكون قلبه الحجرى
أنت قلب ، لا شوق فيه ولا عزم وهذا داء الحياة الدوى

(١ ، ٢) قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ من الديوان .
(٣) قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٧ من الديوان .
(٤) من قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٨ .

أنت دنيا ، يظلها أفق الماضى وليـــــل الكآبة الأبـدى
مات فيها الزمان ، والكون الا أمسها الغابر ، القديم ، القصى
والشقى الشقى فى الأرض قلب يومه ميت ، وماضيـه حى
أنت لا شيء فى الوجود ، فغادره الى الموت فهو عنك غنى (١)

ان الشاعر ينعى على شعبه فى حرقة محمومة ، تحامله على الماضى واستعلاءه به ، ولا يسايره كشعراء آخرين بالتغنى بماضيه والطنطنة به .. حقا لقد فهم الشاعر رسالته .. بعث وايقاظ ، ودفع واع الى الأمام لا مسلاة ولا تزويق وتملق غرور الشعوب ..

***

يقول الدكتور شوقى ضيف والحق يظاهره :

وهذا الشعر السياسى أو الوطنى ، كان منتشرا فى كل بلاد الشرق الأوسط ، فى مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ فى هذه البلدان ما بلغه الشابى فى تونس (٢) .

وهذا مواطن له لا يكتم الشهادة بل يعلنها فى غير مواربة أن (الشابى وشعره قد ارتبطا بتاريخنا ، وأصبحا حلقة ذهبية كبيرة من أمجادنا الخالدة . بل انى أزعم أن تاريخ شعبه الحديث لم يبدأ الا بالشابى) (٣) .

وهذا الأستاذ خفاجى يرى فى قصائده ذخيرة مميزة فى التراث الأدبى المعاصر ، ومبعث قوة خارقة لأدب الانبعاث القومى فى العالم العربى لا فى تونس فحسب (٤) .

جاهر بالنقد وقسا فيه من عذابه بواقع قومه ، واشفاقه عليهم .. اشفاق وحب ، لا نقمة وتشاؤم ويأس من امكان الاصلاح كما يقول الأستاذ فروخ (٥) .

---

(١) من قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٨ .

(٢) اقرأ كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٨ .

(٣) مقدمة كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٤ .

(٤) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ خفاجى ص ١٦٨ .

(٥) يقول الأستاذ فروخ فى كتابه « شاعران معاصران » ص ١٦٥ : « ولم يكن بامكان الشابى الا أن يتأثر بحال تونس فى التعس والفقر والظلم . ولقد أنصف الشابى بلده فى الشعر فلم يكتف بأن يصفه وصف ناقم أو راحم فقط ، بل كان يحث قومه على الرقى ويمنيهم بالنتائج التى يمكن أن يصلوا اليها اذا استيقظوا ونهضوا ، غير أنه أيضا كان فى بعض شعره السياسى متشائما ، نافضا كلتا يديه من امكان الاصلاح أو النهوض » .

ولا أرى في صيحات الشابي الراعدة يأسا ، ولكنها قوة الحانق على الوضع الذميم من اباء وولاء ، قسوة الملهوف على اليقظة الباعثة ..

(وعندي أن كثيرا من آرائه في هـــذا الباب كان تقليدا للشعراء الذين طرقوا مثل هذه الموضوعات .. واذا نحن قبلنا ما قاله أبو القاسم محمد كرو ، من أن الشابي قرأ كثيرا للمعري وابن الفارض وابن الرومي والخيام .. وجبران وسائر أدباء المهجر ، فاننا لا نعدو ـ والحق معه ـ في أن نرد كثيرا من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها) (١) .

وأين اذن تأثر المواطن الطبيعي الذي قررته سالفا ؟ !!

والشابي شاعر ناقم يزعم أنه يريد أن يؤدي رسالة ، ولكنه في الحقيقة يحمل معولا ليهدم به كل شيء : الحياة والناس ، والبلاد والوطن والأمة (٢) .

قف قليـــلا نناقش النـــاقد الذي ناقض نفسه خلال أربع صفحات فقط من كتابه فبينما يرى الشابي ص ١٦٥ (يحث قومه عـــلى الرقي ويمنيهم بالنتائج) اذ به ينسى ويراه في ص ١٦٩ (معـــولا يهدم البلاد والوطن والأمة !!) .

وقبل هذا رد كثيرا من نقمة الشابي في رأيه الى مطالعاته عنـــد المعري وابن الفارض وابن الرومي والخيام وجبران . فهل قياسا الى تفسيره هذا يجوز لنا أن نطبق رأيه على هؤلاء ؟ هل المعري وابن الفارض وابن الرومي وجبران معاول أيضا أم ماذا ؟؟ .

أحسب أن الناقد هو الناقم على الشابي فان الشاعر اذا جاز عليه ككل فنان النقد لا يجوز عليه أبدا ـ انسانا ومواطنا وفنانا ـ أنه هدام يهدم البلاد والوطن والأمة ..

ليس هذا نقدا ، ولكنه سباب وهدم ، لا خير فيه لأحد حتى للناقد نفسه ..

اقرأ كتاب (الشاعران المتشابهان) الشابي والتيجاني فما كنت لأطلب اليك قراءة هذا الكتاب ، لولا دلالة المشابهة بين الشاعرين فحيثما توجد تقاليد رثة ورواسب متعفنة ، وتفكير سقيم ، وأوضاع فجة ومجتمع راكد ، ويقابل هذا كله فرد متوثب متحفز الحس والضمير ، يوجـــد

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٥ .
(٢) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٩ .

تعبير السخط والثورة الجامحة والاستثارة .. ومن هذا يتبين أن الشابى لم تكن نقمته شخصية ، ولم تكن حقدا بل كانت ثورة طبيعية - كغيرها من ثورات الشعراء الثائرين فى أوضاع مشابهة (١) - تهيأ لها الميدان ومولدات الشرر ..

على أن الناقد لم يلبث أن ناقض نفسه :

(وقصائد الشابى فى الوطنية والسياسة والقومية ، لا تقل عن قصائده الجياد فى الغزل من حيث البراعة والقوة ، حتى أن شهرة الشابى كلها مدينة لشعره القومى أو لبضعة أبيات من شعره القومى) (٢) !!

ويقول الناقد فى ص ٢٢٧ من كتابه عن الشاعر (انه ينظم الشعر ليسرى به عن نفسه ويصور حاله . ثم هو لا يتكسب بشعره ، ولا يتملق فيه أحدا ، بل يريد أن يرضى ضميره ، ويرضى به وطنه) .

اذن أين المعول الذى حمله الشابى ليهسدم به كل شىء : الحيــاة والناس والبلاد والوطن والأمة ؟!!

حتى قصيدة (ارادة الحياة) لم تسلم منه ، بل جاء حديثه عنهـا مثالا من أمثلة عديدة للتخبط فى النقد لا تكاد تستقر معه على مــدح أو قدح أو مجرد تقويم صحيح .. افسح صدرك معى لتسمع (انهـا أى قصيدة .. - ارادة الحياة - بلا ريب أشهر قصائده ، ولعلها أحسن قصائده أيضا . ثم انها قصيدة عامة : ليست وطنية فى التغنى بتونس وحدها ولا سياسية تشنع بالحرب فتوهم أن صاحبها ميال الى معسكر دولى مخصوص ، ولا هى اقليمية ضيقة الأفق . على أن أحسن ما فيهـا أنها مفعمة بروح الأمل ، مليئة بالثقة بالنفس عند القول . وهـــذه القصيدة كمعظم شعر الشابى ، فيها صور شعرية جميلة وتشـــابيه واستعارات جديدة صحيحة ، غير أنها أيضا - كمعظم شعره - مملوءة بالرمز الذى يجعل المعانى غامضة فى كثير من الأحيان ، على أن قيمة هذه القصيدة انما هى فى أبيات معدودة متفرقة ، ينقص من جمالها أنها تأتى بين أبيات فيها معان مرددة مكرورة معادة) (٣) .

حرنا معك يا صاحبى ..

---

(١) اقرأ ص ٢٢ من كتاب « الشاعران المتشابهان » .
(٢) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢٠٧ .
(٣) كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروخ ص ٢١٤ .

وكأنى بالأستاذ خليفة محمد التليسى يرد عليه حين يقول :

(والوضوح هو الدعامة الاولى للبساطة . ولذا أجدنى مخالفا لمن يتهمون هذا الشاعر بالغموض وتعمد التعابير الرمزية . وان شعره لمن الوضوح بحيث لا يحتاج الى شرح أو اعنات القريحة فى فك تعابيره . ومثل هذه المحاولة خليقة أن تؤدى الى افساد الأجواء النفسية التى تحيط بألفاظه ، لأنها ألفاظ عادية مألوفة ، تكمن قوتها فى هذا الجسد الشاعرى الذى يوشحها بالسحر ..) (١) .

***

وقصيدة (ارادة الحياة) هذه من القصائد المميزة عند الشابى ، بل ان أكثر الذين سمعوا بالشابى ، لا يكادون يذكرونه الا بتلك القصيدة كما يقول الأستاذ ميخائيل نعيمه (٢) .

وقد سلطت الأضواء عليها من كل جانب .. فالأستاذ على سعد يعدها (من أكمل قصائد الشابى بحسن سبكها ، ووحدة جوها ، ولطابع الفرح والعافية والقوة ، الذى تتسم به ، ولمعنى الرجاء الذى تتضمنه فكرة (العودة الدائمة) والحياة المتجددة التى تعبر عنها) (٣) . وان كان يرى فى جوها كثيرا من النفس النيتشى .

وأرى أن ليس حتما أن يكون الشابى قد لمح نيتشه فيها ، فهى ليست غريبة على روح الشابى المتقدة ، وانتفاضاتها اللاهبة ..

على أن الأستاذ على سعد لم يجزم بتأثر الشابى بنيتشه بل سجل كالمتحرج أن الأمر قد يكون مجرد صـــدفة .. (فالتقى الشابى مـع الفيلسوف الألمانى بهذه النبرات القوية والنابضة بالعزمات والتسامى البطولى عندما انحدر الى واقع بلاده ، فألهاه تيار الحياة التى تعصـــف فيها عن مشاكل ذاته ، وعن الدوران فى حلقة عقده النفسية ، ووجدانيته الفردية) (٤) .

ويبدو أن هذا النقد قد أشعل حماسة المواطن فى الأستاذ كرو فأخذ يزكى القصيدة ويثنى عليها بما هى أهل له ، بل تجاوز هذا الى المجد

---

(١) ص ١١٤ من كتاب « الشابى وجبران » .
(٢) أقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٦ .
(٣) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٢ .
(٤) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٢ .

والسمو وأعلى القمم والألفاظ الطنانة التى تهواها الشعوب العريقة عندما تغلب على أمرها وعندما تفيق ... (١) .

❊ ❊ ❊

ومن شعره الرمزى قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) وهو يرمى بها الى التنديد الساخر من سياسة الغرب التى تتحدث كما قال : (الى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها فى ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها « سياسة الادماج » وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذى لا معدى عنه لهاته الشعوب اذا أرادت نيل حقوقها فى هذا العالم ، وبلوغ الكمال الانسانى المنشود ، ولكن الفناء حقيقة شنيعة ، مبغضة ، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما فى التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام) (٢) .

والقصيدة تقرأ ككل قصائرنا كالشابى موتور من الغرب صاحب الاصطلاحات المسمومة (سياسة الادماج) ، (الأحلاف) ، (الدفاع المشترك) معاهدات الصداقة .. النقط التى لا تنتهى ... ما أحوج الشرق الى وعى قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) عن الشابى ليؤمن من لم يكن قد آمن بعد ... أو بعض أهله على الأقل :

ان السـلام حقيقة ، مكـذوبة   والعدل فلسفة اللهيب الخابى

حقاً ان شعوب الحضارة الأولى .... واللهيب الخابى أكثرت من الخطب المفوهة المؤمنة بالعدل ، المؤملة فى هيئة الأمم المتحدة ... ولم تع بعد على هول التجارب وفداحتها أن :

لا عدل ، الا ان تعـادلت القوى   وتصـادم الارهاب بالارهاب (٣)

---

(١) يقول الأستاذ كرو فى كتابه «كفاح الشـابى » ص ١١١ « وسـواء أكان التقاء فى فكرة الحياة المتجددة مع الفيلسوف الألمانى مجرد صدفة أو نتيجة لترسبات ثقافية فى ذهنه الخاطف الجبار فانها ستظل من أعظم الدلالات العبقرية على بطولة الشابى الوطنيـة والأدبية ، وستبقى خير نشيد عزفه عازف عربى فكان البذرة القوية الصالحة التى نبتت فى قلب شعبه الخانع الذليل ، فحولته الى الطموح والكفاح والثورة ، وبعثت فيه اليقظة والوعى والنهضة ، ثم جعلته يصنع الحياة بيديه ، ويبنى المجد بنفسه ، ويسمو كالأشواق والنسور الى أعلى القمم ... » .

(٢) الديوان ص ١٩٢ .

(٣) الديوان ص ١٩٣ .

وأن :

لا رأى للحق الضعيف ، ولا صدى الرأى ، رأى القاهر الغلاب (١)

هذا الطراز من الشعر هو الذى نبتغيه فى صراع الحياة والموت بين الشرق والغرب . هذا الطراز من الشعر الهادف الدافع المتلهف ، الذى يطهر نفوسنا من الأوهام والخدع والبدع . ويطهر حواسنا من الخدر اللذيذ الذى تتمطى فيه وتسترخى ... هذا الطراز من الشعر المتسعر الذى يفتح عيوننا على الواقع الكريه العفن الذى يعيش فى بعض شرقنا ليتحرر منه .. ليدفع عاره .. لنبعث من جديد فى عالم الأقوياء ... مسلحين بالعلم والحرية والقوة .. لنستحق الحياة يوم نزيدها خصبا ونفعا وجدوى ، لا نحمل عليها كالزبد الطافى تحت زحمة التيارات المختلفة يطوح به أقواها كيف يشاء ، ويطرحه أينما شاء .. أبدا .. القوة للقوة ..

ان السلام حقيقــــة ، مكـــذوبة والعـــدل فلسفة اللهيب الخــابى
لا عدل الا ان تعـــادلت القـــوى وتصـــادم الارهاب بالارهــاب

خذوا الدرس عن مصر التى أعدت للطامعين البغاة ما استطاعت من قوة فجمدوا فى مكانهم من الجولة الأولى ينعون أحلام الغزو والسيطرة ولم ترحم فشلهم فسلطت عليهم الموت والدمار يتخطفهم ويسمرهم ، فدارت من الذهول والرعب رءوسهم المنخوبة ، وطارت من الأرق المتفزع عقولهم العفنة ، أما ضمائرهم فقد خرست منذ أمد بعيد ، أو لعلها لم تخلق على الاطلاق ...

هل ألجمهم غير القوة ؟ هل شل زحفهم غير القوة ؟ هل جمد مطامعهم غير القوة ؟ ...

ان القوة فى كل مكان سلاح بتار ، وهى فى الشرق خاصة سلاح حاسم جبار .. انها هنا فى أرضنا تساندها الروح ويرفدهـا الايمان ويشعلها الظلم القديم ويسعرها رغبة التعويض و ... وبدون القوة سيظل الشرق ـ مهما وضحت حجته ـ نهبا لكل سارق ، ومرتعا لكل طامع ، ومطمحا لكل أفاق أعوزه المجد والغنى فى بلده فجاء يرفعه على حطامنا ، ويجمعه من عرقنا ودمائنا ...

ان السـلام والعـدل والمنطق وكل ما اتفقت عليه شرائع الأديان والانسان ، حقائق فى أذهان الضعفاء وحدهم ، أما الأقوياء فلا يردعهم الا عنيد جبار يخاطبهم بلغتهم ، ويناجزهم بسلاحهم ويتقاضاهم الثمن

---

(١) الديوان ص ١٩٤ .

فادحا رهيبا ، يفيق عليه غرورهم ، وتطيح منه وحشيتهم التى ظلت قرنين من الزمان تمتصنا وتضنينا وتفدحنا بأقسى ما تجيده الوحشية من ضروب العذاب .

* * *

وينسى بعضهم هذه كله ، فلا يتلقف صرخات الوطنية من فم الشابى وأمثاله من الشبيبة العربية ، لينفعل بها ويثرى منها فى نفسه وشعوره ، ولكن ليجعل همه كله أن ينسبها الى نيتشه أو يردها الى جبران ...

حتى الكتب العربية التى عرضت للمفكرين والأدباء الأحرار لم تلمح شاعر الخضراء ، فحين عد الأستاذ رئيف خورى فى كتابه (الفكر العربى الحديث) أديب اسحاق ، وشبلى شميل ، وفرح أنطون ، وجبران خليل جبران ، أغفل الشابى كأن هذا البيت لشاعر آخر ...

اذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر (١)

أو كأن هذه القصيدة لسواه :

أيها الشعب ، ليتنى كنت حطابا ... فأهوى على الجذوع بفأسى
ليت لى قوة العواصف يا شعبى ... فألقى اليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير ، ان ضجت ... فأدعوك للحياة بنفسى

اياكم ، أن تهونوا منها فانها زادنا على الطريق ...

اياكم أن تطامنوا منها فانها ضرام يندلع به الحريق فى كل مكان من المحيط الأطلسى حتى الخليج الفارسى ، لتعود لنا الأرض ، ويعود الرغد والخفض ، وتضىء أيامنا وتخصب أعمارنا وتهدف أحلامنا ، ويصح واقعنا ، وترهب وقائعنا وتهاب مواقعنا وتصحح مواضعنا ، ويعتز بالحاضر ماضينا ...

اذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر

خذوا هذا البيت عن الشابى حارا متوهجا ، واعتنقوه بلا مناقشة ، أو جدال يبرد حرارته أو يبدد صداه ... رددوه ألف مرة واضغطوا على كل حرف من شطره الثانى « فلا بد أن يستجيب القدر » نعم لا بد أن أن يستجيب القدر لكل شعب يريد الحياة .. لا بد أن يستجيب القدر ..

---

(١) ص ١٦٧ من نفس الديوان .

الشابى والمهجر

المهجر ... المهجر .. باب طرقه النقاد على الشابى كثيرا حتى ضج بالطرق والطارق ... لا تنزل يد الا لترتفع أخرى ، واختلطت الأصوات واختلفت التعليقات والتعليلات ، فما كنه هذه الضجة ، وما مضمونها ؟ .

يعد الأتساذ على سعد (من ضياع الوقت البحث عن مقومات شاعرية الشابى فى أسلوبه وأفكاره ، فاننا قد لا نجد فيهما الا رسوبات لقراءته وظلالا لآلهته الأدبية ، من غوته الى جبران ، ومن لامرتين الى نيتشه « من خلال جبران » وقد يكون لأدب هؤلاء الرومنطيقيين السافرين أو المقنعين ، يد كبرى فى طبع شعر الشابى بهذا الطابع الكثيب ، الحائر . وبهذه النزعة للهرب من دنيا الواقع الى دنيا الأحلام والأوهام ، وبكل هذه الأشواق الغامضة ، وبهذا التشاؤم والتهدم النفسى ، الذى تنعكس ظلاله فى كل أدبنا الحديث) (١) .

وعنده أن (من العسير تحديد شاعرية الشابى فى كنهها وفعاليتها . فهى ككل العبقريات الشعرية ، تقع فى هذا المجال السحرى ، فى هذا العالم المرصود ، والذى لا تعرف له حدود ، هذا العالم القائم على أشياء هى النغم المترف ، والأناقة فى اختيار الايقاع الراهن بين ألوف الممكنات ، وشفافية العتمات والأضواء المبثوثة هنا وهناك بين الحروف والكلمات ، والصفا المترقرق فى التأليف ، والتزويج بين الكلمات والأنغام ، والأصداء والسكينات .

ان هذه الشاعرية تقوم على اشراق الديباجة ، وغنى الجو الانفعالى

---

(١) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٩ .

المتولد من أداء الأفكار والصور ، والانفعالات بالكلمات اللازمة أكثر مما تقوم على الأفكار والصور والانفعالات نفسها) (١) .

طريقة الأداء ... حرارة الأداء ... روح الأداء ... هي التي تثرى الأفكار وتغنى الصور ، وتقوى الانفعالات فتبدو جميعها الأفكار والصور والانفعالات ، وكأنها طراز فذ فريد حتى المسبوق منها .. وهى احدى قدرات الشاعر ، بل لعلها أروع قدراته على الاطلاق ...

والأستاذ عبد المنعم خفاجى يرى أسلوب جبران قد استبد به (٢) .

ثم يضيف :

انه (كان مع ذلك لأدب طه حسين أثر فى عقليته ، وتأثر — فيمن تأثر بهم من القدماء — بالمعرى ، وابن الرومى ، والخيام ، وابن الفارض) (٣) .

أما الأستاذ فروخ فيقول على طريقته المعهودة :

(ولقد اكتسب الشابى من الأدب المهجرى ضعفا فى التركيب ، واغراقا فى الرمز وشيئا من التشاؤم والصدفية السلبية ..) (٤) ولعله هنا يلمح كتاب الأستاذ (الياس أبو شبكة) أو يسايره (٥) .

ويعيب الناقد الشاعر بضعف اللغة (٦) ، ثم يقول :

(واذا كان الشابى خريج الجامعة الزيتونية فى تونس ، واذا كان لا يعرف الا اللغة العربية ، فيجب أن تكون لغته متينة وأسلوبه على عمود الشعر العربى . ونحن نلمح ذلك فى شعر الشابى ...

.... وكذلك نرى فى شعره مقدرة لغوية ، لا شك فيها وذوقا لغويا أيضا .) (٧) .

ويبدو أنه أحس ما فى موقفه من تناقض فتراجع ... متعللا بالرمز الذى يورط الشابى — على زعمه — فى الركاكة (٨) .

---

(١) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٨ .
(٢) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجى ص ١٥٦ .
(٣) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجى ص ١٥٦ .
(٤) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٠ .
(٥) اقرأ كتاب « روابط الفكر والروح بين والفرنجة » ص ١٠٤ .
(٦) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٥ .
(٧) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٨) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٥ .

والى المهجر يرد نقمته على قومه فى زعمه (١) ، بعد أن عزاها قبلا الى مرضه (٢) ٠

ومن القائلين بأثر جبران فى الشابى الأستاذ زين العابدين السنوسى (وهو قد تشيع بالمدرسة الرمزية التى أقام عمادها فى العربية جبران خليل جبران) (٣) ٠

ويقول الدكتور احسان عباس :

ولا نستطيع أن نجد مدرسة رومانطيقية واضحة المعالم ، الا فى العصر الحديث ٠٠٠ ومؤسسها جبران كان رومانطيقيا الى أطراف أصابعه ، وصورة تكاد لا تفترق فى شيء عن شعراء الرومانطيقية بفرنسا وانكلترا ٠٠٠ وقد مجدت هذه المدرسة العودة الى الطبيعة وألهت النغمة ، وامتلأت بالحنين الطاغي ، وبالكآبة والألم ، وبالنفور من حياة المدنية ، وبالثورة على التقاليد والشرائع قدست شريعة الحب واتخذت القلب اماما هاديا ٠٠ وغمرتها الرموز الصوفية ، وثارت على الشكل ، واهتمت بالمضمون وحطمت القالب اللغوى الصلب ، ولجأت الى التحليل ، وتعلقت فى ما كتبه جبران بخيال ، لا يقر على هذه الأرض الا ليستجمع فيطير الى آفاق أعلى ٠ وقد كثر تلامذة هذه المدرسة سواء بتأثير من مدرسة المهجر ، أو بمؤثرات مباشرة من أوربا ، فاذا بها تعم البلاد العربية فتظهر فى الزهد والتصوف ، والاغراق فى الروحانية ، والميل الى الطفولة عند التيجانى يوسف بشير ، **وفى الميل الى الطفولة ، وعشق المرأة المنحوتة من الوهم فى شعر الشابى)** (٤) ٠

ومواطنوه ايضا يلحون فى نسبة شاعرهم الى المهجر ٠ فيقول قائلهم :

(**انخرط شاعرنا فى سلك هؤلاء الشعراء بعد أن طالع نتائج** قرائحهم وامتلأ وطابه ، واكتظ جرابه وضرب على قيثارتهم ، فهو لم يخترع الطريقة الموجودة فى شعره لأنه مسبوق بها ، وانما كان مقلدا لأدبائها بحذق ولباقة ٠ جعلتاه كأنه المخترع أسلوبه وطريقته ، فهو مقلدهم فى قوافيهم التى استحدثوها ، ومعانيهم التى ابتدعوها ، ومواضيعهم التى طرقوها ، ولكن فى مقطعاته الحكمية والوطنية والحماسية.

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٥ ٠
(٢) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٣ ٠
(٣) كتاب « أبو القاسم الشابى » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٥٦
(٤) كتاب « فن الشعر » للدكتور احسان عباس ص ٤٦ ٠

يسير في سبيل الشعراء القدامى . فان من طالع شعره في الغزل ، وطالع شعره في الحكمة والوطنية والرثاء ، وجدهما بعيدين في معانيهما وألفاظهما بعد المشرقين ... نسج الشابى على منوالهم وأجاد في اتباع طرائقهم وأبدع في شعره ...) (١) .

ويروى لك آخر أن الشابى :

(شب بواحة توزر الشهيرة تحت ظلال نخيلها وفي صحرائها ، فكان أول عهده بالجمال جمال النخيل ـ وبالنقاوة ـ نقاوة الصحراء ، ثم كانت معرفته بخليل جبران وبكتبه التى التهمها التهاما ! ومن لا يعرف خيال جبران الخصب ، وأسلوبه الفذ وحبه للجمال وكرهه لكل منظر ذميم ولتلك النظم الغاشمة التى تكبل الانسانية المعذبة بأغلالها الثقيلة ، تلك الأغلال التى كسرها وثار عليها كالجبار العنيد ! فلا غرو اذن أن ينحو الشابى منحى أستاذه الجليل ويترسم خطاه ، سيما وقد وجدت أفكار الشاعر اللبنانى صدى في نفسه ، على أنه لا يفقد شخصيته البارزة ولو حينا لأنه لا يحاكى أستاذه محاكاة العاجز ، بل محاكاة المقتدر حتى انه ليفوقه أحيانا) (٢) .

ومن القائلين بتفوقه عليهم الأستاذ الحليوى الذى يرى أنه (تأثر بأدب المهجر تأثرا ظاهرا ، ولكنه حين اقتفى أثر أعلامه تفوق عليهم وغلبهم ، ولا سيما في جمال الأسلوب ونقاوته ، وقوة الصور الشعرية) (٣) .

ويرى الأستاذ كرو أن التحاق الشابى بالزيتونة وفي العاصمة ، كان نقطة تحول هامة في حياته ، ملصه من كل رقابة كانت تسيطر عليه (فانهال أول الأمر على كتب المهجريين « كجبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى » يطالعها بشوق بالغ وادمان شديد . وقد ميزته هذه البذور بطابع « المدرسة المهجرية » التى تمتاز بصوفيتها الشعرية ، ونقدها اللاذع ، وحدبها على الانسانية المعذبة ، وسخريتها المرة بالحياة الراكدة والبشرية المتحجرة . وكل هذا نلمسه واضحا في آثاره الأولى من شعر ونثر) (٤) .

---

(١) الأستاذ محمد الصادق دسيس الشريف . مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر في ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٦ .

(٢) الأستاذ محجوب بن خليفة بن ميلاد . مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر في ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٢ .

(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ١٠٥ .

(٤) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٤٧ .

ثم ماذا ؟

(ذلك ما كان الشابى وذلك ما بعثه الأدب المهجرى فى روحه ، من حيوية واشراق وصفاء وسحر) (١) ٠

***

وأرى الحيوية والاشراق والصفاء والسحر ، من صفات النفس المطبوعة ٠٠ قد يزكيها هذا العامل أو ذاك ، ولكن لا يبعثها لأنها لا تموت ما ظلت الحياة ٠٠٠ ، ولا **يوجدها** لأنها لا تمنح وانما تخلق مع صاحبها فطرة وطبيعة ٠٠٠ وكم آلافا قرأوا أدب المهجر فلم يبضوا بقطرة من نبع الشابى المترقرق فى صفاء وعذوبة وحنان ٠٠٠

ولكن يدلل الأستاذ كرو على أثر الأدب المهجرى فى الشابى ، قارن بينه وبين جبران فى وصف السعادة التى قال فيها جبران (٢) ٠

وما السعادة فى الدنيا سوى شبح ... يرجى ، فان صار جسما مله البشر
كالنهر يركض نحو السهل مكتدحا ... حتى اذا جاءه يبطى ويعتكر
لم يسعد الناس الا فى تشوقهم ... الى المنيع ، فان صاروا به فتروا
فان لقيت سعيدا ، وهو منصرف ... عن المنيع ، فقل : فى خلقه العبر

حين قال الشابى :

فما السعادة فى الدنيا سوى حلم ... ناء ، تضحى له أيامها الأمم
ناجت به الناس أوهام معربدة ، ... لما تغشتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده ... كأنما الناس ما ناموا ولا حلموا
خذ الحياة كما جاءتك مبتسما ... فى كفها الغار ، أم فى كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئدا ... غنت لك الطير أم غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض ... والجم شعورك فيها انها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ... ومن تجلد لم تهزأ به القمم

* * *

ان تشابه الصدر فى البيتين ليس معناه هنا التقليد ، ان دل التشابه عليه فى أحوال مماثلة ، اذ أن أبيات الشابى التالية تنم عن دفعة شعرية تنبع من نفسه ، هو فى اتجاه خاص بها غير تابعه ٠ وقد سلم

---

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٧١ ٠

(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٧٤-٧٥ ٠

باختلاف الشابى عن جبران الناقد نفسه (١) بل قال بالنص بعد أن عرض رأى جبران فى السعادة ... (... والشابى على عكسه ...)

وقد كان الشابى من يقظة الاحساس وعرامه ، بحيث يستطيع الخلق على غير مثال ، فان الاحساس اذا تيقظ فى قلب الشاعر والفنان كما يقول الشابى :

(كان له — بالرغم منه — استقلاله الذاتى الذى يشعره بأنه قوة حسية منتجة ، من المستحيل أن تندمج فى سواها ، وأن تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب فى غيرها أو تنحط الى درك التقليد) (٢) .

وقد عاد الناقد الى حديث المهجر وأثره على الشابى فى كتابه (كفاح الشابى) (٣) .

ومن تونس أيضا ترامى الينا صوت غريب ... أقصد فيما ذهب اليه ، فهو لم يقف عند القول بأثر المهجر ... بل تجاوزه الى أبعد من هذا بكثير ... وما هذا ؟ سأنتقل بك الى مصدر الصوت ... المصدر نفسه :

(هنالك صممت نفسه على التخلص من أوقارها ، بتمهيد مسالك تنفذ منه الى التعبير عن مشاعرها على النحو الذى تطلب ، فانبعثت أمام عينيه صور من الأدب الغربى الذى تعرف اليه من خلال المترجمات ، وأنس بما فيها من صور قاتمة وروح متشائمة ، وتقل نفسه بدافع التقمص الشعورى الى الحياة الغربية التى لم يعرفها ولم يقع بصره على الوانها ، فالغاب والضباب والراعى النافخ فى نايه والثلج ، كلها أمور لم يعرفها الشابى ولم يعش فى دائرتها ، ومع ذلك كانت أكثر الألفاظ دورانا فى شعره ، فكان استعماله اياها أقرب الى الاستعمال الرمزى منه الى الاستعمال التمثيلى والمجازى ، ووجد من شعر جبران خير رائد له فى هذا الطريق ، وساعد على سلوكه فتعلق به حتى تخرج على منهجه وامتزج بروحه ، فأتى بالتأملات العجيبة العميقة فى العواطف الانسانية وأسرارها والوجود وحقائقه . وأظهر التلاقى المتحقق فى ذاته بين الحياة المودعة

---

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٧٥ .
(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٤٣
(٣) ص ٨٨ .

والموت المتوقع ، فمزج الحياة بالموت وركب من مزجهما وحدة الوجود ...) (١) .

* * *

الغاب .. والضباب ... والراعى ... كلها أمور لم يعرفها الشابى ؟ ... و (عين دراهم) التى ثبت أنه استشفى بها ... أين هى ؟ والخراف والشياه التى غنى لها ... من كان يسوقها أمامه ؟ .. أترى وصلت الديمقراطية الى علمها فانتخبت بنفسها من بينها رأسا يرعى ويقود ؟ ...

ان من يقرأ حياة الشابى ، ودفع المرض له الى رحبات الطبيعة للاستشفاء ثم ما قبل المرض من آلام واقع شعبه المرير ... أما يكفى هذا كله لايحاء مثل هذه الأبيات دون حاجة بقائلها الى ترسم أثر ؟ ..

وان أردت قضاء العيش فى دعة شعرية ، لا يغشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا فى عزلة الغاب (٢) ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاما مغردة ان الحياة وما تدوى به حلم

ويقف الدكتور أبو شادى فى هذا الزحام ناحية وحده ... مكانا قصيا لا تبلغه عدوى الزحام الذى يسير تلقائيا ... فلم يردد الصوت القائل بالمهجر ، بل رأى رأيا آخر :

(لقد كان للشابى ذاكرة فوتوغرافية ، وهو الذى أتم حفظ القرآن الشريف فى التاسعة من عمره حفظا كاملا ، كما كان له اطلاع واسع — عن طريق اللغة العربية التى لم يكن يعرف سواها — على آداب شتى مترجمة ، لا على الأدب العربى وحده ، وكانت له قبل كل هذا وبعده ، لوذعية أصيلة حلقت فوق كل تقليد وتأثر حتى منذ نعومة أظفاره ، وعلى ذلك لنا أن نعتقد أن أية مشابهة بين شعره وبين بعض الشعراء

---

(١) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور ص ١٧٩ .

وممن يرون فى الشابى بالغاب أثرا لجبران ، الأستاذ كرو . اقرأ كتابه « الشابى » ص ٥٠

(٢) المقصود بالغاب هنا « العزلة البعيدة » وسأذكر رأيى فى غابة الشابى بعد استعراض الآراء الناقدة .

المهجريين هي من باب المصادفة لا أكثر) (١) .

(ولعل أعظم تجاوب للشابي كان مع زملائه شعراء (أبولو) (٢) حتى قبل ظهور مدرستها . ونحن شخصيا أولعنا بالشابي لا لعبقريته الفنية فحسب ، بل لانسانيته الرفيعة والوطنية السامية أيضا ، وكان التجاوب بيننا تاما مع تميزه هو **بأناقة لا نعرف لها نظير الا في قصائد** الشاعر الفحل العظيم بشارة الخوري . مثال ذلك موسيقى الشابي في قصيدته الخالدة « صلوات في هيكل الحب » التي يقول في مطلعها :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد !

فهي متجاوبة مع قصيدة « عرس المأتم » التي كان يعجب بها الشابي (ديوان « زينب ») وقد جاء في مطلعها غير المسبوق الى طرازه :

عذبة أنت في الخفاء ، وفي الجهر ، وفي الهجر ، يا أغاني الظلام
بلغي العاشق الأمين مدى العمر ، شقاء لقلبه المستهام
وارقئي أدمعي ، فحسبي عزاء أن يسر الحبيب من ايلامي

ومثال آخر قصيدته العظيمة « ارادة الحياة » فانه متجاوب في مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة « النهضة ارادة » (ديوان الشفق الباكي) ، وقصيدته الجميلة « الصباح الجديد » التي يقول في مطلعها :

اسكتي يا جراح ! واسكتي يا شجون !

فهو متجاوب منها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين ، هما قصيدة « الوداع » (قطرة من يراع - الجزء الثاني) وقد جاء في مطلعها :

انتهب يا شعاع نبض قلبي الحزين
حان وقت الوداع ليته لا يحين

انتهب يا شعاع أنا ذاك القريب
ان روحي مشاع في مداك العجيب

وقصيدة « بعد الصيف » (ديوان « أشعة وظلال ») التي جاء في مطلعها :

---

(١) اقرأ كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٢٣ في معرض تعليق الدكتور أبو شادي على الكتاب تحت عنوان « كتب حية » .

(٢) اقرأ كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٢٣ - ٢٤ .

اضحـــكى يا رمال من هدير الميـــاه
غـــاب ملك الخيـــال وتجـــلى ســـواه
ذاك بحـــر الدموع من بكاء الزمـــان
فهـــو دومـــا مروع من مـــآل الهوان
كل حسن بنـــاه بيـــديه يزول
ومـــرارا رثـــاه وأطـــال العويل
واضحكى يا رمـــال من فتـــونى العظـــيم
أنـــا عبـــد الجمـــال الضرير الحـــكيم (١)

ويقرر الدكتور أبو شادى أن الشابى كان (كما كان ناجى ـ رحمة الله عليهما ـ معجبا بكلتا القصيدتين ، وكلاهما نسج على منوالهما) .

* * *

ويعارض الدكتور أبو شادى ، الأستاذ التليسى اذ يقول :

(والمشابهة بينه وبين جبران أعظم من أن توحيها المصادفة أو وقوع الحافر على الحافر ، ولكنها المشابهة التى تنتجها التلمذة . تلمذة من عكف على دراسة جبران وأدبه ومن هنا يبدو لنا خطأ الدكتور أبو شادى ، الذى كان يعتبر الشابى تلميذا من تلاميذ مدرسته الشعرية . والحق الذى لامراء فيه أن التجاوب الذى كان بينه وبين الشابى ، انما هو تجاوب شكلى لا يتعدى الصياغة اللفظية . أما التغنى بالنور فصفة بارزة فى أدب جبران ، وقد سبق بها أبا شادى) (٢) .

ويقول فى موضع آخر :

(والدراسة الواعية لانتـــاج هذين الأديبين ، تكشف مـــدى الأثر العميق الذى طبع به جبران الشابى . وتوضح أنه كان من أخلص تلاميذه وأنبغهم . ولعل الأدب المعاصر لا يعرف بين شعراء الأدب الحديث من وضح فيهم تأثير جبران كما وضح فى الشابى) (٣) .

وقد وفق الأستاذ التليسى الى المقارنة والتطبيق فى مواطن كثيرة (اقرأ فصل الشابى وجبران) من ٤٩ ـ ٦٧ غير أنه جنح الى المبالغـــة أحيانا كقوله :

(أما التشابه فى الخصائص الفنية ، فتلك صفة واضحة فى اتفاق

---

(١) ص ٢٤ من كتاب « الشابى » للأستاذ كرو .
(٢) ص ٦٥ من كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ التليسى .
(٣) ص ٥١ كتاب « الشابى وجبران » .

الأديبين على تمجيد الفن والسمو به ، على الأغراض التافهة . ولعل جبران ، قد ألقى فى نفس الشابى ، مثل هذا التقدير) (١) .

ان تمجيد الفن أمر طبيعى بالنسبة الى الفنان ، لا يحتاج الى تأثير خارجى . ويبدو أن الناقد ذاته قد حاك فى نفسه هذا الاعتراض فاحترس فى التعبير بعض الاحتراس الذى يخايلنا فى قوله (لعل) جبران ، قد ألقى فى نفس الشابى مثل هذا التقدير .

ويقول التليسى :

(ويقظة الاحساس ، ذلك المبدأ الذى قدسه الشابى وجعله كل شىء فى حياته ليس سوى فكرة جبرانية ، فاليقظة التى تجعل بطل جبران قريبا بين الناس ، لا ينقاد لتعاليمهم ولا لتقاليدهم لأنه يحس بنفسه ، ويشعر بذاته ، فيكره لها أن تذوب فى أية صورة من صور العبودية ، هى اليقظة التى تملأ عبقريا كالشابى شعورا بنفسه وبالحياة) (٢) .

وهذه الأخرى لا حاجة بها الى تأثير من الخارج فمرهف الحس المتميز الذات يحس بامتيازه وتفوقه وبعد الفارق بينه وبين الأوساط العاديين .

وأنا ألمح فى دراستى للشابى ، ان جميع ما قيل فى تأثير الشابى بالمهجر يميل فى عمومه الى تحديد جبران بالذات مثالا احتذاه الشابى وترسم خطاه ... وقد عاودت قراءة جبران على ضوء هذا الرأى حتى أتبين وجه الصواب فيه ، والخطوط العريضة فى الصورة التى رسمها الكتاب ليصوروا تقليد الشابى لجبران هى : الرومانطيقية — الشكوى ونقد المجتمع .. العزلة أو الهروب الى الغاب ....

فأما رومانطيقية جبران وأسلوبه وروحه ، فانها تتمثل فى تلك القطعة الحالمة عن النفس :

(.... وفصل الله الآلهة عن ذاته ، نفسا وابتدع فيها جمالا .

وأعطاها رقة نسيمات السحر وعطر أزاهر الحقل ، ولطف نور القمر

ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربى منها الا اذا نسيت الماضى ، وأهملت الآتى . وكأس حزن وقال : تشربين فيها فتدركين كنه فرح الحيـــاة ....

---

(١) ص ٥٨ من كتاب « الشابى وجبران » .
(٢) ص ٦٤ من المصدر السابق .

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء وحلاوة تخرج منها مع أول كلمة ترفع ...

وأسقط عليها علما من السماء ، ليرشدها الى سبل الحق ووضع في أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى ...

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الأشباح

وألبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس القزح

وأخذ الاله نارا من مصهر الغضب ، وريحا تهب من صحراء الجهل ، ورملا من على شاطىء بحر الأنانية وترابا من تحت أقدام الدهور وجبل الانسان .

وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد أمام الشهوات .

ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .

وابتسم اله الآلهة وبكى ، وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى .

وجمع بين الانسان ونفسه ...) (١) .

***

والى أمثال هذه القطعة ينسبون ألفاظ الشابى وأسلوبه ...

النسيم والعطر والكاس والتنهيد والخياليات والأشباح والشوق والتموجات وقوس قزح والحيرة والخيال والدموع والشعر ، كلها ألفاظ بلورية هام بها الشابى لا لأنها ألفاظ جبران ، ولكن لطبيعتها الشعرية التى تستهوى كل رومانطيقى شاعرا كان أم كاتبا ...

وأما نقده المجتمع فمعرضه كتابه (المجنون) حيث تجد فى قصته (كيف صرت مجنونا) (٢) اشارات بعيدة ورمزا وغموضا ... وفى قصته (الله) (٣) معنى قوامه أن الانسان بضعة من الله ، ولا شىء يدنيه من الله أكبر من هذه الحقيقة التى تفوق عنده العبادة والصلاة ... وهذا الرأى يفصله بصورة أخرى فى كتابه ، (دمعة وابتسامة) (٤) . وقد لجأ جبران الى القصص الرمزى فى ذم مساوىء الناس (٥) ونقد

---

(١) كتاب (دمعة وابتسامة) للأستاذ جبران خليل جبران ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) كتاب « المجنون » لجبران خليل جبران ص ٥ ـ ٦ .

(٣) كتاب « المجنون » لجبران خليل جبران ص ٧ ـ ٩ .

(٤) اقرأ كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران ص ٢٧ ـ ١٨ .

(٥) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران قصة « اللعين » ص ١٤ ـ ١٥ .

أخلاقهم ومظاهرهم (١) وسخر من آراء المجتمع (٢) ونقده نقدا لاذعا لا يسلم منه أحد حتى علماء الأديان . وفي قصته (العالمان) (٣) سخرية تكاد تكون تنديدا ...

فهل هذه الآراء في الناس غريبة على أحد فينا ، ان التعامل واشتباك مصالح الأفراد والجماعات تكشف عنها في كل مجتمع ، وفي كل زمان ، وانما فضل الكاتب في استقراء النفوس وتصوير انفعالاتها ، وفي اراحة القارىء حين يتخفف على يديه مما في صدره ورأسه من خلجات وآراء .

وأنت أيضا مع جبران الشاعر تتسلل الى أذنك أصوات حزينة مبحوحة ، تتألف من اليأس والهموم والسقم والصبر والرماد والهشيم والقتاد والقفر والسراب والغيوم والغروب والظلام ... فلا تلبث أي ترى نفسك وقد انتزعك جبران الى عالمه حيث يروى لك قصة حياته :

قد أقمنا العمر في وادى تسير	بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابا تطير	فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير	وأكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبا فالتهب	فغدونا نرتدى بالرماد
وافترشناه وسادا فانقلب	عندما نمنا هشيما وقتاد

يلتفت عنك الى أحلامه :

يا بلاد حجبت منذ الأزل	كيف نرجوك ومن أى سبيل ؟
أى قفر دونها أى جبل	سورها العالى ومن منا الدليل
أسراب أنت أم أنت الأمل	فى نفوس تتمنى المستحيل
أمنام يتهادى فى القلوب	فاذا ما استيقظت ولى المنام
أم غيوم طفن فى شمس الغروب	قبل أن يغرقن فى بحر الظلام ؟

ويبدو أن البلاد المحجوبة التي يتشوف اليها لم تكن الا مهربا ولو في الخيال من واقع مرير ... وأشد ما تكون الأحلام الوردية تأنقا أظلم

---

(١) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران « بين هجعة ويقظة » ص ١٦ - ١٧ .
(٢) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران « الكلب الحكيم » ص ١٨ .
(٣) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران ص ٨٢ - ٨٣ .
ويمضى جبران ينقد المجتمع والناس فى سائر كتابه ، حتى يستغلق عليك أحيانا . الست تلمح غموضا فى « عندما ولدت كآبتى » ص ٧٤ - ٨٦ ولو أن مضمونها أن الألم يعمق النفس وهو على ثقله لا يخلو من الحسد . واقرأ له أيضا « كيف ولدت فرحتى » .. ومع أن المقالين أو القصتين فلست أدرى فيما يريد صاحبهما أن يسلكهما - ترمزان الى لون من أخلاق الناس ، الا أنهما مفتعلتان أو هكذا أراهما على الأقل .

ما يكون واقع رائيها ··· فحيث يكون الكنود والجحود والتفرد يتعلق الشعراء بخيالات مفوفة توشي لهم عالما آخر على هواهم ويبدو أنهم يقنعون بهذا ويقتنعون به ، حتى يكاد الخيال عندهم يصبح حقيقة ، فيمضون في الغناء بالدنيا المسحورة ، ولها ، مبهورين كأنها ليست من بنات أفكارهم. وجبران كالشابي واحد من هؤلاء ، وهو مثله عانى من غدر الأصدقاء وجحود الناس ، وغدا متفردا فيهم وحيدا بينهم فهتف وعليه من كسف اليأس ظلمات :

هو ذا الفجر ! فقومي ننصرف عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف زهره عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف مع قلوب كل ما فيها عتيق ؟
هوذا الصبح ينادي فاسمعي وهلمي نقتفي خطواته
قد كفانا من مساء يدعي أن نور الصبح من آياته

لا تجاوب ولا صديق ، ولا تطور ·· غمز وسخرية ··· ألم اقل لك أن الأحلام تنفيس عن واقع مرير ؟ ·

ومثل هذا كما رأينا عند الشابي ، فهل كان شاعر الخضراء يقلد جبران عن تخيل ، كما يعارض شاعرا لوقوع قصيدته من نفسه ؟؟ أم أن هذه أدواء العبقرية أو الامتياز على الأقل في كل زمان ومكان ، فالشكوى واحدة لأن أسبابها متفقة ؟ ألم يملأ المتنبي قبلهما الدنيا شكوى وسبابا واستعلاء ؟ ألم يندد أبو العلاء بأخلاق الناس وطباعهم قبل أن تضع الحياة جبران والشابي ؟ ·

وهب أن الشابي لمح جبران في الشكوى والألم فما قيمة التقليد في معان عامة يرددها كل غاضب بغير قواف وأوزان ؟ انما التقليد الذى أقره دون غبن لأحد ، فهو الغناء بالغاب ، فان هذا الغناء صوت جديد وطبقة جديدة في الفن العربي · ولو أن جبران تشرب حب الغاب من الأدب الأمريكي حوله ، وعلى التحديد من الأديب الأمريكي ثورو (١) صاحب الكتاب المشهور Walden, or, Life in the woods (٢) فقد أولع هذا الأديب بالغاب ولعا جاوز الغناء والتغني حتى غدا له مذهبا يعتنقه ويطبقه ، وفلسفة خاصة ينتهجها في الحياة (٣) ·

(١) Heary Dévid Thoreau ١٨١٧ - ١٨٦٢ م ·
(٢) نقل هذا الكتاب الى العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل ·
(٣) اقرأ كتاب · Walden, or, Life in the woods
اقرأ كتاب « حياة الفكر في العالم الجديد » للدكتور زكي نجيب محمود ص ٧٧ - ٩٧

أقول هذا وأؤكده ، خلافا للدكتور شوقى ضيف الذى ينفى تأثر جبران فى هذا الصدد بالأدب الغربى عازيا (هذا الجانب عنده وعند زمانه الى فكرة الحنين الى الوطن الذى فقدوه ، وكثرتهم من الشام ، من لبنان وسوريا . فهذا الغاب الذى يفكر فيه جبران ليس الا لبنان . ذلك الفردوس الذى فقدوه ، وأرض الأحلام التى غابت عن بصره وراء الأفق البعيد . وهو ينظر اليها من نيويورك ، فيرى المسالك قد انسدت دونها ، فيتألم وتظلم الدنيا فى عينيه . ويتمنى لو انسلخ من محيطه الصاخب محيط الآلة الصماء والبشرية المعذبة ، ليتحد بوطنه ، حيث لا يقتحم عليه الحياة انسان ، وحيث يتمتع بمناظره ، ويشعر كأنه يحمله فوق صدره ، أو كأنه زهرة من أزهاره) (١) .

هل الحنين الى الوطن والهتاف باسمه يحتاج الى رمز وتورية ؟ ان جمال الهتاف فى التصريح باسم الوطن واللهج به ، ولو كان يعنى بالغاب لبنان فما الذى يمنعه من الغناء المباشر الصريح الجهير بلبنان ؟ وترديد أسمائه الدالة كالصنوبر والأرز ليخلع على الغناء خاصية تليق بوطنه وتميزه وحده ؟ ولكن الغاب منتشر فى غير وطن الشاعر . فهو ليس علما عليه كالأرز مثلا ؟ ألا يرى الناقد معى أن الصفات التى خلعها جبران على غابه لا تنطبق على لبنان أو أى وطن آخر ، أليس فى لبنان كما فى سائر الأوطان قوى وضعيف ، وخير ، وشر ، وراع ورعية ، وحزن وهموم ، وموت وقبور ، وغيرها من الصفات التى نزه جبران الغاب عنها ؟

ان الغاب عنده رمز الى حياة أفضل .. حياة أسعد مما نعيش جميعا فيها .. ان غاب جبران يذكرنا بالفلاسفة من أصحاب المدينة الفاضلة .

ومن العجب أن يفسر هتاف جميع المهجريين بالغاب .. هذا التفسير .. أيجوز فى منطق العقل أو حتى المصادفة أن يتفق جبران ونسيب عريضة وايليا أبو ماضى على أسلوب موحد فى حب الوطن والتغنى به عن طريق الرمز بالغاب ؟ ان الوطنيات فى كل الآداب صريحة جهيرة من حماس ، فهل شذت القاعدة الطبيعية عند المهجريين ، أليس الأولى أن يكون الاتفاق على الغاب من وحى الأدب الأمريكى الذى يلاصقونه جميعا ؟ .

* * *

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ١٧٤ — ١٧٥ .

أحب جبران الغاب بحكم البيئتين الأدبية والطبيعية المحيطتين به .. وعلل حبه . ليس فى الغاب سيد ولا مسود .. ولا حزن ولا هموم .. لا زيف ولا خداع ... لا رجاء ولا ملل ... لا موت ولا قبور ... الغاب ملاذ وأمل ، **فهو يهتف وبه من وقدة الشوق عاصف :**

العيش فى الغاب ! والأيام لو نظمت
في قبضتى ، لغدت فى الغاب تنتشر

بعد أن ترنم فى حنان ولذة وذهول :

ليس فى الغابات راع   لا ، ولا فيها القطيع

* * *

ليس فى الغابات حزن   لا ، ولا فيها الهموم

* * *

ليس فى الغاب خليع   يدعى نبل الغرام

* * *

ليس فى الغاب رجاء   لا ، ولا فيه الملل
وبما السعى بغاب   أملا ، وهو الأمل ؟

* * *

ليس فى الغابات موت   لا ، ولا فيها القبور
فاذا نيسان ولى   لم يمت معه السرور
ان هول الموت وهم   ينثنى طى الصدور
فالذى عاش ربيعا   كالذى عاش الدهور
اعطنى الناى وغن   فالغنا سر الخلود
وأنين الناى يبقى   بعد أن يفنى الوجود (١)

هكذا غنى جبران متشبها هو الآخر .. فطرب الشابى من الغناء والمغنى .. كان يعانى من مثل علل جبران ، فالشعر وافق هواه والشاعر كأنه غنى على ليلاه .. ظفر عنده بالدواء والعزاء ، فأقبل عليه يصغى اليه وتجاوب معه ثم حاكاه ، وزاد عليه فى المعانى والأصوات مع تفوق لغة الشابى الملحوظ ...

---

(١) ص ١٨٦ — ١٧٨ من كتاب « الشعر العربى فى المهجر » .

ومضى الشابى يردد نشيد الغاب ، يهف بالصوت حينا وحينا يرتمع به . ويمعن فى التحليق وقد غدت مشاعره فى يقظة مسحورة ...

وسنى ، كيقظة آدم لما سرى في جسمه روح الحياة النامي
وشجته موسيقى الوجود ، وعانقت أحلامه ، فى رقة وسلام
ورأى الفراديس ، الأنيقة ، تنثنى فى مسترف الأزهار والأكمام
ورأى الملائك ، كالأشعة فى الفضا تنساب سابحة ، بغير نظام
وأحس روح الكون تخفق حوله فى الظل ، والأضواء ، والأنسام
والكائنات ، تحوطه بحنانها وبحبها ، الرحب ، العميق ، الطامى
حتى تملأ بالحياة كيانه وسعى وراء مواكب الأيام (١)

انه وصف الشابى لنفسه ... لادخل لى فيه ...

* * *

وشيء آخر غير الغاب والتغنى به ... قد يكون الشابى اقتفى أثر جبران حين ساقت هذا قدماه الى مدينة الأموات (٢) ، وفى النعى على الأغنياء وظلمهم (بين الكوخ والقصر) (٣) و (طفلان) (٤) ولو أن التقاط موضوع كهذا عن اعجاب أو استطراف شيء فى رأيى غير التقليد .. أنا هنا لا أنتصر للشابى بغير قيد ولا أدفع عنه عيبا ، فقد يكون التقليد فى موضع لونا من النبوغ أو المهارة على الأقل ... ولكنه رأيى بعد دراسة متحرجة ، متحرية الدقة ما استطاعت الى ذلك سبيلا ...

وهذا التقليد بعينه أعلنه فى غير تردد ، حين أقف عند قصيدة الشابى (فى ظل وادى الموت) ... فأنت حيال هذه القصيدة تلمس وتحس وجه الشبه بينها وبين قصيدة ايليا أبى ماضى ، لست أدرى . أعنى مطالعها . فان الشابى فى قصيدته القصيرة نسبيا لم يعرج على البحر والدير والقصر والكوخ ، ولم يتعمق كنه الفكر والنفس والحياة على نحو ما فعل ايليا فى جداوله .. ولكن الروح والطابع والحيرة واحدة فى مطلعيهما ... بل انى أرى تقابلا يكاد يكون تاما بين قول الشابى :

نحن نمشى ، وحولنا هاته الأكوا
ن تمشى ، لكن لأية غاية ؟

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .

(٢) ص ١٥ – ١٨ من كتاب « دمعة وابتسامة » للأستاذ جبران خليل جبران .

(٣) ص ٨٨ – ٩٠ من المصدر السابق .

(٤) ص ٩١ – ٩٣ من كتاب « دمعة وابتسامة » للأستاذ جبران خليل جبران

نحن نشدو مع العصافير للشمس ،
وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت ،
ولكن ماذا ختام الرواية ؟
هكذا قلت للرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية »

وقول ايليا أبي ماضي :

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا ان شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي (١)

لست أدرى

وطريقي ما طريقي أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه أم أغور
أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير
أم كلانا واقف والدهر يجرى ؟

لست أدرى

جهل البداية .. جهل النهاية .. جهل الهدف من الحياة .. كنه الانسان ، وهل هو مسير أو مخير ... هذا هو فلك المعانى الذى تدور فيه القصيدتان فى مطلعيهما ...

هنا أقول بالتقليد وعقد المقارنة بين هاتين القصيدتين مستساغ عقلا ، لان المعانى الدائرة فيهما ليست من المعانى الدارجة التى وصفها أبو هلال العسكرى بأنها يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى بل انها على خاصية فيها مما يخرج على العرف العقلى والدينى ، فان الجمهرة قد اتفقت على التسليم **ببداية** لهذا العالم ، **ونهاية وسبب ومسبب** والقول بغير هذا حدث — يستحق ويحتمل النظر والمقارنة والمسايرة والمعارضة وتواجد مقلد ومقلدين ...

ولا يغض مثل هذا التقليد من الشابى ، فتدفقه بفيضه وتواصله فى حرارة وقوة وجبروت يشفع له اذ لا يعين على هذا طاقة مواضعة قانعة كطاقة المقلدين .

---

(١) لست أدرى .

هناك رصيد انسانى ضخم يرفد ٠٠٠ وموهبة أصيلة بكر تمين ٠٠٠

* * *

رحم الله الشابى الانسان ، وحيا الله الشـابى الفنان الذى مازال يعيش بيننا وسيظل بين الأحياء شعرا ، ودعاء وهتافا ونشيدا ٠ فان الفن أبدا لن يموت لأنه من الخير والجمال والحق ، وحين تزول من الدنيا العروض فان الجوهر باق فى صفاء الخير ولألاء الجمال ونور الحق ، ويبدع الخلق يضفيه على الدنيا ألوانا وأشكالا وصورا وأنغاما وقصيدا ، الرسام والمثال والمصور والموسيقى والشاعر ٠٠٠

من أغانى الحياة

شاعر ونشيد :

في الصباح الجميل ، يشدو مع الطير نافخا نايه ، حواليه تهتز
ويمشي في نشوة المتحسي ورود الربيع من كل نفس

شعره مرسل ـ تداعبه الريح والطيور الطراب تشدو حواليه
على منكبيه مثل العمقس وتلغو في الدوح ، من كل جنس

وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول أو يغني بين الصنوبر ، أو يرنو
يرنو للطائر المتحسي الى سدفة الظلام الممسى

فاذا أقبل الظلام ، وأمست كان في كوخه الجميل ، مقيما
ظلمات الوجود في الأرض تغسي يسأل السكون في خشوع وهمس

سهمة وتأميل :

عن مصب الحياة ، أين مداه ؟ وأريج الورود ، في كل واد ،
وصميم الوجود ، أيان يرسى ونشيد الطيور ، حين تمسى

وعزيم الرياح في كل فج وأغاني الرعاة أين يواريها
ورسوم الحياة من أمس أمس سكون الفضا ، وأيان تمسى (١)

مبهور مسحور حالم سعيد .. حبه

في جوف الليل ، يناجيه وأمام الفجر ، يمجده

وعلى الهضبات ، يغنيه آيات الحب ، وينشده

ويرى الآفاق فيبصرها زمرا في النور ، تراصده

(١) الديوان ـ قصيدة « النبي المجهول » ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

ويرى الأطيار ، فيحسبها أحلام الحب تغرده
ويرى الأزهار ، فيحسبها بسمات الحب توادده

أرأيت .. « توادده » هذه أليست عذبة ناعمة كهناءة السعيد ؟؟

فيخال الكون يناجيه وجمال العالم يسعده
ونجوم الليل تضاحكه ونسيم الغاب يطارده
ويخال الورد يداعبه فرحا ، فتعابثه يده
ويرى الينبوع ونضرته ونسيم الصبح يجعده
وخرير الماء له نغم نسمات الغاب تردده
ويرى الأعشاب وقد سمقت بين الأشجار تشاهده
ونطاف الطل تنمقها فيجل «الحب» ويحمده(١)

انه حلم الشباب فى كل جيل وكل قبيل ...

أشواق تائهة ملتاحة :

ياصميم الحياة ! انى وحيد مدلج ، تائه ، فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة ! انى فؤاد ضائع ، ظامىء فأين رحيقك ؟
يا صميم الحياة ! قد وجم الناى وغام الفضا . فأين بروقك ؟
ياصميم الحياة ! أين أغانيك فتحت النجوم يصغى مشوقك ؟(٢)

وهناك قصيد استشهدت به .. فى معرض الدراسة واستشهد به غيرى ولكنه يحلو حتى على التكرار والترديد .. نعم انها صلوات فى هيكل الحب :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال ، وشباب منعم أملود
يالها من طهارة ، تبعث التقديس فى مهجة الشقى العنيد
يالها رقة تكاد يرف الورد منها فى الصخرة الجلمود

أى شىء تراك ؟

حيرة ولهى نشوان .. حيرة معسولة سعيدة .. وأكثر من هذا فى استفهام الشاعر ..

(١) الديوان ــ قصيدة « صفحة من كتاب الدموع » ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « الأشواق التائهة » ص ١١٢ .

أى شيء تراك ؟ هل أنت (فينيس) تهـادت بين الورى مـن جديد
أنت ٠٠، ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقرى مـن فن هذا الوجـود
فيك مافيه من غموض وعمق ، وجمـال مقـدس معبـود
أنت روح الربيـع ، تختـال فى الدنيـا فتهتز رائعـات الـورود
وتهب الحيـاة سـكرى من العطر ، ويدوى الوجـود بالتغـريد
أنت أنشـودة الأناشـيد غناك اله الغنـاء ، رب القصـيد
أنت ٠٠ أنت الحياة فى قدسها السامى ، وفى سحرها الشـجى الفريد
أنت٠٠أنت الحياة ، في رقة الفجر وفى رونق الربيـع الوليـد
أنت ٠٠ أنت الحياة ، كل أوان فى رواء من الشـباب ، جـديد
أنت ٠٠ أنت الحياة فيك وفى عينيـك آيات سحرها الممـدود
أنت دنيا من الأناشـيد والأحـلام والسـحر والخيـال المديـد
أنت فوق الخيال، والشعر ، والفن وفوق النهـى وفوق الحـدود
أنت قدسى، ومعبدى، وصباحى، وربيعى ، ونشوتى ، وخلودى(١)

أين رأى الشاعر كل هذا الجمال ؟ لا تصف لى بعد هذا أفـراح الشفق ، ووداعة الغروب ، وسحر الأصيل ، وسر الليل ، وعذوبة الفجر ، وهدأة السحر ٠ لا تصف لى لمس النسيم ، وهمس البنفسج الخجول الحالم ٠٠ لاتصف لى وسوسة الغصون ، وهسهسة الغدير بين العشب والزهر ٠٠ لاتصف لى وخلنى فى سبحاتى مع الشاعر فى هيكل الحب ٠٠ حقا ٠ هل رأى الشاعر كل هذا الجمال ٠٠ ليتنى أتأكد حتى لا آسى عليه اخترم والعمر غض ، والشباب فينان واعد ٠٠ فساعة فى حضرة مثـل هذا البدع من الخلق تخصب العمر كله ٠ فيعدو طويلا مديدا مشبعا ممتعا ، وان كان خمسة وعشرين ربيعا فى حساب الأيام ٠٠ ليس موتا غيابه ٠٠ لقد أمعن فى التحليق فرفع ٠٠

يـوم جـديد :

أقبل الصبح يغنى للحيـاة الناعسه
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسه
والصبا ترقص أوراق الزهـور اليابسه
وتهـادى النور فى ذلك الفجـاج الدامسة

أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفق بهاه
فتمطى الزهر ، والطير ، وأمواج الميـاه

(١) الديوان ـ قصيدة « صلوات فى هيكل الحب » ص ١٢١ ـ ١٢٤ ٠

قد أفـاق العـالم الحى ، وغـنى للحيـاه
فأفيقى يـا خرافى ، وهـلمى يـا شـياه
واتبعينى يا شـياهى ، بين أسراب الطيـور
واملأى الـوادى ثغـاء ، ومراحـا وحبـور
واسمعى همس السواقى . وانشقى عطر الزهور
وانظرى الوادى ، يغشيه الضـباب المسـتنير (١)

بالطبع لفتك تمطى الأمواج والضباب المستنير ٠٠ هكذا رأى خيال الشابى انفراج الموج ، وشفافية الضباب التى لا تحجب النور ٠ فمن حقه على الشاعر أن يدعوه ضـبابا مسـتنيرا ما دام يضيء ، وإن كان لفظ « الضـباب » له جرس معتـم ٠٠ ولكننا هنـا فى « عين دراهم » الساحرة ٠٠

***

عـالم ثان :

فـى فـؤادى الرحيب معبـد للجمـال
بالرؤى ، والخيـال شـيدته الحيـاة
فى خشـوع الظلال فتـلوت الصلاه ٠٠٠٠
وحرقت البخـور ٠٠٠ وأضأت الشـموع (٢)

***

هتـاف مهيب :

اذا الشعب يوما أراد الحيـاة فلابـد أن يستجيب القـدر
ولابد لليـل أن ينجـلى ولابد للقيـد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر فى جوهـا واندثر (٣)

***

اثارة مهتاجة :

أين ياشعب ، قلبك الخافق الحساس ؟
أيـن الطمـوح ، والأحـلام

---

(١) الديوان — قصيدة « من أغانى الرعاة » ١٥٢ — ١٥٣
(٢) الديوان « الصباح الجديد » ص ١٦٠ ٠
(٣) الديوان « ارادة الحياة » ص ١٦٧ ٠

أين ياشعب ، روحك الشاعر الفنان
أين ، الخيال والالهام
أين ياشعب ، فنك الساحر الخلاق
أين الرسوم والأنغام ؟
ان يم الحياة يدوى حواليك
فأين المغامر ، المقدام
أين عزم الحياة ؟ لاشىء الا
الموت ، والصمت ، والأسى والظلام
عمر ميت ، وقلب خواء
ودم ، لا تثيره الآلام
وحياة ، تنام فى ظلمة الوادى
وتنمو من فوقها الأوهام
أى عيش هذا ، وأى حياة
(رب عيش أخف منه الحمام)(١)

(دم لا تثيره الآلام) بلادة متجمدة ليست من طبيعتنا الشرقية ، ولكنه من لظاه صرخ هذه الصرخة ليفتح النيام عيونهم على ما يدبره المستعمر وعملاؤه لهم ، علهم يفيقون .

(١) الديوان ــ قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ .

المراجع والمصادر

« مرتبة حسب ورودها فى الكتاب »

١ ـ رائد الشعر الحديث	محمد عبد المنعم خفاجة
٢ ـ الشــابى	أبو القاسم كرو
٣ ـ مجلة الامام	مصر
٤ ـ الشابى وجبران	خليفة محمد التليسى
٥ ـ مجلة الفكر	تونس
٦ ـ مع الشابى	محمد الحليوى
٧ ـ مجلة أبولو	مصر
٨ ـ كفاح الشابى	أبو القاسم محمد كرو
٩ ـ شاعران معاصران	عمر فروخ
١٠ ـ الشاعران المتشابهان	أبو القاسم محمد بدرى
١١ ـ دراسات فى الشعر العربى المعاصر	الدكتور شوقى ضيف
١٢ ـ مذاهب الأدب	محمد عبد المنعم خفاجه
١٣ ـ ذكرى الشابى	لمجموعة من الأدباء
١٤ ـ أبو القاسم الشابى « حياته » « أدبه »	زين العابدين السنوسى
١٥ ـ ديوان بهاء الدين زهير	
١٦ ـ مجلة الآداب	بيروت

١٧ ـ مجلة النـدوة	تونس
١٨ ـ الحركة الأدبيـة والفكرية في تونس	الشيخ محمد الفاضل أبو عاشور
١٩ ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	مصطفى عبداللطيف السحرتي
٢٠ ـ الشعر وقضيته	ابراهيم العريض
٢١ ـ الفكر العربي	رئيف خوري
٢٢ ـ فن الشعر	احسان عباس
٢٣ ـ مجلة الشباب	تونس
٢٤ ـ روابط الفكر والروح بين العرب والافرنجة	الياس أبو شبكة
٢٥ ـ المجنـون	جبران خليل جبران
٢٦ ـ دمعة وابتسامة	جبران خليل جبران
٢٧ ـ والدن أو الحيــــاة في الغـابة	ترجمة أمين مرسى قنديل
٢٨ ـ حيـــاة الفكر في العالم الجديد	زكي نجيب محمود
٢٩ ـ الجداول	ايليا أبو ماضي

ـ الأخطل الصغيرُ

مقدمة

بشارة الخورى أو الأخطل الصغير كما يطيب له أن يسمى نفسه ، شاعر عذب الصوت ، رقيق الشدو ، معجب الغنـاء ·· وما الى تزكيته قصدت ، ولكنها صفاته الغاليـة عليه والتى تجذب اليه محبى الأدب والشعر فى العالم العربى ، وكل مترف الحس والذوق من عشاق الفن الجميل ·

لقد استقبل العالم العربى ديوان الشاعر (الهوى والشـباب) استقبالا طيبا حفيا جاوز تقدير الشعر الى اعزاز الشاعر وتكريمه ·· ولم تقصر مصر فى هذا المضمار ، بل لعل حفلها الذى أقامته من أجل السيد بشارة الخورى هو الذى أوحى الى أن أجعل من تحيتى فى الحفل دعامة دراسة للشاعر وشعره رمزا باقيا لحفاوة ضفاف النيل بربوع لبنـان ·

وهذه الدراسة التى يقوم بها هذا الكتاب انما هى دراسة موضوعية بحتة لديوان (الهوى والشباب) ··

وكنت أود أن أحيط بحياة الشاعر ونفسه التى كان لنا منها هذا الشعر ·· حياته بتجاربها وأحلامها وأوهامها ومخاوفها وأمانيها وآلامها وأفراحها · ونحوسها وسعودها ، وفشلها والنجاح ·· ولكن هذا كله لا يتيسر لى وأنا فى مصر ·· وكلها أمور تحتاج الى الافضاء المسترسل ، والبث الهادىء المطمئن ، والسمر الودود الصريح من اخلاص للمنهج

السليم فى البحث الأدبى ٠٠ فكيف يسمر الجبل مع الوادى وبينهما من البعد ما يضيع فيه الصوت الجهورى بله الصوت السـمير ؟ ٠٠ اذن لنكتف الآن بهذه الدراسة الموضوعية ٠٠ الدراسة المجتزئة ـ الى حين ـ بديوان (الهوى والشباب) ٠

القاهرة فى ١٥ يوليو ١٩٥٤

نعمات أحمد فؤاد

شاعر الوصف

ديوان الهوى والشباب ديوان مختلفة الوانه ففيه الوصف وفيه الغزل وفيه القصة وفيه غناء بالطبيعة وغناء للانسان .. وكلها كما ترى رؤوس موضوعات ونقط ابتداء فبأيها نستهل .. أبالوصف ؟ ما من شك أن بشارة الخورى شاعر وصاف نابض الوصف بالصوت واللون والحركة .. والمثال عندى يتمثل فى وصفه لبنان الذى يحدثك عنه فى مطلع ديوانه حديث ولوع .. لبنان

كيف التفت فجدول متـــأوه تحت الغصـون وربوة تتبسم
أكمـــاته البيضـــاء تحت سـنـمائه الزرقاء أطفـال تنام وتحـلم
تتصاعد القبلات من أنفاسـها وتمر بالوادى الوديع وتلثم

ثلاثة أبيـات فيهـا من الصوت طبقتان : التأوه والهمس الذى توسوس به القبلات المتصاعدة من أنفاس الأكمات البيض .. وفيها من اللون الأبيض والأزرق .. وفيها من الحركة والهيئة والصورة ابتسام ربى ، ونوم أطفال ، وأحلام ملائكة . وأنفاس أكمات ، ولثم قبلات .

لست أدرى لماذا يذكرنى هذا الجيشان الحافل بابن الرومى مع مابين الشاعرين ، وبين النزعتين من اختلاف .

وفى شعره ترف وأناقة وتفويف ونعومة المخمل أو أوراق الورد ، **وهل هناك أنعم من هذا البيت :**

ليل حريرى النسـيج كأنه شـكوى الهوى وصبابة الملتاح

ليل وحرير وشكاة هوى ووجد وظمأ قلب وتشوف حب وتحرق مشوق .. أى ليل هذا تراه ؟

وعلى الضفاف اذا تموجت الضحى لونان من أرج ومن تصداح
والغصن في حضن الرياض وسادة نمت على عنقين من تفاح
متلازمين توجسا اثم الهوى متخوفا طرف الضحى اللماح(١)

وصف مترف أنيق ..

وهو يبدع حين يصف غرام البادية فى سذاجته وبراءته كالفطرة الأولى ويتخذ مادة لوصفه « عروة وعفراء » من فتية « الأغانى(٢) »

فاذا هما فى غرة الحداثة :

يتراكضان بها ـ فان هما بوغتا فيها ـ فبالأوراق يختبئان
ولطالما وقفا على الوادى وقد صرخا هناك ليلتقى الصديان
مزجا فلو خطرت (لعفرا) فكرة بدرت بها من عروة الشفتان

وصف جميل للتشارب ..

واذا التقى النظران تلمع أسطر يعيا بحل رموزها الولدان

طفولة عاشقة ولا تدرى ...

حتى اذا كبرا تولى شرح ما لم يفهما قلباهما الخفقان

لقد أدرك الصغيران كل شيء ..

فاذا وافت المحب الأمنية فانما هى :

تعمى على كبد الفتى سقطت كما سقط الندى سحرا على حران
فأحس أن له جناحى طائر وبدت له زهر النجوم دوانى
فجرى يرقص عوده الشعرى على صدر المروج ومعصم الغدران
فيصوغ هينمة النسيم قصائدا ويرد زمزمة الغدير أغانى

صورة معجبة بلا شك فيها خفة ونشوة وانطلاق ..

وقد يتهافت وصف الشاعر أحيانا رغم ما يوفره له من حلى اللفظ . وأنا هنا أعنى قصيدته (العيون) . فان وصفه للعيون سواء ما جاء به من عنده أو ما ترجمه عن الشاعر الفرنسى سوللى بريدوم ، وصف رتيب ليس فيه الحرارة والروح .. لم يرو الشاعر شيئا من حديث العيون ، ولم يفض بشيء من أسرارها ولم يترجم معانيها وهى جمة ..

---

(١) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ص ١٥٥
(٢) قصيدة (عروة وعفراء) ص ٦٨ ـ ٦٩ .

لم يحدث عن رقتها وحنانها ، وعن قسوتها وائتلاقهـــا ، وعن تغابيها وذكائهـــا ، وعن غشاوتها ونورها ، وعن بســـمتها وعبوســـها ، وعن محاورتها ومصاولتها ، وعن حزنها ودموعها ، وعن دهشتها واستغرابها ، عن جهلها وحلمها وعن حدسها ويقينها ، وعن عبثها وجدها ، وعن تهافتها وقهقهتها ، عن لغاها وصمتها ، وعن هدأتهـــا وصخبها ، وعن اتزانها وعربدتها ، وعن عيها وبيانها ؟ وعن سكونها وحديثها ، وعن التياحها وريها ، وعن مناها وأحلامها ، وعن حنينها وأشواقها ، وعن قلاها وبغضها ، وعن كدرها وصفوها ، وعن يأسها وأملها ، وعن نظراتها وأسلحتها ، وعن وداعتها واستسلامها ، واذعانها وتسليمها ، وعن اصرارها وعنادها ، وعن كذبها وصدقها ، عن اخلافها ووعودها ، وعن بثها وافضائها ، وعن مراوغتها وتصريحها ، وعن وشايتها وكتمانها ، وعن صحوها ونومها ، عن فتنتها بشرها وخيرها ، وعن سعودها وأقدارها ، وعن فنها ومعجزاتها. وعن استبدادها وسيطرتهـــا ، وعن نجلها وحورها ، ووطفها ودعجها ، وعن ·· عن عديد من أحوالها ··

حتى سحر العيون وأفاعيل جمالها كان الشاعر يلمحها لمحا هادئا ، ولا أريد أن أقول باهتا ·· في مثل قوله :

ما عجيب ومقلتـــاك ظـــلام　　　أن تكونا مستودعا للضـــياء
تنسجان الحياة حينا وحينـــا　　　تنسجان الممات للأحياء (١)

لقد طابق حقا بين الظلام والضياء · والحياة والممات ·· ثم ماذا ؟

---

(١) قصيدة العيون ص ٤١ ·

الطبيعة فى شعره

ويتصل بشعره الوصفى شعره فى الطبيعة ، والحديث عن الطبيعة حديث موشى بطبعه ، مصقول بطبيعته • فالطبيعة من الجمال ، والخصب والغنى حافلة بمباهج شـــتى ومفاتن تأخذها العين العادية العابرة فكيف بعين الشاعر المرهف الحس ، الرفاف النفس • المفتوح العين ، المتفتح القلب ، المهيأ لاستقبال الجمال ، المفطور على التغنى به ؟ ولا يبلغ هذا الكلام تمام صدقه بقدر ما يبلغه فى ديوان شاعرنا بشارة الخورى •

اننا ما نكاد نصافحه فى الاهداء حتى ترقى الى أسماعنا موسيقى عذبة صافية تتألف من خرير الجدول المتأوه وهو ينساب تحت الغصون انسيابا نغميا مرسلا ، واهتزاز الربوة بالنبات وهى تتبسم ، وهمس الأكمات البيض تحت سماء لبنان الزرقاء وهى تنام وتحلم ، ووسوسة القبلات التى تتصاعد من أنفاسها وتمر بالوادى الوديع وتلثم •

ولعلك تذكـرت الآن قصـــيدة لبنان التى مرت بنا والتى أهداها الشاعر الى وطنه الحبيب •

واحساس الشاعر القوى بالطبيعة يسرى منه الى قارئه •• فالأستاذ عادل الغضبان يتهيأ لتقديم الديوان فاذا بالقلم فى يده يسطر مسحرا :

نفح الريحان وشعاع الصهباء •

وحمرة الشفق وخضرة الأرز •

ونعومة الحرير ورقة خدود الورد •

اذا جبلت بندى الصباح وبسمة الفجر ونفخ فيها النسيم من نفثاته كانت صورة صادقة لروح بشارة الخورى شاعر الهوى والجمال ·

وهذا كلام ند لم تستطع المنافسة الطبيعية بين القرينين أن تخفى اعجابه ، و تحجب هتافه ·

ولعل الطبيعة بألوانها وشبابها وتجددها وتألقها هى التى صفت نفسه حتى شفت ، وعكست عليها صـــور الجمال وسكبت فيها معانيه فصارت تغنى به وتتعبد فى محرابه حتى لتخال شـــعرها فيه ترنيمة صـــلاة ·

يتمدح فيتمثل غرة الفجر والقطر والندى والزهر والشذى والظلال والربى ·· ولقد تستغرقه الطبيعة فلا يخلص الى الممدوح الا وقد قطع من القصيدة ثلثيها ·· وأنا أعنى هنا قصـــيدته (زاهرة الربى) فى الشاعر فارس مشرق ··

ويصف فاذا الليل والشمس والمياه والنسيم تتواكب فى أبيـاته كأنها فى سباق ·· ويسترحم فاذا نجمة تهمس بأذن أخيها همس ثغر الندى بمسمع ورد ·· ويسمع البلبل فينتشى ويمضى يؤلف ويؤاخى بين الصوت الجميل والفجر والزهر وكل ما فى عالم الروض من روائع ·

ويدير الحديث بين بنية وأمها فاذا به ينسجه من الضحى والدجى والروض والرمان والغصن والورد ، والأوراق والبحر فاذا بالبنت فى عين خيالك كأن السوسن عكس على محياها صـفاه فتألقت ، كأن الورد أراق على وجنتيها حمياه فأشرقت ، وكأن الغصن علمهـا كيف تميس فسارت ، وكأن الليل رقرق فى سمعها أناشيده فنطقت شعرا ، وتكلمت موسيقى ·

ولست تسمع هذا الغناء فى حالة رضاه فحسب ولكنه فى غضباته أيضا لا ينفك يهزج باسمها ويغنى بها ·· ورحم الله شـــاعرنا شـوقى اذ يقول (ورب شجو سمعته من شاد) ··

لقد صدر الأمر باقفال جريدته فثارت شـاعريته بالطبع ، ولكنك تعجب حين تسمعه ينفث مرارته على هذا النسق ·

ياهنـد قد ألف الخميلة بلبـل ... يشدو فتصطفق الغصون وتطرب
هو شـــاعر الأطيـار لا متكبر ... صلف ولا هـو بالامـارة معجب
تتعشق الأزهار عذب غنـــائه ... فاذا شـــدا فبكل ثغـر كوكب

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب(١)

لا مراء أن القصيدة رمزية وأن نهجه فيها أشبه بمنهج القانونى الذى يعى باختيار حالة مضادة كما يقول الأستاذ العقاد فى موضوع آخر ٠

وهو لايصف البلبل بأنه ليس متكبرا ولا صلفا ولا هو بالامارة معجب ٠٠ لا يصفه بهذا اعتباطا ولكنه يخز أعداءه كما وخزهم مرة أخرى ببيته :

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب

ولكنه مع هذا وخز لا يسيل دما ولا ينكأ جرحا ٠٠

وينفى الشاعر النسيان عن وفائه فيستعيد مناظر الطبيعة التى شهدت عهوده وكأنه يقسم بالجمال والجلال ألا ينسى ٠٠ ويسمو بصره الى وطنه فيتغنى بطبيعته ويهب نفسه فداء :

لمنبت الشيح فيه ومسرح الآرام
هناك سينا التجلى ومهبط الالهام (٢)

ويقتبس عن الفرنسية قصيدة (قلب خافق) (٣) فاذا الطبيعة وسنانة حتى نجوم الأفق خدرها النعاس ٠٠ واذا جبال لبنان :

خلع الجلال على منا كبها مواهبه الجسام

واذا السهل فى حضن الطبيعة كالغلام ٠

يغفو ويحرس ثغره روح البنفسج والخزام

حتى قصيدة عيد الجهاد (٤) فيها خضرة الأرز وفيها أيكة غريدة ٠

ويرثى شباب شاعر فلا تحجب الدموع عنه مراثى الطبيعة التى يتسلل اليها من باب الرد على الذين :

عجبوا أن يموت فى ريق العمر ويطوى كالبرق سفر حياته

فكان رده :

أيلام الورد الجنى اذا جف رحيق الجمال فى وجناته

---

(١) قصيدة (الصوت موهبة السماء) ص ٤٩ ٠
(٢) قصيدة « فدى للبنان نفسى) ص ٥٣ ٠
(٣) قصيدة آه ما أحلى الحميا ص ١٤٥ ٠
(٤) قصيدة عيد الجهاد ص ١٦١ ـ ١٦٢ ٠

واذا كان عمره بعض يوم   وتمشي الذبول في ورقاته
غاية الورد أن يضمخ هذا الجو بالمستحب من نفحاته
ما عليه أن جاز غايته القصوى وعد الزمان من ساعاته (١)

وعلى هذا النسق اطردت حججه الشعرية لو صح هذا التعبير .

والقرية والجبل والسهل والزهرة وبردى كلها له مهابط الهام وبنات وحى .. يقف ركبه عند القرية تتوج رأس الجبل فيغنيها :

أيتها الفتانة الصغيره   أنت بتاج ملك جديره
من القرى اشتقوا لك اسم القريه   وعطل السفح فكنت الحليه
شاعرك البلبل ذو الالهام   وعودك الجدول ذو الأنغام
والغيمة البيضاء مثل القبه   كأنها من الحرير جبه
تضم أعناق الربى وتلثم   فليس الا شفة ومبسم
كم طربت شمس لهذا المشهد   فمسحت جبهته بالعسجد (٢)

لا شك أنه يحس جمال الطبيعة ويسمع أصواتها ويميز ألوانها . وهو مصور .. ولكن آلته الفوتوغرافية لا الريشة ، وان كان صاحب فن في (الرتوش) .

وفي (زحلة) التي (أسرفت في فتن الجمال) يقول :

يا زحل كم من شاعر لك عاشق   لولا الذى توحين لم يك شاعرا
أسرفت في فتن الجمال كأنما   تخذ الجمال على ذراك منابرا
والنهر روح العاشقين ودمعهم   ملقى على قدميك يلهث خائرا
سالت جراحات الهوى في صدره   ليلا فقبلها النسيم محاذرا
و (السهل) يحلم منذ كان بزورة   لبس الحلى لهاندى وأزاهرا (٣)

هو يصف الطبيعة وقد يشيع فيها الحركة ويبعث منها الصوت ولكنه لا يستنطقها .

ومن قصيدته (زاهرة الربى) :

لم أنس حين دخلت روضك غدوة   والزهر بين مزرر ومشقق
فقطفت أول قبلة من وردة   ورشفت أول مبسم من زنبق (٤)

---

(١) قصيدة الشباب الداوى ص ١٦٩ .
(٢) قصيدة القرية ص ٩٠ .
(٣) قصيدة (زحلة) ص ١١٣ .
(٤) قصيدة زاهرة الربى ص ١٢٥ .

تحية معجب ، ولكنها دون ولع « جرترودستيز » حين تهتف مفتونة مسحرة . وقد رأيت الورد : الوردة هي الوردة . هي الوردة . هي الوردة ..

لقد جنت بالورد جنونا شريفا كما يدعوه الأستاذ سلامة موسى (١) .

وقد يجعل ملتقاه في حضن الطبيعة ولكنه يجعل منهـا متفرجـا فحسب ، اذ هي لا تشاركه نعيمه :

ليتهم يذكرون ليـلة كنـا والهـوى نحـن أمه وأبـوه
وعيـون النجوم ترنـو الينـا ولسـان الدجى يكاد يفوه
والنسـيم الخفيف يلهـو بثوبينـا كطفـل أهلوه ما هذبوه (٢)

النجوم ترنو ولا تزيد ، والنسيم يلهو بثوبه كطفل عابث .. واللهو والطفولة لا يتأتى معهما ادراك .. فلم يشرك الشاعر النسيم معه .. ولم يفض اليه ولم يجعله يشاطره .. انه وصف من الظاهر ..

ومن قصيدة (زاهرة الربى) :

صـلى لك الوادى برهبة ناسـك وضـباب مبخـرة وهامة مطرق
وأبو الربى صنين قام كشمعـة بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى
يتوقد النجم السنى برأسـها فترى بوادر دمعها المترقرق
لك فى السـماء نجومها فتاشمى وعلى المهـاد زهورها فتمنطقى
وعليه من وشى الحضـارة مطرف رفت عليـه صـنعة المتأنق (٣)

رفت عليه صنعة المتأنق ... انى أحس فى تعبيره هـذا روحـا مجنحة هفافة ... انه شاعر متأنق ... ولكنه لم يأتلف بعد مع الطبيعة ائتلافا كليـا ...

ومن قصيدته (أنا ناى الهوى)

أيهـا البلبل المغـرد فى الليل على كل أخضر ميـاد
غمرتك النجوم بالقبـل السكرى فنقر يا ساحر المنقـاد
يا شقى الهوى جفاك الذى تهوى ومل الظـلام مما تنادى
خلق الله للهوى قبلـة الروح وراء الخـدود والأجيـاد
أنا أدرى بالطير حين تغنى كم جراح سالت على الأعواد (٤)

(١) من مقال أشعار فى السماء .. الاخبار ١٩٥٤/٢/٢٨ .
(٢) قصيدة قلت أهواك ياملاكى ص ٣٩
(٣) قصيدة زاهرة الربى ص ١٢٦ .
(٤) قصيدة أنا ناى الهوى ص ١٤٣ .

أما رأيت أنه يفهم عن البلبل نداءه ويشاطره همومه . ويحس شجى الأطيار . بل يستشفه خلل غنائها ولا يخدعه منها هذا الغناء ... ولكن الطبيعة التى يسمعها لا تسمعه ولا تجاوبه ... وما ظلمته فهى كشجر الخابور لا يهمها منا ضحكنا والبكاء اذ هما لديها سواء ... ولكن على الشاعر وحده يقع اللوم ... اذ ينبغى أن يتقدم منها خطوة أخرى بعد الوصف الخارجى . ينبغى أن يتعمق حركاتها وسكناتها ويرهف السمع فى مجاليها فيسمع هتفة الوردة حين تخرج من الكم ، ويسمع لفيف الزهرة حين تخايلها الفراشة ذات الألوان ، ويسمع حفيف الشجرة فى جوقة الألحان ، ويسمع زفيف الريح حتى فى الليل الصاخب ، ويسمع انثناءة الغصن فى حنوه على الغدير ، واعتداله ، فى انصياعه للنسيم ، يسمع كل خطرة وكل رفة ، وكل لفتة ... ينبغى للشاعر أن يصطنع مع الطبيعة سيرة النحل مع الزهر يتودد اليها ويسارها ويشاكيها الهوى ويشور جناها ، ويزيد عليه ان يستنطقها ويكب عليها من نفسه ولو قدرا تحس به معه ، وتشاطره ، وتختلج من أجله .

يقول الأخطل الصغير (١) :

أنا ساهر والسهل فى حضن الطبيعة كالغلام
وكأنه فتحت ذرا عيها ليهنأ بالمنام
يغفو ويحرس ثغره روح البنفسج والخزام
السهل نام فلا حرا ك ولا هتاف ولا بغام

صورة هادئة كالعناصر المشتركة فى تكوينها فالأمومة المفتوحة الذراعين ، والطفولة الوسنانة الموعودة بالهناء الماثل ، والاغفاء والبنفسج كل هذا يلطف ويفتر . واذا كان السهل قد غشته تهويمة من نعاس فلا غرو أن تكون صورة الشاعر هادئة ساكنة لتكون انعكاسا صحيحا للجو الذى صورته ، وترجمة صادقة للمنظر الذى تحتفل به وله .

أنا ساهر والبحر أخرس لا هدير ولا احتدام
كالمارد الجبار منطرح على صدر الرغام
فكأنه والرمل الفا صبوة منذ الفطام
فتعانقا عند المنام وملء ثغرهما ابتسام
فى ذلك الصمت الرهيب وذلك الليل الجهام
ما كان يخفق غير قلب كاد يتلفه السقام

---

(١) قصيدة قلب خافق ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

ليس بينه وبين الطبيعة تجاوب ··· هو حقا مفتون بها افتتانا ينم عنه وصفه لها وغزله فيها ولكنها ··· لكنها هي لا تشاكيه الهوى ولا تصغى اليه مجرد اصغاء ·· بله مجاذبة الحديث ومشاطرة الأسى حين البأساء ومضاعفة الفرح عند الظفر ···

ما أعظم الضوضاء يحدثها ... فؤاد المستهام
اذ راح يخفق وحده ... خفقان أجنحة الحمام
فى مثل ذا الصمت الرهيب ... ومثل ذا الليل الجهام

يرى فى خفوق قلبه وحده ضوضاء تهوله ، وأرى فيه وحشة ترهق · وقد قرأت له قصيدته (سلى الليل) (١) حتى بلغت قوله ·

حياتى هل ثغر البنفسج يفتر ... كعهدى وهل يجرى كعادته النهر
وهل يذكر الصفصاف اذ نحن عنده ... وفي اذن الظلماء من همسنا نقر

ففرحت له وحسبته بدأ ينسل بين منعطفات الطبيعة ليتصادق معها ، فاذا به يقف عند الخطوة الأولى لا يريم اذ أخذ فى موضوع آخر وشرع **يقول :**

سقيت مرارات الحياة فلم أجد ... كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر

ولست أنكر أن الشاعر يسنح له أحيانا الاتصال بالطبيعة فى مواضع متفرقة من ديوانه ··· بل انى أتلمس هذه المواضع تلمسا لأهتف بها وأفرح بوثبة شعرنا العربى عامة نحو هدف كريم ، ولكنها مواضع معدودة وان حفل الديوان بوصف جمال الطبيعة ··· وصف المشاهد الدقيق الملاحظة لا وصف المندمج فيها ، المتحد بها ··· ليته **يكثر من مثل قوله :**

عذرتك ياقلب من للهوى ... أنتركه بعدنا يذبل
سكتنا فما غرد العندليب ... وتبنا فما صفق الجدول (٢)

وقوله :

كلما غنيت لحنا ... فى ديار البلبل
سرق اللحن وألقا ... ه بأذن الجدول (٣)

---

(١) قصيدة سلى الليل ص ١١٨ ·
(٢) قصيدة كفانى يا قلب ص ١٤٤ ·
(٣) قصيدة آه ما أحلى الحميا ص ١٤٥

وقوله :

أنا طيــف من خيــالات الليــالى
من صدى الوادى ومن همس الدوالى
كم على الصــحراء وشى من خيــالى
وعلى البحر يتيماتى الغــوالى (١)

وقوله :

أن يمر الغيم أسرابا عليهــا يتخذ شكلا ليغرى ناظريهــا
صــورا أو لعبـا تحـلو لديهـا تارة يدنو وحينـا يعتلى
راقصـا بين ازرقاق الجـدول والســما الزرقــاء (٢)

صورة غنية للغمام يبدو فيها الواقع فى سمة الخيال ·· حقا ان من يخلو الى الغمام يتراءى لعينه صورا وأشكالا وهيئات لها نظائر عند رائيه فلم يقل الشاعر غريبا · ولعل أكبر ما لفتنى فى صورته ، تلك الشفافية التى ترقص الغمام (بين ازرقاق) الجدول ! ·· انها عين شاعر تلك التى ترى الظلال بين انعكاسات اللون وتموجاته ·· وقد تخطىء عيون الأشياء نفسها لا الظلال ، والجـدول بلونه ولحنه لا (ازرقاق) الماء فيـه ·

(ازرقاق) ! كلمة واحدة تجسم لعينى تدرج اللون بين الشفافية والعمق وهى فى تجسيمها التدرج اللونى تمثل لى أيضا الصفاء النقى الذى يتيح ويتسنى معه ملاحظة التدرج ·

(ازرقاق الجدول) كما تطربنى هذه الكلمة بايحائها ورؤاها ··

والغمام يرقص بين ازرقاق الجدول ·· ان عين الشاعر تخترق سطح الماء وتنفذ الى الصورة المتراقصة تحت السطح فى ثنيات اللون الأزرق ·· الى الصورة الراقصة بين ازرقاق الجدول ··

وبعد هذا لا زالت نفسى ممتلئة من التعبير الشاعر والشاعر المعبر ، لازالت نفسى ممتلئة من رقص الغمام بين ازرقاق الجدول ·

والشاعر أشد ما يكون احتفالا بالطبيعة فى أغانيه فهنا يجلوها جلوة عروس ويحثها على أن تعير الانسان غير قليل من اهتمامها وحبها ··

ففى أغنية (الصبا والجمال) يجلس عروس الأغنية على عرش

---

(١) قصيدة من رأى الشاعر تاب ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ·
(٢) قصيدة الجبل الملهم ص ١١٦ ·

الحسن ويجعل السماء تسكب زرقتها اللازوردية فى عينيها ، والهزار يرسل أغاريده ترنيمات تسرى فى أذنيها ، والروض على عطره ورياه يثمل بسكرة كبرى عند مجرى العبير من نهديها ... والورد يجن من جمالها ، وتستبد به الغيرة فيقتل نفسه حسدا منهـا ويلقى دماه فى وجنتيها ، والأنسام تحدث الفراشات عنها حديثا يزهدهـا فى الزهر مختلفة ألوانه ويهفو الى شفتيها ... وهنا يحس الشاعر أنه أبدع من عروس الأغنية آلهة من آلهة الأغريق ، ويرضى أن وفر لها كل ما فى طاقة الحقيقة والخيال من الجمال (العبقرى السنا) .. **وإذ يحس هذا لا يلبث أن يقول :**

رفعوا منـك للجمـال مثـالا   وانحنوا خشعا على قدميـك (١)

انها ملكة جمال منذ استهلت القصيدة ... ملكة ملك يديهـا تاجان ، الصبا والجمال ..

الصبـا والجمـال ملك يديك	أى تـاج أعز مـن تاجيـك
نصـب الحسن عرشـه فسـألنا	من تراهـا له فدل عليـك
فاسكبى روحـك الحنون عليـه	كانسكاب السمـاء فى عينيـك
كلمـا نافس الصبا بجمـال	عبقرى السنا نمـاه اليـك
ما تغنى الهـزار الا ليـلقى	زفرات الغـرام فى أذنيـك
سكر الروض سكرة صرعتـه	عند مجرى العبير من نهديك
قتل الورد نفسـه حسـدا منـ	ـك وألقى دمـاه فى وجنتيـك
والفراشـات ملت الزهر لمـا	حدثتهـا الأنسـام عن شفتيـك
رفعوا منـك للجمـال مثـالا	وانحنوا خشـعا على قدميك (٢)

حق لمن ترقرق لها هذه الأبيات والصفات أن يضل الهرم طريقه اليها لتدوم لها نعمة تاجيها .. الصبا والجمال ..

وفى أغنيته (يا ورد من يشـتريك) (٣) نجد الشاعر فى أسرة الطبيعة كأنها أحد أفرادها يحنو على الجميل الغضبان ، والعليل الأسوان ويتسمع شكاة الشاكى ، ويرقأ دمعة الباكى ، ويسائل ويناجى ويهون هم الشقى ، ويرمز من وراء هذا كله الى من يعنى ... الى التى تعبث خدودها المفداة فى مهجته ...

---

(١) قصيدة الصبا والجمال ص ١٢٨ .

(٢) قصيدة الصبا والجمال ص ١٢٨ .

(٣) أغنية (ياورد من يشتريك) ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

أن الشاعر ينحنى على الورد الأحمر ليقطفه ۰۰۰۰ كلا ۰۰۰ انه صديق يحنو عليه ليسائله :

يا ورد يا حمـــر قـــولى   مــين دا اللى جرحـــك
جرح شفـــايفك وخـــلى   عـــلى شفـــايفك دمـــك

وهو اذ يقترب من الـــورد الأصـــفر يسكب عليه من روحـــه وهو يقول له :

أصفـــــر مـــن الســـقم   أم من فرقة الأحبـــاب
ياورد هـــون عليـــك   ۰۰۰۰۰۰۰۰

يا ورد ۰۰۰ يا صافى الود ۰۰ هون عليك ۰۰۰ فهل ترد للشاعر ولى هذا الرجاء ؟

هنا والحق يقال قد دنا الشاعر من الطبيعة خطوات ۰۰ كدت أقول (خطوتين) على طريقته فى ايثار المثنى ۰۰ وهل أعز على الطبيعة من يحنو على الورد يمسح دموعه ويضمد جراحه ؟

وبعد ، فان الشاعر بسلبيته وايجابه ازاء الطبيعة لو جاز هذا التعبير يقف منها موقف المشاهد فى المعرض الحافل ۰۰۰ المشاهد المتذوق الذى تعجبه هـــذه اللوحـــة أو تلك ۰ فيحرص على اقتنائهـــا ليزين بها بيته فحسب ۰۰ لا شك أن لمثل هذا المشاهد فضل الاختيار ، وفضل التذوق ، وفضل التقويم ۰۰۰ ولكنه بعد هذا ليس كالآخر الذى يرى العمل الفنى فيقف عنده طويلا ويتأمله طويلا ويعيش فيه حتى ليمر بالتجربة التى مر بها صاحب الأثر نفسه ۰

وهذا اللون من التذوق ، وهذا الطراز من الاعجاب يكون موقف صاحبه من الطبيعة موقف المتحد بها الذى يسمع أو يخيل اليه أنه يسمع الليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس ۰ يسمع الزهر وهو ينبعث ، ويحنو كالشاعر كيتس على العصـــفور وهو يلتقط الحب فيحس صـــادقا أنه يلتقط معه ۰۰۰

ولكن شاعرنا يبدو كالصانع الماهر الذى تتلألأ تحت عينيه حبات الماس فيلمسها فى رفق ويختار منها فى ذوق ، ويرصع بها قلائده بيد صناع ۰۰۰ وما باليسيرة ولا الهينة مهمة الذوق والتنسيق والترصيع ۰۰

شعر الجمال والغزل

وبعد الطبيعة بمفاتنها ننتقل الى لون آخر من الجمال وقف عنده الشاعر وأبدى رأيه فيه ذلك هو جمال المرأة ·· والشاعر يرى رأيا فى الجمال عند العرب وعند الافرنج ضمنه قصيدته (وصف فتاة) فجسمها (عند العرب) فى الشعر والخد والنهد ، وتمثلها عند الافرنج فى الهدوء والشاعرية والملائكية حتى ليتهيب أن يسمى الجسم فيها بأوصافه المادية فيتملاها من بعيد وقد :

رقدت ترشف الكرى مقلتاها　　مثلما ترشف العطاش المياها
صاعدات أنفاسها هادئات　　كصلاة الأطفال طهر شذاها
تحلم الحلم لؤلؤيا فتمليه　　طهورا على الصبا شفتاها
وأزاح النسيم عن صدرها الثو　　ب فلاحا · ولا تقل نهداها (١)

هنا مقام تصوف يغنى فيه الرمز عنده ، وينوب التلميح عن التصريح ·

أحسب أن الفتاة العربية غيور من هذا التفضيل عليها . ولعلها عاتبة على الشاعر أشد العتب تلهيته لها ببضع صفات مادية حسية ان دلت على جمالها فهى لا تسجل لها فضلا فيه على كل حال · فالجميل وهب الجمال هبة ولم يكتسبه اكتسابا ينبىء عن فضل أو اقتدار ·

وما هكذا جميل النفس ، جميل الروح ، جميل الصفات · فالجمال المعنوى لصاحبه دخل كبير فيه يوجب اكباره · ويستأهل التقدير حتى ليقف الشعر ازاءه متحرزا يتحفظ فى التعبير ولا ينطق فيه · فاذا تجرأ النسيم العابث وأزاح الثوب عن صدر جميلة النفس فذاك لا يعقل ومن

---

(١) قصيدة « وصف فتاة » ص ٣٥ ·

ثم فهو غير مسئول • أما الشاعر المتذوق المقدر فقد أقصر الوصف عند فعل النسيم ثم لم يتجاوزه الى النتيجة ، بل حذرك أن تفعل أو (تقل نهداها) ••

لقد شاد بالعفة وافتخر بها بين نساء العرب ••• ولا شك أن العفة قدس لا يرام بل نحن بما فينا من وراثات ، وما ينحدر في عروقنا من دماء ـ مجنونون بالعفة ندين بها ونفتديها • ولكني مع هذا تواقة جد مشوقة الى من يصفنا نحن العربيات •• نحن الشرقيات بجمال النفس بمواهب العقل •• بمعجزات القلب •• باشراقات الروح •• أنا مشوقة متطلعة الى من يصفنا بهذه الصفات ••• دون أن يقتصر على محاسن الجسم ••• بل لا على الواصف أن يدعها •• مزايا الجسد هذه اذا سجل لنا كرائم الخلال والأعمال •

ولكني أخشى أن يكون الشاعر ممن لا يرون في الجمال الشرقي الا محاسن جسمية •• فهناك غير قصيدة (وصف فتاة) قصيدته (هند وأمها) التي تشي بهذا رغم ما خلعه عليها من ألوان الروض والورد • ولكن (هند) أو أمها بعد هذا لا تزيد الواحدة منهما عن دمية تجذب بالألـوان والبريق ، ولكنها هيهـات أن تصـل الى مرتبة (فتـاة الافرنج) (١) التي :

تحلم الحـلم لؤلؤيا فتمـليه طهـورا على الصبا شـفتاها

ولي على قصيدة (هند وأمها) فضل آخر من تعليق •• فالقصيدة طريفة لولا أن رد الأم يشي بزهوها ، بجمالها ، حتى على ابنتهـا •• ومن طبع الأمومة أن تزكي جمال البنت وتقدمه على جمالها وجمال سائر الحسان ••

***

وللشاعر ألفاظ يصوغ منها شعره في وصف الجمال النسوي ••• هذه الألفاظ بمثابة علبة ألوان عند رسام يفتحها كلما شاء التلوين ••

وكذلك يفعل الشاعر في علبة ألفاظه •• فالورد اللون الأحمر ، والثنايا اللون الأبيض ، والليل اللون الأسود ••• وقل مثل هذا في الباقي •• لقد صاغ الشاعر قصيدة لطفلة في الخامسة ـ (ندى) (٢) •

نـداى من سلسل الخمـ ـر في الثنايا العـذاب

---

(١) قصيدة (وصف فتاة) ص ٣٥ •
(٢) قصيدة (ندى) ص ١٥٢ •

من صفف الشعر فوق الـ ... ـجبين سطر كتاب
رددت لى بعد يأسى ... حلم الهوى والشباب

من أنت ! !

الله الله لما ... عضت على العناب
وصفقت بيديها ... وغمغمت بالجواب
سل الرياحين عنى ... وسل حنين الرباب

ندى ، ندى بسمة الور ... د للندى فى الصباح
رضابها للحميا ... والخد للتفاح

وصف حسى حتى لبنت الخامسة ... الورد والعناب والتفاح .. بل الحميا والرضاب والثنايا العذاب والهوى والشباب .. كأنه يصف كاعبا فى العشرين . وكان الأخلق بالسوسنة الغضة أن يتحدث راثيها عن البراءة فيها والصفاء ، والطفولة الواعدة : ومرحها وعذوبتها وسيل أسئلتها ودميتها وألعابها ... وكم ... وكم فى الطفولة من معان ...

وهو يدين بالجمال الممنع المحمى .. شأن كل عربى .

اذا ما وردة عرضت لنذل ... كرهت الورد تقبيلا وشما
لشوكته أحب الورد حتى ... اذا يد سافل غمزته أدمى (١)

والذى يصف جمال المرأة هذا الوصف ولوع بها حفى . ومن يكون للمرأة غير شاعر الهوى والشباب .. وهو فى الحب يتفانى شأن كل أصيل فى الهوى من شعراء الغزل . ويبلغ به الايثار حدا يقول معه :

ولو أن النعيم كان جزائى ... فى جهادى والنار كانت جزاها
قلت يارب أى ذنب جنته ... أى ذنب لقد ظلمت صباها
أنت ذوبت فى محاجرها السحـ ... ـر ورصعت باللآلىء فاها
أنت عسلت ثغرها فقلوب الـ ... ـناس نحل أكمامها شفتاها
رحمة رب لست أسأل عدلا ... رب خذنى ان أخطأت بخطاها
دع سليمى تكون حيث ترانى ... أو فدعنى أكون حيث أراها (٢)

وقد تغزل طويلا فى المرأة . وغزله روى من الدلالات ، تياه من العذوبة والرقة . وهو عميد ملقى السلاح ، لم لا والحبيب مغرى العينين . فلا غرو أن يكون الشاعر مقتلا مغلوبا على أمره :

---

(١) ص ١٠٢ .

(٢) قصيدة « بلغوها اذا أتيتم حماها » ص ٣٦ .

جفنه عـــلم الغزل ومن العـلم ما قـتل (١)

ليس الذنب ذنبه ، وانما جفنه علم الغزل !

وهو يسخر من العاذل وكأنه يعتذر اليه :

قل لمن لام فى الهـوى هكـذا الحسن قـد أمر
ان عشقنا فعـــذرنا ان فى وجهنا نـظر (٢)

ويرتفع حينا بالحب فيرى فى الحبيبة فوق شخصها خيالات أمسه ، وذكريات صباه ، وأحلام نفسه ، وصفوه وانسه :

كيف أنسـاك يا خيـالات أمسى ذكريات الصـبا وأحـلام نفسى
كيف أنسى الأيام صفوا وأنسـا كيف أنسى ... ... (٣)

وهو رقيق حين التذكار ... تلمح عليه هذه الرقة حين يقول من قصيدته زاهرة الربى .

لى فيـك عنـد المنحنى وعقيقه ذكرى تطـوف بالجفـون وتستقى

شاعر يترقرق كدمعه ...

وهو على حبه الحب وتفانيه فيه تعجبه الثورة من أجل الـكرامة . وهل غير الاعجاب والتأييد دفعه الى تعريب قصيدة (الى امرأة) عن الشاعر الفرنسى (لويس بويه) ومنها :

مـاذا ؟ أحقـا كنت بى تهـزئين وكنت فى حبـك لى تكـذبين
مهـــلا فمصباحك لم يأتلـق الا بمـا من شعلتى تقبسين
هل كنت فى أبهى ليالى الهـوى أيام كنت فتنـة النـاظرين
هل كنت اذ ذاك سـوى آلـة ألحانها منى ومنها الرنين (٤)

لقد درست أكثر من شـاعر من شـعراء الغزل فاذا هم باذلـون متفانون ، حتى اذا ثاروا أو بالأحرى استثيروا عرفوا أقدارهم ، وقدروا أفضالهم ، وغالوا بشعرهم ورأوا فيه خلاقا صناعا بعد أن قدموه قربانا ورفعوه صلاة الى عين الحبيب .

وفى شعره سهاد ، ولكنه نزر الكلام على ما يبدو ، فلم يحك لنا

(١ ، ٢) قصيدة (جفنه علم الغزل) ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .
(٣) قصيدة « كيف أنسى » ص ٥٠ .
(٤) قصيدة « الى امرأة » ص ٧٥ .

مرة خيالات سهاده · ورؤى أحلامه فيه ··· قصارى ما تسمع من شكاته قوله (١) :

أبـــدا ســـاهر كئيب لا صـــديق ولا حبيـب
ومـع الليـــل لى نحيب كنحيب الحمامتـــين
بعـد بـين

وفى قصيدته (اغضاضة يا روض) (٢) يقص حديثه القطيعة فيكون قصاراه أن يسرد ما دار من عتاب أو بعضه وكفى ، ولا يتدسس الى مطاوى النفس عنده وعندها ليتقرى كافة مشاعرها فى تلك اللحظة الرهيبة فى حياة المحبين ··

وفى قصيدته (خيال من دمر) (٣) ، يتذكر فيقرى السلام ، ويجدد العهد والميثاق ، ويناشد العيون الوفاء فى ايجاز ، ويروى طرفا من حديث خاطف دار بينهما ثم يصمت ···

أين أمانى اللقاء ؟ أين أحاديث النفس وأحلامها عند مرور موكب الذكريات ؟ أين وحى الطبيعة ــ وهو من المفتونين بها ··· أين وحى الطبيعة بنسيمها وبلابلها وبدورها ونجومها وليلها وسحرها فى تلك الساعات الحساسة من العمر ؟ ··· هذه بعض الأسئلة التى تحيك فى نفسك وأنت تقرأ ذكرياته ·· أتراه يرسل الشعر على طريقة العصفور عندما يحسو ماء القطر فى اجتزاء سريع ؟ ··· ربما ·

وهو شاعر عاطفى تستهويه لغة القلب ويطربه حديثه ·· ينم عن هـذا شعره واقتباساته ·· فقـد اقتبس عن الفرنسـية قصـائده : (العيون) (٤) ، (أنا لو كنت يا سليمى) (٥) ، (قلب خافق) (٦) ، (الى امرأة) (٧) التى عربها حرفيا عن الشاعر الفرنسى (لويس بويه) كلها قصائد غزلية أو فى حكمها ··

ولكن شاعر الهوى والشباب له طابع خاص فى الغزل ·· طابع يمثله هذا البيت :

المهـــا أهدت اليهـــا المقلتين والظبـــا أهدت اليهـــا العنقـــا

---

(١) قصيدة « آه يا هند لو ترين » ص ٤٥ ·
(٢) ص ١١٠ ·
(٣) ص ١١٣ ·
(٤) ص ٤١ ·
(٥) ص ٥٥ ·
(٦) ص ٦٤ ·
(٧) ص ٧٥ ·

أرى مادة غزله محدودة ·· العيون من المها ··· العنق من الظبا ·· والروض يتكفل بالباقي يضع في الصدر رمانتين ، وعلى الخد وردتين ، وعلى المبسم اقحوانه ، ويقد القد من خيزران ، وما على الليل الا الشعر ·· والفجر الا الثغر ··· وكأنه بين الشاعر وبين هؤلاء عقد مكتوب فقد صنعوا (هند وأمها) كما صنعوا له (مي) عذراء لبنان التي ذهبت الحرب الأولى بوالديها ضمن نصف سكان وطنها ···

ولعل هذا المضطرب الضيق في التعبير عن الجمال يرجع الى ميل الشاعر الخاص ، فهو يحب الجمال النسوى ولكن حبه له حسي كحب عمر ابن أبي ربيعة وهو شاعر أثير عنده ··· قلما يحدثنا بشارة عن لواعج الشوق وخيالات الأحلام ، وأماني القلب ، واليأس والرجاء والفداء والوفاء وغيرها من المعاني التي تلون حياة المحبين وتخصبها ، ولو فعل لتعددت معانيه ، وتنوعت أوصافه ، وتفننت أساليبه وشف حديثه ··· ولكنه يبدو أن الجسم راقه الى حد غفل معه عن الروح ، عن النفس الانســانية وخوالجها ومكنوناتها ·

ولما كانت مقاييس الجمال في الجسم تكاد تكون محدودة على اختلافها فلم يجد الشاعر بدا من أن يدور تبعا لهذا في فلك ألفاظ وأوصاف معينة محدودة هي الأخرى ·· ألفاظ وأوصاف لا تتجاوز حدود الروض ··· حقا فيها من جماله اذ لا يصدر عن الروض الا جميل الطابع ··· ولكن الدنيا ··· دنيا النفس بل ودنيا المادة أيضا فيها من ألوان الجمال الأخرى ما يسبي ويفتن ···

ولكنه على تكرار أوصاف الجمال عنده يؤنسك ويمتعك فما تمل حديثه مهما تشابه ، من جمال الوشي ، ولطف الأداء ، وملامسة التعبير ·

ومن فنون شعره القصة ·· وفي الحق أن الشاعر قصاص أصيل · وهو يستطيع أن ينقلك الى عالمه فتعيش مع أبطاله وتتألم لآلامهم ، وتشرق لفرحهم ، وتقيد خطاك بخطاهم ، تماما كما يفعل الكاتب الذى لا تقيده القوافى والأوزان · وهو على ايجازه فى شعره الغنائى ، طويل النفس فى القصة ، يفصل الحوادث والحوار ، ويترجم الانفعالات ، ويصور الأخلاق والناس ويتعمق أحاسيسهم ··· لقد قرأت قصته (الريال المزيف) (١) مرات وشجيت بها وانفعلت بما فيها من مشاعر وصراع نفسى عنيف · ولا شك ان هذا التأثير قدرة تحسب للشاعر ···

وقصته لا تنقصها مقومات القصة الفنية من عوامل التشويق وخلق العقدة وحلها ··· وأبطاله أشخاص عاديون نلمحهم فى الحياة الجارية كل يوم ·· وفى قصصه عنصر المفاجأة ، وفيها نقد ، وفيها صور ، وفيها استقصاء · وفيها بعد هذا تدفق فى السياق يستلك الى عالمه ولا تدرى ...

سنرى مصداق هذه كله فى قصة (الريال المزيف) التى استهلها بهذه الصورة :

ويح الفقير فما تراه يـــلاقى ... سدت عليـــه منافذ الأرزاق
عصفت به وبسربه ريح الشقا ... فتساقطوا كتساقـط الأوراق
فاذا بصرت به عجبت لشمعة ... كالزعفران تجول فى الأسواق
علق المجاعة مص بعض دمائـه ... وتعسف الحـكام مص الباقى
أخذ الشقا يدها فسارت خلفه ... والليل ممـــدود على الآفاق

(١) قصيدة الريال المزيف ص ٥٩ ـ ٦٣ ·

سارت ، فماس الخيزران بقدها ... ورنت، فذاب النسخر في الأحداق
وتلوح آثار النعيم بخــدها ... كالفجر قبل تكامـل الاشراق

ثم يكفهر وجهها فجأة :

أخذ الشقا يدها فان هي فكرت ... بمصيرها صعقت من الاشفاق

ثم تهاوت مما تلاقي :

ووهت عزيمتها فألقت نفســها ... فوق الثرى وشكت الى الخلاق
تشكو بمدمعها وذل فؤادهــا ... وبما تحس به من الاحـــراق

ماذا تراها تبغي ؟ ما قصتها ؟ انها تفضفض ..

يارب · قالت وهي جاثيــة له ... ان شئت حل من الحياة وثاقي
قد عشت عمري ما عرفت بريبة ... وعبدت بعــدك عفتي وخلاقي
والآن والأيام مـــلأى بالأذى ... قد أصبحت وقرا على الأعنـــاق
زوجي يحارب في التخوم وطفلتي ... فوق الفراش تزيد في ارهاقي
من أمها تبغي الغذاء لجســمها ... من أمهـــا تبغي الدواء الواقي
وطرقت أبواب الكرام فأوصدوا ... أبوابهم فرجعــت بالاخفــاق

أبواب الكرام .. ان الشاعر هنا ينتقد المجتمع .. يسخر منه ..

سام الفتى عرضي فيالك من فتى ... كاسي الغنى عار من الأخــلاق

ان الغنى شيء .. والأخلاق شيء آخر ..

ثم تبدأ العقدة بهذا الصراع :

أأصون عرضي؟ وابنتي؟ وحياتها ... وعلاجها يحتـــاج للانفـــاق
أنا أن أعف قتلتها فعـــلام لا ... تحيا بمــاء تعففي المهــراق
لا .. لا تموت فانها لبريئـــة ... حسناء ما شبت عن الأطواق
أني مفـــارقة ابنتي أو عفتي ... فعلى كلا الحالين مـــر فراق
والذنب للأيام في حدثانهـــا ... والذنب للأخلاق غـير رواقي

ويلها ! ما عساها فاعلة ؟؟

رباه حلمك فالمصائب جمـــة ... وأنا بواحدة يضــيق نطاقي
لو شئت موتا لابنتي لأخذتها ... وجعلت طهري قدوة لرفاقي
لكن أردت بقاءها وأردت لي ... فقري · أتظمئني وأنت الساقي
ستعيش بنتي وليكن ما شئته ... ستعيش .. لكن من لهى العشاق

لقد بكى قلبي ...

ثم حلت العقدة حلا داميا وانكفأت الشقية راجعة ..

رجعت وفي يدها الريال ورأسها لحيائهــا متواصـل الاطـراق
وكأنها خطرت لها ابنتها ومـا تلقاه من ألم الطـوى المقلاق
فأصابها مثل الجنون فتمتمت بشراك أني عـدت بالترياق
هو ذا الريال فانه نعم الذى يهب الشفاء لنا ونعم الراقى
هو ذا الريال وقد تألق ماحق دجن الهموم وقد أردن محاقى
هو ذا الريال ولم يكن لولا ابنتى ليسـومنى نكرا على الاطـلاق

مسكينة ، انها تبرر وهى تتمزق شر ممزق !!

هو ذا الريال وقد تألق ماحق(١) دجن الهموم وقد أردن محاقى

(وقد أردن محاقى) أليست كناية حنانة عن تهديد المرض حياة ابنتها ؟

ومضت الى الطباخ تلجم ما بها لفتاتها من لاعج الأشـواق
قالت ـ وأدته الريال ـ ألا اعطى بعض الغـذا واردد على الباقى

ان الريال المشنوء ثروة المسكينة ..

أسرع فانك ان تؤخرنى تذق من جوعها بنتى أمر مـذاق

سحقا لهذا الجوع .. ما أقساه ..

نقف الريال بأصبعيه وجسـه وانهال بالارعـاد والابـراق

(نقف) ان اللفظ يرسم حركة خاطفة عابسة ..

قبحا لوجهك .. سيدى أتسبنى عفوا وتحسبنى من السراق ؟
لا . فالريال مزيف .. أمزيف ؟ صاحت وقد سقطت من الارهاق

يالشقاوتها .. تسرق أغلى ما تملك ثم تتهم .. بالسرقة ! عقدة جديدة .

سقطت على قدم الشقا فبكت لها عين العلا ومكارم الاخـلاق
وبكى عفاف الآنسـات عفافها خلل السجوف بمدمع مهراق

انسانية عاطفة مشاركة ..

يا طير عفتها فديتك طـائرا هلا حذرت حبائل الفساق

---

(١) صواب اللفظ (ماحق) (ماحقا) « حال » فهل تدافع الشعور عند الشاعر جرف الألف فحسب الخطأ على الشاعر ؟ لست أدرى ...

ملام اسوان مشفق ..

ثم يحل الشاعر العقدة الجديدة حلا داميا أيضا ..

طلعت عليها الشمس وهى سجية — وفتاتها ضيف على الأســـواق
أما الأثيم فلا تزال شـــباكه — منصوبة لنواعس الأحـــداق
يسقى الرحيق بأكؤس ولواحظ — والله يكلأ « وهو نعم الواقى »

والله يكلأ .. هنا غموض لعله مقصود .. « والله يكلأ » هل يعاتب عدالة السماء ويستحثها أن تأخذ بخنـــاق ذلك الآثم وتتقاضاه ثمـــن جريرته ؟

أم « الله يكلأ » الأعراض الغوالى ؟

على كل حال الشاعر مفطور .. موزع القلب .. مفتت الاعصاب..

هذه قصة اجتمعت لها كما أسلفت كل مقومات القصة الفنية . ولعل الأبيات التى سقتها للتمثيل تدل فى نفس الوقت على التدفق فى السياق .. فمن أجل هذا الغرض سلسلت عددا منهـــا فى مواضـــع الاستشهاد ..

وبه نزوع الى القصة يتنفس فى مثـــل استهلاله قصيدة « سلمى الكورانية » ..

أتدرى كيف كان .. لقد صاغه على هذه الصورة أو صاغه فى هذه القصـــة :

تعجب الليل منها عندما برزت — تسلسل النور فى عينيه عيناها
فظنها وهى عند الماء قائمـــة — منارة ضمها الشاطى وفداها
وتمتمت نجمة فى أذن جارتهـــا — لمـــا رأتهـــا وجنت عند مرآها
أنظرن يا اخوتا هذى شقيقتنا — فمن تراه على الغبراء القاهـــا
أتلك من حدثت عنها عجائزنا — وقلن أن مليك الجن يهـــواها
فاطـــلق المـــارد الجبـــار عاصفة — تغزو النجوم فكانت من سباياها
قصت نجيمتنا الحسناء بدعتهـــا — عن (نجمة الشط)والآذان ترعاها
وكان بالقرب منها كوكب غـــزل — يصغى ، فلما (رآها) سبح الله
وراح يقسم أن لا بات ليلتـــه — الا على شفتيها لاثما فاها (١)

ان الشاعر قد يصطنع التشبيه للتبيين أو التهويل فيسوقه قصة

---

(١) قصيدة « سلمى » الكورانية ص ١١٩ .

في القصة كما فعل في قصة (عروة وعفراء) .. أراد الشاعر أن يهول نبأ زواج عفراء يسمع به عروة فكانت هذه القصة :

ما عامل في الحقل حمل يومه ... ما ليس يحمل مثله الهرمان
يمشي لمنزله بنفس مغـــالب ... مر الشقا بحلاوة الوجدان
يمحو بفكرته عبوسة دهـره ... بتبسم في آله وحنـــــان
يمشي وما هو ان دنا حتى رأى ... في كوخه المحبوب سحب دخان
ورأى اشتعال النار في أخشابه ... وبكا النسا وتهافت الشبان
فأحس بالجلى فاسرع ليتـــه ... أودى ولم تسرع به القدمان
فاذا قرينته الحبيبة جثـــة ... وبجنبهـــا ولداه يحتـــرقان
ما خطب هذا وهو أهول مارأت ... عين وما ســمعت به أذنان
بأشد من قول الرواة لعروة ... عفراء أمســت زوجة لفلان

أليست هذه قصة بكل مقوماتها من تشويق ومفاجأة ووجود العقدة وحلها . وغير هذا من عناصر ؟

وشيء آخر ، ألا ترى معي أن النبض في شعره القصصي أزخر حياة منه في سائر شعره ؟ أترى السر في الموضوع الذي يمضي فيه وهـــو مسحر بجوه ؟ أم السر في تعاطف الانسان وتجاوبه مع ذي الالم حتى عبر الزمان الخالي والمكان ؟

ان الشاعر متمكن من القصة على كل حال ...

وله قدرة عجيبة في سلسلة الحوادث مهما تعقدت . وصياغة الحبكة الفنية وادارة الحوار وتوثيق العقدة وحلها .. اقرأ له (سلفين وجيروم) ثم أنصفه ...

والقصة عنده ملكة طبيعية فهو أشد ما يكون انطلاقا حين يقص نعم بعض ما ورد بالديوان من قصص انما هو قديم موجود لم يبتكر حوادثه بل صاغهــا شــعرا .. ولكن صياغة موضوع ما صياغة شعرية على هذا الطراز فضل يحسب لصاحبه بلا مراء .

ولم يغفل شعره المجتمع الذى يعيش فيـه ، وكيف وهو ينبع منه ويصدر عنه ـ ولعل ما فيه من سبحات فى الجمال وتأملات فى الطبيعة ، مهرب ـ ولو الى حين ـ من الواقع المرير لفرط احساسه به ..

وهو كشاعر مرهف الحس أعمق تأثرا ببلايا المجتمع بل أنى أحس كربه وغصته وهو يعالجها حتى ليتجه الى الله فى ضراعة لهيفة فاقدة اللب يختلط عليها الأمر فترجو وتستكين وتتمنى وتعتب .. ضراعة محروب لا يتحرج أن يلوم غير ملام :

رب . قل للجوع يصبح شبعا ... وانقذ الطهر الذى قدسته
أو مر الفسق فيغدو ورعا ... ان يكن شرا فلم أوجدته
طبعته قدرة فانطبعا ... أى شىء أنت مما قدرته
ملك حطمت منه الجانحين ... فهوى من بعد ما قد حلقا
ما ترى يفعل مكتوف اليدين ... أترى يقدر أن لا يغرقا (١)

ليس هذا وصف شاعر .. انما هو حرقات قلب ملتهب ولو لم تمسسه نار ..

وهو يتهم الأغنياء بقصور النظر أيضا وسوء الطوية ويجابههم :

أيها الناس الألى خاطو الكفن ... لفقير كى يفوزوا بالثراء
هب ورثتم بعده الأرض فمن ... يصلح الأرض لكم يا أغنياء
فاذا طاح بذى الفقر الزمن ... فالغنى أن يشمل الناس عناء (٢)

---

(١) قصيدة « من مآسي الحرب » ص ٨٨ ـ ٨٩ .
(٢) قصيدة « من مآسي الحرب » ص ٧٧ ـ ٧٩ .

سخرية ومرارة ونداء ملح بالاصلاح ..

وهو يرى فى المجتمع صورا بشعة تغشى نفس الكريم فيسخر من مرارته .

أيها الفقر وان كنت كما زعم الزاعم قواد الزنى
لك ـ ولتهنأ ـ شقيق فوق ما تتمنى ، انه حب الغنى
كم أب أمل منه مغنما ورأى فى بنته نيل المنى
فرمى بالعرض عرض الحائطين ومشى بابنته للملتقى
فهو من ذاك وذا صفر اليدين شرف مات وعرض مزقا (١)

صورة بشعة .. ولكنها من صور المجتمع ..

وهو ينعى على المال خبله للعقول والضمائر :

قوتل المال فكم من رجل مثل هذا قاد يوما واستقاد
رد عنه المال سيف العذل ووقاه ألسن اللوم الحداد
ولكم من غادة لا تأتلى تطرح الجسم على مهد الفساد (٢)

ان الرجل يتململ مما يرى حتى لقد أعدى تلظيه الكون :

وفؤاد الكون محموم كئيب (٣) وفؤاد الكون محموم كئيب (٣)

وهو يحنو على الضحايا ويرسم لها صورا تستنهض الخامد .
وتحرك ضمير الجامد .. صورا تبرز الشر رغبة فى القضاء عليه .

وقفت (مى) بباب الحاكم كملاك الله مقصوص الجناح
وقفت عطشى كطير حائم حول ماء يحسب الورد مباح
وتخطته برجلى صائم أو برجلى ثمل من غير راح
وهى لو أن لديها كسرتين لثنتها عزة عن ذا اللقا
انما يأس الفتى ليس بهين لا يبالى يائس أن يخفقا (٤)

صورة شاحبة فيها صراع وفيها ظمأ موعود ..

وهو يسخر من المجتمع الذى يرفع العابثة ويخفض المتصونة المترفعة ، ويريق هذه السخرية فى خطابه (لمى) احدى ضحايا الحرب :

« مىّ » ما لسحر سوى ما رسمت ريشة المبدع فى هذه العيون

(١ ، ٢ ، ٣) من قصيدة « من مآسى الحرب » ٧٧ ـ ٨٩ .
(٤) من قصيدة « من مآسى الحرب » ص ٧٧ ـ ٧٩ .

لم تصادف مهجة الا رمـــت وأصابت هكذا الفتك يكـــون
فهي لو رقت لمن قد تيمـــت وأباحت ذلك الثغـــر المصون
لجرى التبر اليهـــا واللجـين وكلا الاثنـين يبغى السـبقا
ومشت من زهوها فى موكبين وحنا الرغد لديها العنقا (١)
هي بنت الفقر يا بنت الغنى تؤثر الموت على العرض السخيف
فارتمت (مى) على مهد الضنى وترامبت على مهـد (منيف)

سخرية لاذعة بلا شك ..

فاذا ضرى الجوع وهدد العرض صرخ مروعا :

يا سـما قولى لنا الانصاف أين أتراه ضـل عنـا الطرقا (٢)

ويطرد حديثه عن المجتمع سلسلة من القصص .. تبدأ بحيـاة الفضيلة على لظى الحرمان حتى اذا احترقت أو كادت التمست الضماد عن علم أو جهل أو تغرير عند تجار الأعراض أو دعاة الخنا . فتزهـق منها روح كانت ذماء فى كيان مجروح .. وتمضى ملوثة بعد أن تترك الوغد يصعق البائسات منه فحيح ..

❊ ❊ ❊

من الناعب قبـل الفجـ ـر من هـذا على الباب
أعيـذ القبـح من قبح بأظفـــار وأنيـــاب
أقبل الشمس فى الآفا ق والعصفور فى الغاب؟
وما زار الكرى جفنى ولم تعلقــه أهـدابى
ولا غذيت أطفــالى سوى همى وأوصابى
فراشى يا وقاك الله منــه بعض أعشاب
وهذى كوبتى الفخـا ر ما فيها سوى صاب
فما تبغيــه فى بابى ومن أنت أنا الجابى (٣)

أتحسب هذه الأبيات من شعر المهجر ؟ كلا .. انى لازلت أحدثك عن الشاعر بشارة الخورى وعن شعره الاجتماعى . وهذه الكلمات المتوقدة التى تمور بعض قصيدته (الجابى) .. قصيدة (الجابى) التى أرسلها عندما أطلقت وزارة المالية جباتها فى القرى اللبنانية يمعنون فى الأهـلين ارهاقا لتحصيل بقايا الأموال الأميرية خلال أزمة مضنية . فأوحى ذلك الارهاق بهذه القصيدة .. الجابى .. ولكنها بحرارتها وتلهبها وتسعرها

(١ ، ٢) من قصيدة « من مآسى الحرب » ٧٧ ــ ٧٩ .
(٣) قصيدة (الجابى) . ص ١٨٠ .

وروحها تذكرني باخوان لنا كرام في المهجر وخاصة الجزء الأول منها الذى اضعه الآن بين يديك .. هذا الجزء يطفح بالمرارة والسخرية اللاذعة المنتقمة التى مسخت ذلك الجابى وشوهت خلقه جتى غدا بوما ينعب ووحشا يطل منه ظفر ويبرز ناب ، ونذيرا بالسوء يسوء وقوفه بالباب فيرد آنا ، ويسأل فى استنكار من هو ، مع دلالة شكله عليه ..

أعيذ القبح من قبح بأظفار وأنياب

حتى القبح يعيذه منه ؟ ... اذن ما أقبح شكل هذا الجابى ..

أقبل الشمس فى الآفاق والعصفور فى الغاب

تبا له وسحقا ما أفظعه ... أعفريت بليل ؟ أم شيخ سار ؟

وما زار الكرى جفنى ولم تعلقه أهدابى

ويله ! أين قلبه ؟ ألا ذماء من دروءة ..

ولا غذيت أطفالى سوى همى وأوصابى
فراشى يا وقاك اللـه منه بعض أعشاب
وهذى كوبتى الفخار ما فيها سوى صاب

لهم الله أولئك الصبية .. لا كان العوز ولا كان الجابى ..

لمن ينساق هذا المال قولى يا سما قولى
أأيلول على الأبواب لا عشنا لأيلول (١)
يباع الخبز فى بيتى لتزمير وتطبيل
ولا يرثى أولو الأمر لأشباح مهازيل
فما فى الغاب من ناب فزمجر أيها الجابى

لا تلمه ان ضج أو سخط أو حار فى حكمة القدر فقد سئم الحياة ونمنى الموت .. وكيف لا يفعل من تنتزع اللقمة من فمه ، وتملأ الكئوس من دمه ؟ ولكن لولا من يقبل الجور ما وجد من يجور .

فما فى الغاب من ناب فزمجر أيها الجابى

حق له أن يستنفر ...

* * *

وما يزكو الاحساس بالمجتمع الى هذا الحد الا ووراءه وطنية ذكية حساسة هادفة . ونحن ما نكاد نصافحه فى مقدمة الديوان حتى يفضى الينا كصديق بموقفه من الدولة العربية وما اعتصره من أجلها من شعره .. ذلك الشعر الذى لم يبق له منه كما يقول الا كبقية الوشم فى ظاهر اليد .

---

(١) أول ايلول عيد اعلان لبنان الكبير ...

ومن القليل الذى استشهد به تتراءى لك ثورته المتأججة وحماسته المتسعرة ، وتستطيع أن تلمس مرارته فى هذه النفثات :

الجسم نسيانك الجسم فالموت للمتكلم
لا يسألونك ان أخذت أثمت أم لم تأثم
فالخبل شر مرحب والعنق خير مسلم
والسجن أكرم صاحب والنفس أيسر مغنم

ولست أرى الشعر القومى فى القصائد السياسية فحسب ، فان لبنان – كما يقول الأستاذ عادل الغضبان وهو يقدم ديوان الشاعر – (لم يرزأ فى جهاده الطويل بالاحداث السياسية فقط ، بل نكبه الدهر بكثير من الاحداث الاجتماعية) .. وتلك عندى علة العروبة فى أوطانها جميعا .. أدواؤنا متعددة وهى فى تعددها متشعبة .. والوطنى الذكى الحس والفؤاد يشعر بأدق الاهتزازات فى وطنه أيا كان مصدرها وأيا كان نوعها .. وليس كالفن تأثرا بما يجرى حوله ، وليس كالفنان مسجلا لما تطالعه به الدنيا من أحداث .. وهو أشد ما يكون استجابة للدانى القريب منها المنتمى الى قلبه بوشيجة الوطنية ، الموصول به برباط الانسانية الخيرة، المنتسب اليه بمعنى من تلك المعانى التى تمثل كرائم الانسان .

فلا غرو أن يتصل الشعر القومى بالشعر الاجتماعى ماداما يستقيان من نبع واحد من منابع الاحساس ..

كان الشاعر بشارة الخورى يرى كشاعرنا شوقى أن الدنيا انما تؤخذ غلابا .. فعندما تقدم بعض اللبنانيين سنة ١٩١٤ الى الدولة العثمانية بما سموه مطالب الاصلاح شهر الشاعر فى وجوههم هذه الأبيات :

متى أراكم تكرون كرة للأمام
وتلبسون الى الحق خوذة الاقدام
وتدرسون على المجد كره الاسترحام (١)

ويثوده حمل وطنه من الاستعباد فيجأر :

لبنان ما لفراخ النسر جائعة والأرض أرضك أعلاها وأدناها
أللغريب اختيال فى مسارحها وللقريب انزواء فى زواياها (٢)

---

(١) قصيدة « فدى لبنان نفسى » ص ٥٣ .
(٢) قصيدة « سلمى » ص ١٢٢ .

وهي شكوى كل عربي زفرها بشارة في بيتيه هذين وضمنها شوقي من سينيته هذا البيت :

أحـــرام عـــلى بلابله الدو ح حلال للطـــير من كل جنس؟

ورقته التي لمسناها لا تعارض حماسته ولا تحجبها . ولهذا تجـد الشاعر الرقيق .. شاعر الهوى والشباب اذ تثور فلسطين ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ يهتف :

يا جهادا صفق المجـــد له لبس الغار عليه الأرجوانا (١)
يشرب والقدس منـــذ احتلما كعبتانا وهوى العرب هوانا
شرف للمـــوت أن نطعمـــه أنفســـا جبـــارة تأبى الهوانا
وردة من دمنـــا في يـــده لو أتى النار بها حالت جنـــانا
غذت الأحداث منـا أنفســـا لم يزدهـــا العنف الا عنفوانا

ولو أنه يغلب عليه الغناء أحيانا حين يتحمس فيعلق بهتاف الحماسة بعض الفاظه كقوله من قصيدة عيد الجهاد (٢) :

لن نراها ان لم نمت في هواها أمة حرة ودنيـــا جـــديدة

أليس (في هواها) من ألفاظ الغزل التقليدية لو جـــاز هـــذا التعبير ؟ .. عندي أن بيته الحماسي يقتضي في موضع (في هواها) .. « فدى لها » مثلا .

وفي مجال الحماسة نذكر للشاعر هذه الأبيات :

لبنان يا وله البيـــان أذاكر أم لست تذكر نجدتي وكفاحي
قبلت باسمك كل جرح سائل وركزت بندك عاليا في الساح
أنا ان نجحت فليس ذاك بضائري وعلى الخـــواطر غدوتي ورواحي
تتحجب الأرواح وهي خـــوالد وترى العيون زوائل الأشباح
ولربما خدعتك صفحة هادىء مني وفي الاحشاء عصف رياح
اني اذا جنت رياح سفينتي ذهب الجنون بحكمة المـــلاح (٣)

ولاشك أن هوى الشاعر مع العرب أجمعين ولكن شـعره الحماسي كان للشام ، في حين عزف شوقي لكل بلد عربي على قيثاره لحنا مفردا

(١) قصيدة (يا جهادا صفق المجد له) ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .
(٢) قصيدة (عيد الجهاد) ص ١٦٢ .
(٣) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ص ١٥٦ .

عبر ألحانه التي تجمع بينها جمع الأم أبرار البنين ... وهذه الاشارة منى لمحة من عتاب الصديق للصديق ، لا منة مزهو ، ولا زهو منان ..

وما تستعلن وطنيته في شعره كمثل قوله :

برب الارز حـــدثني أحقا قولهم حقا (١)

برب الأرز .. ألا تروقك منه كلبناني هذه النسبة ؟ هذه الاضافة ؟ ان بدائع الله فى السماء والأرض لا يحلو منها فى عين الشاعر غير الارز، ولا يسمو الى مقام الاضافة الى الله غير الشجر الحبيب ... انى أشيم عنا وطنية وصوفية واعزازا وولاء ..

وهو على عبادته لوطنه يشكوه احيانا :

مت اذا شئت أن تكون أديبا أو فبـــدل بغير لبنـــان دارا (٢)

ولكنها شكوى الولى المخلص الذى تفانى وقدر لنفسه موضعا يكافىء ولاءه فأخطأه التقدير .. وهى بعد هذا شكوى موقوتة ما أسرع ما تنداح اذا مسح الوطن عارض ، فاذا الشـــاكى أول من يتفزع ويدمى .. أنا أعرف هذا عن تجربة فقبل بشارة الخورى شكا مصر شاعرنا حافظ ابراهيم صاحب البيت :

ما أنت يا مصر بدار الأديب وما أنت بالبـــلد الطيـــب

وحافظ نفسه هو الذى استطاره الحزن والحب فى دنشواى وغير دنشواى مما كابدت مصر .. وحافظ نفسه هو الذى قال :

لا مصر تنصفنى ولا أنا عن مودتهـــا أريم
واذا تحـــول بائس عن ربعهـــا فانا المقيم

هل صح عندك ما أقول ؟ .. ان السيد بشارة الخـورى يؤيدنى بهذا البيت :

ويمطر الضيم فى أرضى وأشربه وكنتلا أرتضى أن أشرب السحبا

على أن الشكوى فى مقام الأوطان كشكوى الابن المـدلل فى حضرة أبر الآباء وأحنى الأمهات فهو يشكو من فرط حبه ، ويشكو من عظم مـا كان ينتظره ، ثم هو يعلم علم اليقين أن الذى يشكوه هو الروح التى لا يتصل بدونها له حياة ... حياة كريمة رحيمة فينانة لا حياة الأيام والسنين .

---

(١) قصيدة (الجابى) ١٨١ .
(٢) قصيدة (حكمة الدهر أن تعيش سكارى) ص ١٧٧ .

أسلوب الشاعر في ديوانه

ويجدر بحديث يجري عن بشارة الخوري أن يقف مليا عند أسلوبه، وهو من أصحاب اللوازم .. ومن لازماته الظاهرة شيوع المثنى :

ما حــــرام أن أرى هــــذا الغصــين
ذاويا من بعـــد ما قـــد أورقـا (١)
وهو لو شـــاء لأجــرى نبعتــين
من ينــــابيع الأمــاني واســـتقى
ونـدى الحـــاكم يزرى المزنتـــين
فمتى تســــتمطريه اغــــدقا

لماذا (نبعتين) و (مزنتين) وليست نبعـــة أو ينابيع ، ومزنة أو مزن .. انه الولع بالمثنى ..

لمن القصـــر بدت فيـــه الشــموس
فعـلى وجه الدجى منـــه نهـــار
يسبح النذل بـــه في لجتـــين
ويقـــاسى الحر منـــه الحرقـــا (٢)

وما دام نذلا فهو يسبح فى لجج لا لجتين فقط ..

وقد لاحظ بعض كبار كتابنا تشبثه بالمثنى فى التعبير .. والملاحظة صادقة فى جملتها وتفصيلها .. اقرأ له قصيدة (آه يا هند لو ترين) :

آه يا هنـــد لو تـــرين موقـــفى بين خـــائطين

(١ ، ٢) من قصيدة « من مآسي الحرب » ٨٥ ـ ٨٧

لا يحسبيران أخرسين وعلى الخد دمعتين

لو ترين

يا لأحلامى العذاب ذابلات مع الشباب
فكأن المنى ضباب يتلاشى بنفختين

اثنتين

ألا ترى معى أن لفظة (دمعتين) موضوعة لاحكام القافية ٠٠ والا فالدموع لا تعرف التحديد ان جاز أن يحدد النفخ بنفختين اثنتين ٠

وهو يمدح فيذكرنى بالبحترى وأبى تمام وأضرابهما من شعراء المديح ٠٠ يذكرنى بشعراء العباسيين ونزعتهم فى تعظيم الممدوح ٠ وصورهم فى هذا الميدان التى تسخر النجوم والشمس والقمر ٠٠ ويذكرنى أيضا بالصفات العربية التقليدية للسادة ٠٠ فحين أراد الشاعر أن يرفع تحيته الى الأمير العربى عبد الله الفيصل آل سعود حشد له سيادة السيف والقلم والعزم والمكارم والفخار والقصاد الوقوف بالباب ٠٠ غير أنى لا أقر الشاعر على (عتبة من جباه (١)) وأحسب أن الأمير الأبى يحب الاباء للآخرين ٠٠ ولكنه اندفاع المدح وجموح العاطفة الشرقية التى تورط الشعراء فيقولون مالا يفعلون ٠٠

وعلى أناقته الحضرية يحن الى سمات البادية فى المديح من شعره حتى الندامى بعد وصفه الحضرى للخمر وبساطها يصفهم كما وصف حسان الأنصار بأنهم شم الأنوف صباح ٠

أهل الندى والبأس ان تنزل بهم
تنزل على عرب هناك فصاح
الشام منبتهم وكم من كوكب
هاد وكم من بلبل صداح
وطن أعار الخلد بعض فتونه
وسقى المكام فضيلة الأقداح (٢)

(١) جاء هذا الوصف فى قصيدة (تحية الشعر) ص ٣٢ والأبيات
سيد السيف واليراع فلا العز م بناب ولا البيان بواه
جده جده الذى شيد الملـ ـك على مفرق النجوم الزواهى
قبة من مكارم وجدار من فخار وعتبة من جباه
أنت للذروة المشعة منه فى الروائين من شباب
(٢) قصيدة « ولد الهوى والخمر » ص ١٥٩ ٠

والبيت الأخير فخر (شعرى) لو صح هذا التعبير فلا يعتمد على وقائع من التاريخ أو سند من ضروب المجد ، على غنى الشام بالمسطور من تاريخه وأمجاده ٠

ومن حلى الأسلوب عنده التقسيم أو التنغيم كما أراه كقوله :

في مثل ليلات الوليد نقول للكاسات فيضى
بين الكواعب من حباب والنواهد من بغيض
فاذا نظرن فعن مريض واذا بسمن فعن وميض (١)

وهو يقابل ٠٠ ومن مقابلاته اللطيفة ٠٠٠

انها الحرب ٠٠ ولم تترك على سطحها الا جسوما باليه
ونفوسا حوما حول البلى تتمشى فى صدور خاويه
تشتكى الجوع وتقرى العلا عجبا منها جياعا قاريه (٢)

ويجانس فيخاطب ملك الأرض ٠٠ ملك الأيك ٠٠ البلبل الصداح وكأنه يلاطفه :

صفق كما شئت بهذا الجناح فلا جناح
وشم خد الزهرات الصباح فهو مباح (٣)

وعنده التفات ٠٠ ففى قصيدة (صداح) خاطب البلبل طويلا ٠٠ ثم التفت فى نهاية المطاف الى الحبيب قائلا :

وبعد فافعل ما تشا فى فتاك فشفتاك
حسبى فماذا تبتغى مقلتاك (٤)

وله خيال مفوف :

يا جنة الدنيا وسيدة الربى
هذا رسول الشعر جاءك زائرا
ان شئت شق من الرياض صحائفا
حتى تكون لمعصميك أساورا (٥)

---

(١) قصيدة (حلم عربى) ص ١٠١ ٠
(٢) ص ٨١ ٠
(٣) ص ٤٠ ٠
(٤) ص ٤٠ ٠
(٥) ص ١١٤ ٠

ومن طرائفه في التعبير تشبيه سلسلة الحديث ومتسلسله بالدمع يفجر بعضه بعضا :

وله حديث كالدموع اذا جرت
جذبت نظائرها من الأجفان (١)

وأسلوبه حيي الصوت فهو يهمس غالبا :

همست نجمة بأذن أخيها همس ثغر الندى بمسمع ورد

وألفاظه ممتلئة موحية :

أنا ساهر وجبال لبنان عليها الصمت حام
خلع الجلال على منا كبها مواهبه الجسام (٢)

ما أغناها مواهب الجلال .. أليس كذلك ؟

وان كنت تقع له أحيانا على ألفاظ غريبة كقوله :

والغصن والأوراق آذان له ماذا ترى فيها النسيم يتبتب (٣)

وقوله :

أى رجا رقى لذين الطائرين قد رأيناك نشرت الدبقا (٤)

وقوله :

وكأنها خطرت لها ابنتها وما تلقاه من ألم الطوى المقلاق

وألفاظه صريحة تنم عنه ولا تدعك الى الحدس والتخمين .. وما حاجتك اليه وأنت تقابل فى ديوانه مثل هذه الألفاظ :

رهبة ، ناسك ، مبخرة ، هامة مطرق ، شمعة ... (٥)

---

(١) ص ٦٨ . (٢) ص ٦٤ .
(٣) ص ٤٩ . (٤) ص ٨٥ .
(٥) الألفاظ من هذه الأبيات التى انتظمتها قصيدة « زاهرة الربى » :

صلى لك الوادى برهبة ناسك وضباب مبخرة وهامة مطرق
وأبو الربى صنين قام كشمعه بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى
يتوقد النجم السنى برأسها فترى بوادى دمعها المترقرق

القصيدة ص ١٢٦

انه شاعر مسيحى وتلك انطباعات المسيحية فيه المسيحية القريبة الينا نحن أهل الاسلام ، والمسيحيون أقرب الناس مودة لنا ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وشعراء .

والشاعر من طبعه الايجاز ، وهو يوجز أحيانا حتى لتحسب معانيه وأمانيه رؤوس موضوعات تشير ولا تحيط .

وأسلوبه بعد هذا أسلوب تصويرى يطربك فى السرور كأن انشاده غناء ، ويشجيك فى الحزن فرط أسى . ومن صوره هذه الصورة التى صور فيها يائسا من الحياة مهددا بالحرمان فهو نهم يسوده ألا تغرب الشمس عن يومه ليعيشه أعواما طوالا ..

لا ، لا أنام ولا أذوق كـــرى ان النهار مضى ولم يعـــد
لا ، لا أنام ولا أذوق كـــرى أنا لست من يحيا لفجر غد
سلمى أحس النـار سـائلة بدمى وتجرى معه فى جسدى
وأحس قلبى فاغرا فمـــه للحب ، للذات ، للرغد (١)

وأسلوبه أملس تغلب عليه ألفاظ معينة تكاد تكون لازمة لصاحبها تذكر فى عداد اللوازم . فالورد والروض والعطر (وأفعاله) والضحى والدجى والنجوم والجدول وما يشاكلها من ألفاظ أسرة الطبيعـــة .. فمن هذه الألفاظ صاغ أناشيد غزله ، ومن هذه الألفاظ وصف مشاهداته، ومن هذه الألفاظ أرسل أغنياته .. ومن هذه الألفاظ بعينها نظم دموعه على أحبابه الذين راحو لغير اياب .. فالجزء الأخير من ديوانه يتضمن أربع قصائد ذرفها على هؤلاء لا تخلو واحدة منها من ألفاظه التقليديـة التى أشرت اليها ..

فمن قصيدة (الشباب الذاوى) :

أيـــلام الورد الجنى اذا جـــف رحيق الجمـــال فى وجناتـــه
واذا كان عمره بعض يـــوم وتمشى الذبول فى ورقـــاته
غاية الورد أن يضمخ هـــذا الجـــو بالمستحب من نفحاتـــه
ما عليـــه ان جـاز غايتـه القصـــوى وعـد الزمـان من سـباعاته
أفذنب الهـــزار أن هـــامت الأقفـــاص بالساحرات من آياتـــه
توقظ الروض من كراه وتجـــتلو بسنـــمات الضحى على أزهراته
غاية الطـــائر المغرد من دنيـــاه أنشـــودة عـــلى هضباته

---

(١) ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .

ما عليه اذا تعجل في الشد و وروى الخلود من نغماته

ومن قصيدته « شاعر يترك الخيال كسيحا » ·

أيها الجدول الوديع الذى ينشر سر الحياة فى جريانه
أيها المدمع الحنون الذى لو لاه ما افتر مبسم عن جمانه
أيها المنشد الكئيب الذى تسمر زهر الدجى على تحنانه
أمن العدل أن تعفر فى التر ب ويزهو ورد على أغصانه
أمن العدل أن تنوح على العشب ويشدو طير على أوكانه
هكذا الشاعر الشقى ، يغنى فيغذى الافراح من أحزانه

وجبران خليل جبران عنده :

ذلك الجدول الذى يملأ الوا دى اخضرارا والضفتين ازدهارا
تستحم النفوس فيه فلا تبـ رح الا جوانحا أطهارا
وتود النجوم لو سمر الليـ ل فظلت لشجوه سمارا

ومن القصيدة الرابعة وهي دمعة على الغريدة اسمهان :

يا منهل الفن قد غاضت منابعه ماذا فعلت بقلب المدنف الصادى
تلك الأصائل من ورد ومن حبب وأنت فى صدرها ريحانة النادى
هل الغناء اذا جرحت آهته سوى عصارة أكباد لأكباد
كأنه موجة بيضاء ناعمة يمشى الشراع بها فى بحره الهادى
تأوى الأغاريد منه حين ترسله الى وريف ندى الظل مداد
وينثر الروض سكرانا براعمه كالسن الطير شقت نصف منقاد(١)

ان ألفاظه كثياب بعض طوائف الشيعة لا تحلولك فى الحزن ولكنها ترمز اليه وتعبر عنه بالغلائل البيض ··

وبعد ، فان السيد بشاره الخورى شاعر لا يعوزه الحس اللفظى ، والخيال الشعرى ، والروح الشفافة التى تشيع الشاعرية فى جوه ، وتمد الظل من شعره فتهدأ عنده وتستريح ··· ولعل هذه الراحة وذلك الفىء بنعيمه وسلامه ونداه هو الذى يحدونا أن نتمنى له المزيد من الطاقة الشعرية ، وهو فى الحقيقة دعاء لنا بالمزيد من فنه الشعرى الطروب ···

---

(١) ص ١٧٨ ·

وفي الديوان غير هذا كله لمحات تكشف عن نفســـه وتومىء الى شخصــه ·

فقد لخص الشاعر تاريخه في هذه الأبيات ··· في الحب والخمــر كابن مخزوم :

فتن الجمال وثورة الأقــداح — صــبغت أساطير الهوى بجراحي
ولد الهوى والخمر ليلة مولـــدى — وسيحملان معى عــلى ألــواحي
قد عشت بينهما على نغم الصبــا — كفراشـــة علقت ثدى أقـــاح
أشتف روحهما وأعطى مثلهـــا — روحا وأسـلم ليلتى لصبـــاحى
روح كمــا انحطم الغدير على الصفا — شعبــــا مشـــعبة الى أرواح
للحب أكثرها وبعض كثيرهــا — لرقي الجمال وبعضهــا للراح (١)

وهو يدعو الى المتعة وانتهاب اللذات واهتبال الفرص :

فانهب العيش لا أبالك نهبـــــا — واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غــير جنـــــاح — حط في الدوح لحظة ثم طارا (٢)

ويطوف بالشاعر أحيانا سانح من يأس فيتمتم ·

الهوى والشباب والأمـل المنشــود توحي فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود ضــاعت جميعها من يديا (٣)

---

(١) قصيدة « ولد الهوى والخمر » ص ٥٤ ·
(٢) قصيدة« حكمة الدهر ان نعيش سكارى » ص ١٧٥ ·
(٣) قصيدة (الهوى والشباب) ص ٣٣ ·

هذا يومه .. أما غده فهو بالطبع على غير يقين منه فى هذا الجو النفسى .

يشرب الـكأس ذو الحجى ويبقى لغـد فى قرارة الـكأس شـيا
لم يـكن لى غـد فأفرغت كأسى ثم حطمتهـا على شفتيـا

حتى الحب لم يعد يشتهيه .. بل لعله ضاق به فى هذه الساعة العصيبة التى مرت به ... ألم يقل :

أيها الخافق المعـذب ياقلبى نزحت الدمـوع من مقلتيـا
أفحتم عـلى ارســال دمعى كلما لاح بارق فى محيـا

لسنا نحن الذين حتمنا هذا يا شاعر الهوى والشباب ... ولكن الجانى هو ذلك الخافق الذى أنضب الدموع من مقلتيك والذى لا يدعك تقول ...

أنا العاشـق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيـا

حتى يدفعك دفعا نحو الحبيب بمهماز مسحـور ثم يستحثك أن تناجيه :

اسقنى من لماك أشهى من الخمـ ـر ونم ساعة عـلى راحتيـا
أنا ماض غدا مع الفجـر فاسكب نغمات الحنـان فى أذنيـا

ان الشاعر رقيق حنان ..

ولكن هذه كلها عوارض من اليأس لا بد أن تعترى النفس الانسانية، كل نفس . فاليأس حالة من حالاتها الكثيرة .. ولكن الشاعر فى ديوانه بعامة بادى الطموح ، كبير الأمل ، متجدد الحياة ، وليس أبغض لديه من أن تلمح له بالمشيب يوشح فوديه فانه لا يلبث أن ينهاك :

دعنى وما زرع الزمـان بمفرقى ما كنت أدفن فى الثلوج صداحى
من كان من دنياه ينفض راحـه فأنا على دنياى أقبض راحى (١)

انه يحب الحياة رغم ما كابد فيها .. نعم كابد فيها .. بهذا يحدثنا بيته :

سقيت مرارات الحياة فلم أجـد كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر (٢)

---

(١) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ١٥٤ .
(٢) قصيدة (آه ما أحلى الحياة) ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

غير أنه صفوح ... وفي بناء الفعل للمجهول دلالة واسعة فهو لا يريد أن يعين غريمه لما في هذا التعيين من معنى التشكي وهو زاهد فيه ، مترفع عنه ، غير مؤمن به ، ولعل الزهد والترفع يرجعان الى عمق احساسه بما لاقى . فهو لا يريد ذكره الا لمحا حتى لا ينكأ اجترار الحديث الجرح من جديد .

وفي الشاعر سماحة تبدو لك في قوله :

خلــــق الله فــــؤادى   من شبعــــاع ودمـــــوع
قبسا في وجــه طـــــه   ذاب في جفنى يســـوع (١)

وهو يصور بذل الفنان وتضحيته في بيتيه :

ليس مايشجيــــك مني   نغمـــــات في فمــــي
انهـــــا والهـــف نفسى   قطـــــرات من دمــــى

وهكذا كل فنان صادق يا صديقنا الشاعر .

وهو يغني لنفسه في جل أشعاره ويصدر عنها . فاذا أرادوه على خطة أخرى لم يتجاوب معها ونم على فعلتهم شعره .

مـــلأوا كأسي خمـــــرا   ليس من خمــري ودني
ونقوا عـــودى فغنى   وفـــؤادي لم يغـــــن
أكمــا شــــاءوا غنائى   وكما شــــــاءوا نــواحي
أفليس اللهــــــو لهوى   والجراحات ... جراحي (٢)

مرارة وسخرية   وتهانف أيضا ... أليس كذلك

ويمدح زحلة فتتمثل له القيم التى تكنها نفسه ويجلها رأيه فلا يلبث أن يقول :

هل تنبتين سوى النساء خوافـرا   أو تطلعين سوى الرجال مفاخـرا
أن رق شعر كنت بيت قصيـــده   أوزاق وجه كنت فية الناظر (٣)

هي هي قيم العربي التى تتمثل له غاية السعادة في عفــة النساء وخفرهن ، وتلخص محامد الرجال في الضيف والقلم والكرم ... وهي قيم ترجح بها عند الحساب كفة الميزان .. وما يماري في هذا انسان

(١) قصيدة (سلى الليل) ص ١١٨ .
(٢) قصيدة « آه ما أحلى الحميا » ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .
(٣) قصيدة « زحله » ص ١١٤ .

لولا أن هناك قيما أخرى تضاف اليها ولا تحجبها .. قيما للنبيياء وللرجال على السواء .

وهو من سلام الفن يحب السلام ، وتقزه الحرب حتى ليعتب على السماء أن تقع الحرب على الأرض ولو أرادت لبطل وقوعها وانتفت دواعيها .

رب . لو شئت لما سالت دما . أمرك الأمر فمن ذا ينكر
ولما يتم من قد يتما . ولما استل السلاح العسكر(١)

واذ يجد نفسه فى مأزق ، لا يجد الخلاص منه الا بتحميل الانسان تبعة أعماله .

رب . ان نحن بلغنا الهرما . أو يكن حان الذى ينتظر
من ولا كفران ذين الكوكبين . يخرقا الناموس أو يحترقا
واسترح منا فنغدو بعد عين . أثر لابد أن ينمحقا(٢)

لا تصدق أن الشاعر يئس من الانسانية ولكنه حائر لهفان على مصيرها وحالها .. حالها .. حتى ليطلب لها الفناء من خالقها لا عن قلى فى الحقيقة ولكن فرط اشفاق اذ ضاق ذرعا بالحروب ومآسيها .. كما ضاق ذرعا بأطماع الانسان ونوازع الشر فيه .. انه يتمنى على الله أن ارفع من قيم الانسان .. و .. وأعد خلقه .

واخلق الانسان خلقا راقيا . واقتل البغض به والكبرياء
واجعل الحب الها ثانيا . واسجن المال ولا تبق الرياء
وليكن كل امتياز لاغيا . يخرج الناس على حد سواء(٣)

ألم أقل لك انه يستمطر السلام والحب للانسانية ؟

وفى شعره صلاة عميقة تغريك بالخشوع :

رب ان الكون مهما عظما . هو فى عينك لا يحسب شى
قدرة ذلت لديها العظما . كلهم فان وسبحانك حى (٤)

وبعد . فقد بقيت لى كلمة الشاعر وديوانه .. ان ديوان (الهوى والشباب) انما هو شعر العمر شبابه وكهولته وما بعد الكهولة .. وان كان الشاعر لايزال متعلقا بالشباب يحس فى قلبه حنة اليه

(١ ، ٢ ، ٣) قصيدة « من مآسى الحرب » ص ٧٧ ـ ٨٩ .
(٤) من قصيدة (من مآسى الحرب) ص ٨٧ ـ ٨٩ .

فيغنيه في شعره ، ويسمى به ديوانه ·· ولكن الأخطل الصغير جاوز الشباب ، وبلا الحياة والناس ، واختزن من التجارب ما كان يظن معه شموع الحكمة في ديوانه · لكن الديوان كما ترى يلذ ويروق ، لا ينصح ولا يعظ ·· وكأنى بالشاعر زهد في التحدث عن تجـاربه الخاصـة ودلالتها ·· ولعله قصد الى هذا لأنه يعـرف من هذه التجارب التي أغفلها أن الحديث يشوق اذا تناول موضـوعا مشتركا بين صاحبـه وسامعه ، ويشوق أكثر اذا تنـاول موضوعا طليا تستروحه النفس وتطرب له ومن ثم احتفل الديوان بالهوى والشباب ·· وكل له هوى وله شباب حتى أولئك الذين أصبح الهوى بالنسبة اليهم ذكرى وردية ، والشباب وهما كطيوف الأحلام ، حتى أولئك الذين يقفون على عتبة الشباب والهوى يتنسمون الأخبار حالمين من أفواه الشعراء والفنانين ·· هؤلاء جميعا لا يحتملون الحكمة طويلا بل لعلهم ينفرون منها أو يدعونها على الأقل الى حديث الهوى والشباب ·

فالشاعر حكيم لبق في اختياره وان لم يصطنع الحكمة في شعره ·

ولا يحتج هنا بما سنح منها سنوحا في شعره الاجتماعي فانما هذا وليد احساس اللحظة الراهنة لا التجارب الماضية ·

أو لعل الشاعر أحس من نفسه أنه بطبيعته وامكانياته الفنية أقرب الى شعر الهوى والشباب ، ولا عليه فكل ميسر لما خلق له ·

الشاعر وناقدوه

اختلفت الآراء حول الشاعر بشارة الخورى بين مادح وقادح . فابتعدت فى جملتها عن النقد المجرد السليم . فما كان النقد الفنى مدحا ولا قدحا ، ولكن ضوءا قويا تظهر فيه كافة جوانب الأثر الأدبى فيبدو المشرق اسطع لألاء ، ويبدو المظلم محددا للعين العادلة لا تجور ظلمته على ما يحيط به .

وعندما أردت الكتابة عن ديوان (الهوى والشباب) تنسمت ما كتب عن الشاعر فاذا بين يدى كتابان أصدرهما مواطنان له من لبنان . أما أحدهما فهو كتاب (الأخطل الصغير) للأستاذ نسيب نمر .. والآخر كتاب (على المحك) للاستاذ مارون عبود الذى تناول عددا من الشعراء من بينهم بل من اوفرهم نصيبا من التفات الناقد ــ الشاعر بشاره الخورى :

قد حصلت على الكتابين ولكنى نحيتهما جانبا قبل الشروع فى الكتابة وتعمدت عمدا ألا أقرأهما الا بعد دراستى الشخصية للديوان حتى لا يعلق بقلمى أثر منهما مهما بلغت قيمة هذا الأثر ، حتى أصدر عن رأيى الخاص بلا ايحاء أو تأثير ..

والآن وقد انتهيت من دراستى الخاصة لديوان (الهوى والشباب) ابدأ فافتح الكتاب الأول وهو ... (الأخطل الصغير) ...

قرأت هذا الكتاب فاذا بالكاتب ــ ولو أن هذه ملاحظة عابرة ــ قد اتخذ منهجا غريبا عانيت منه وأحسب أن سائر القراء أحسوا ما احسست به .. سار الكتاب على هذا المنهج .

١ ـ الرجل (نشأته)

٢ ـ شعر بشاره الأول (الشعر الثورى)

٣ ـ الشعر الغزلى ٠

٤ ـ شعره الحديث ٠

٥ ـ حيـــــاته ٠

٦ ـ الجمال فى شعره ٠

٧ ـ الصورة ٠

٨ ـ الشعر الوطنى ٠

٩ ـ بعض عيـوبه الشعرية (العيب الفنى ـ العيب الموسـيقى ـ ضعف بشارة)

١٠ ـ بين أيدى النقاد ٠

منهج مضطرب فنشأة الرجل وحياته من عادة التاريخ وطـابع التأليف أن ينتظمها فصل واحد ٠

وشعر بشارة الأول وشعره الحـديث ينتظمهما فصل تطور شعره مثلا ، وما دام شعره الأول ثوريا فمن براعة الحديث وسلسلته أن يتصل هنا الكلام عن الشعر الوطنى ٠

والحديث عن الصورة وعن العيوب الفنية كان الأخلق بالمؤلف أن يتكلم عن فن الرجل الشعري بمحاسنه وعيوبه التى يراها على السواء ٠

ولكننى على كل حال ليس موضوعى كتاب الأســتاذ الناقد ٠٠ وما ذكرته ان هو الا اشارة اقتضتها المناسبة فحسب ٠٠ والآن نستعرض ما وجهه الناقد الى الشاعر أو بعضه ٠ رماه فى مستهل كتابه بالضعف والاستخذاء والتناقض واستشهد بالبيت :

أن للفقر ثورة لو علمتم   تسبح النـــاس دونها فى الدماء

ثم بالبيت :

أيهـا الحاكم الذى راح يلهـــو   ان فى اللهـو لو علمت شـقانا

هنا يظن الناقد أن (فى صدر بشارة فكرة يداور للافصاح عنها ، كمن يخشى أمرا ما ، لأن من يتوعد ، بثورة تسبح النـاس دونها فى الدماء) لا يقول :

أيها الحاكم الذى راح يلهـــو   ان فى اللهـــو لو علمته شقانا

فهذه « اللو علمت » فيها الكثير من الذل ٠ وكان الأجدر ببشارة أن ينبه الحاكم وأسا ويحذره بلا واسطة ٠٠٠) (١) ٠

وعندى أن (لو علمت) هذه فيها الكثير من التبكيت والتأنيب والمرارة لا الكثير من الذل كما ظن الناقد ٠٠ وكيف يذل للحاكم وهـــو يتهمه باللهو والعبث أى بغفلة الضمير ٠٠

ان حكم الطغيان كالصخرة العاتية وأجدى لمن يريد الانقاذ شاعرا أو كاتبا ألا يصرخ فى الصخرة أن تتزحزح بل يتحدث عنها أولا بالرمز والايحاء والتلميح ، وحينا بالتصريح حتى ينبه الغافل ويوقظ النعسان ٠ فاذا سرى شعور الوعى صرخ فى الصاحين داعيا الى ازالة الصخرة الكئود٠ ولكن يبقى بعد هذا حديثه الأول الموحى الموقظ الذى يشبه فى عملـــه وأثره قطرة الماء ، تبدو ضعيفة ولكن الصخرة تخشاها اذ تذوب وتتفتت من سقوطها عليها ولو قطرة قطرة ٠٠ هذا مثال ٠

والشاعر يجب أن يكون فنـانا ، ملما بكل شىء ، قديما وحاضرا ومستقبلا ، دارسا أصول التطور ، وطرق التقدم ، مستنتجا من الماضى خطوطا للمستقبل ، ليستطيع أن يبنى نظريات ثابتة » (٢) ٠

الناقد يطلب الى الشـــاعر أن يدرس أصول التطور ٠٠٠٠ الخ ٠ لا ٠٠٠ ليس من عمل الشاعر أن يبنى نظريات ثابتة أو متغيرة ، ان الشعر دفق من الشعور يصوره الشاعر بالألفاظ ــ أداة الأدب ــ وهذه المشاعر التى تزخر بها النفس الحساسة متغيرة مثلها ومعرضة للمد والجـــزر والتحول ٠٠٠ وقد تجود النفس وتثر الشاعرية دون دراســـة لأصـــول التطور وطرق التقدم ٠٠٠ وقد تدرس هذه الأصول وتلك الطرق وما تبض بشىء ٠٠٠

« والشاعر ، أو الأديب ، أو الفنان ، يجب أن يكون مقياسه فى انتاجه ، لا كيف أنتج ، بل لماذا أنتج » ٠٠٠ (٣) ٠

ان الفنان الصادق لا يدخل فى اعتباره كلا المقياسين ، لا يدخل فى اعتباره (كيف أنتج) ولا (لماذا أنتج) ٠

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » للسيد تسيب نمر ص ٢٣ ٠
(٢) كتاب (الأخطل الصغير) للسيد تسيب نمر ص ٢٥ ٠
(٣) كتاب الأخطل الصغير ص ٢٥ ٠

ان الفن لا يكون قطعة من الحياة الا اذا كان انبعاثا شخصيا صادرا صدورا تلقائيا عن شخصية صاحبه نحو أمور معنوية ٠

ان الفنان كالطفل ٠٠٠ هل الصغير حين يتكلم يقصد أن ينقل الينا تجربة ٠٠ كلا انه يشعر بشيء فيستجيب له استجابة صوتية ٠ كذلك الفنان فهو فى انبعاثه التعبيرى لا يقصد التوجه الى آخرين ولكن الأصل فى العمل الفنى هو أن يعبر الفنان عن شعوره لنفسه ٠ قد ينقله الى آخرين ليشعروا بشعور مماثل ٠ ولكنه اذا أدخل فى حسابه رضاهم أو غضبهم ضعفت الفنية فيه ٠

والناقد ينعى على الشاعر سقوطه « عندما تقدم الى بحث فلسفة الفقر » ٠

من ترى يشرح لى ذنب الفقير أو ترى يظهر لى فضل الغنى
يرثان البؤس والعيش النضير ويقيمان كذا فى الكفن
أفهذى حكمة الله القدير لا وجل الله عن ذا الغبن
انما هذان مثل البذرتين نثرا فى الأرض حتى انبثقا
فكسا المقدورتين النبتتين هذه قبحا وهذى رونقا

يرى الناقد أن « هذه الفلسفة بعيدة جدا عن المنطق ، فالفقر ليس قبحا ولا الغنى رونقا كرونق الورد ، وانما هى فروق غير طبيعية ، ولا انسانية ، وهى ، فوق ذلك ، تناقض التطور الانسانى نحو الحق والحرية والخير والجمال ٠٠ » (١) ٠

ان فلسفة الفقر كما يقول الناقد ما على الشاعر أن يشرحها ٠٠٠ ان البؤس ألم من آلام الانسانية ٠ والفن كثيرا ما يتناوله من الظاهر بل هو يؤثر أن يتناوله تناولا عاطفيا ٠٠ تناولا حافزا موحيا مؤثرا ٠٠ أما الفقر كظهر اقتصادى له أسباب وله نتائج فذلك موضوع آخر ، ومنهج آخر واختصاص آخر كذلك ٠٠

وقد عقد الناقد فصلا عن شعر بشاره الحديث ٠٠ فلم يشبع الكلام عن تطور شعره ٠٠٠ لقد قرر أن شعر بشاره رق كجسمه ، وانه تأثر بشيخه اسكندر العازار ، وأن تجاربه أقنعته بحكمة عمر الخيام والشيخ الرئيس ابن سينا فأطلقها صريحة سافرة ٠

حكمة الدهر أن نعيش سكارى فاجمعا لى الكؤوس والأوتارا

---

(١) كتاب الأخطل الصغير ص ٣١ ٠

ثم تذكر أنه قد نسي شيئا فأخذ يتحامل على الشاعر متذرعا بأبياته في الزهاوي :

بغداد ما حمل السرى	مني سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت	الـكثيب الى الـكثيب
وتنصتت زمر الجنادب	من فويهـات الثقـــوب
يتساءلون وقـــد راوا	قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشـــفاه	مضرجـــات بالنسيب
يتساءلون من الفتى العر	بي في الزى الغـريب
أنا دمعــة الأدب الحـــزين	رســـالة الأدب المـذيب

وهذه الأبيات من الشعر التي حملها بشارة الى بغداد تدل على أنانية مكبوتة ونفسية عصبية ، وتيه يتجلى في تساؤله :

« من الفتى العربي في الزى الغريب » ·· وهل للسقيم الضعيف من مفاخر ســـوى التباهي بنحوله وســقمه وتضحيته في تكبد المخاطر لاظهار فكرة وانشاء مجد ؟ » (١) ·

أليس هذا تحاملا صارخا ؟ ان الرجل يريد أن يقول لبغداد أن فجيعتهــا في شــــاعرها أضرته ولكن (الألم المذيب) لم يقعد به عن السعي الى بغداد للعزاء · فأى أنانية مكبوتة أو ظاهرة في أبياته ؟ وأى تفاخر فيها ؟ ان الرجل لم يخطر له فخـــر ولا مجد شخصي حين قال ما قال · أخشى أن يكون الناقد قد اضطرب في يمينه الميزان ··

(ويحمل بشــــاره بتيهه ومطامعه الى البلاد العربية فنقرأ حياتـه من قصائده التي تعبر عن أفكاره ومكنوناته كأنه في خلوة مع نفسه ·

اسمعه في ذكرى تنصيب رئيس جمهورية سوريا ١٩٤٦

ولد الهوى والخمر ليـــلة مولدي	وسيحملان معي على الواحي
قد عشت بينهما على نغم الصبا	كفراشة علقت ثدى أقاح (٢)

أى تيه وأى مطامع ؟ وهل المشغول بالهوى والخمر يخشى منه تكالب وأطماع ؟ ·· انى على العكس أرى في البيتين صدقا فنيا · فالرجل طالما تغنى بالجمال والحب ، طالما طرب للأنغام ممزوجة برنين الكأس فهو لم يعد أن صور نفسه ·

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٣٨ ·

(٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٣٩ ·

. وتلوح أحيانا بارقة رضا من الناقد عن الشاعر فيرى أنه (على الرغم من البديع المسيطر على « قصيدة الصبا والجمال » تبقى مستحبة لأن قالب بديعها وافق ظاهره ، فالطباق في اللفظ والابدال وايراد المقابلات كان طريقا خرج منه الشاعر بلباقة وأناقة (١) .

قتل الورد نفسه حسدا منك وألقى دماه فى وجنتيك

ولو أن هذا لا يعد مدحا خالصا اذ أردفه بقوله : (فلولا هذه الموسيقا وتلاعب بارع فى البديع ، وتصوير رسام فى الخطوط ، لكانت قصيدته لا تعلو عن شعر المناسبات ، وربما كانت أدنى منه) (٢)

وعلى كل حال فقد استنفد السيد الناقد البقية الباقية من رضاه ص ٩٣ حيث علق على البيت نفسه :

قتل الورد نفسه حسدا منك وألقى دماه فى وجنتيك

« ان هذا النوع من البديع أصبح مبتذلا ، والشاعر يعلم ذلك ، لكن الحال تدعو الى القول ، والجماعة المستمعة تجهل اللغة العربية ، فعلى الشاعر اذن أن يجد المعانى الدائرة على كل لسان فى ألفاظ موشاة رقيقة فأنتج هذا البيت الذى لا يختلف عن قول العامة « وجهها مثل الورد » الا بألفاظه الجذلة ، فدار على لسان عبد الوهاب فاذا به فى فم كل منشد (٣) » .

وغير خاف أن « وجهها مثل الورد » تشبيه قريب لاخلق فيه ولكن بيت الشاعر صورة مركبة وراءها خيال فهو اذن يختلف عن قول العامة الذى احتج به الناقد .. ولو أنى اختلف بدورى مع الشاعر ولكن من ناحية أخرى . فصورته على ما فيها من عوامل الخلق لا أسكن اليها لأنى لا أريد أن ألصق حتى بالورد الجميل القتل والحسد ــ ولو فى الخيال ــ لا أريد أن نعتدى على مثال الصفاء والجمال والعطر والسحر.. حبذا لو رسم الشاعر الصورة وقد جعل الورد الجميل يتهلل للجمال فى الآخرين ويحييه فيهدى حسناء الشاعر شرابا ورديا فاغما ، أو يهب خدودها المنورة من دمه هبة وتقديرا . لا عن طريق القتل حسدا منها .

ويرمى الناقد الشاعر بالخوف (اذا لم يكن الخوف هو السبب فى صمت الشاعر وضعف شعره الوطنى ، وجعله يمر بالحوادث مر الكرام ،

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٥١ .
(٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٥٢ .
(٣) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٩٣ .

اذا فما الذى جعله يقول في عيد جلوس رئيس جمهورية سورية :

منى على وجه الرئيس تحية كتحية الأطيار للادواح
الذائد النفاح دون عرينه والقاذف المجتاح بالمجتاح (١)

انى أسائل الأستاذ الناقد هل الخوف أيضا الذى أنتج قصيدة « الجابى » وفيها ما فيها من استنفار واثارة وثورة ؟

وقد عقد الناقد فصلا عن شعر بشارة الوطنى خرجت منه وطنية الشاعر مثخنة الجراح ·· وقد حشد فى هذا الفصل كثيرا من الأحداث التى مرت بلبنان بملابساتها والوجوه التى ظهرت فيها · ولا أريد أن أناقش هذه المحاولة التاريخية التى يعرفها أهلها وشاهدوها ·· ولكن نزعة التحامل التى تسود الكتاب تجعلنى أتردد كثيرا فى تصديق التهم ·· أنا أخشى أن أصدق لأول وهلة (أن بشارة من الرجال الذين كانوا يخافون المستعمر يوم كان فى البلاد راتعا ، وعليها حاكما ، فيمالئونه ، ويداورونه ، ولا يجرحون « كبرياءه » اما خوفا ورهبة ، واما طمعا وضعفا، واما ·· حتى اذا ولى ، بخيله ورجله ، ونفوذه وظلمه ، أظهروا « بطولتهم » وأفصحوا مقالتهم فاذا هم أقوياء بايمانهم ، أعزاء بعقيدتهم ، والله شاهد على ايمانهم) (٢) ·

ثم يتساءل الناقد (هل أسكته الآن ما أسكته سابقا ، فتجاوز عن ثورة ١٩٢٥ ، وعن انتفاضات ١٩٣٦ ، حتى قال فيه الشاعر القروى :

يا شاعرا لا كالأخيطل عنده من كل أنواع البديع الأملس
الشام تشغلها الدموع وقلبه بالحب تشغله العيون النعس

ما باله ساكت ، أخرس ، لم يذكر الشباب الطامح الذى دفع دماءه ثمن الاستقلال ؟

ألا يشاهد أمامه ، فى غدوه وطوافه ، ما يحرك شاعريته ، ويوقظ قريحته ، واذا كان الصراع الذى خرج منه لبنان ظافرا · باستقلاله وجمهوريته ، لم يشحذ قريحة الشاعر ، واذا كان توثب الشعوب العربية اليوم — الى الانطلاق ، لم يحرك منه نغمة ، أو ساكنا · فأى حادث يستطيع حك هذا الجوهر ؟) (٣)

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٧ ·
(٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٨ ·
(٣) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٩ ·

عتاب مقبول لو توفر لصاحبه الوقت الكافي لصقله وتلطيفه واختيار ألفاظه فلا يحزن الشاعر لأن المسئولية لا تحمل غير قدير ، والرجاء لا يناط بغير جدير ٠

على أن بعض وقفات الناقد لا غبار عليها ٠ فقد أخذ على الشاعر قوله في رثاء المغفور له أحمد شوقي (١) :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره فسدرة المنتهى أدنى منابره

وعد هذه الصورة بعيدة عن الخيال والمنطق ٠ والنقد هنا سليم والبيت جناية من جنايات المبالغة الموسوم بها شعر المديح في الأدب العربي ٠

ويسجل الناقد للشاعر صورة أخرى ولكن في غير انصاف هذه المرة اذ يرى قول الشاعر :

وكان بالقرب منها كوكب ذكر يصغي فلما رآها سبح الله
وراح يقسم أن لا نام ليلته الا على شفتيها لاثما فاها

يرى الناقد في هذين البيتين (صورة نافرة بعيدة عن الألوان الفنية لأنه مهما بلغ جمال المرأة فلن يكون منارة ، ومهما هامت المخلوقات بالجمال لا تستطيع ايجاد كوكب يصغي الى الحديث ، ووصف الجمال فيسبح الله ويقسم على السهر حتى يبلغ أمنيته ، ولاسيما عندما نجعل من الكواكب « ذكرا وأنثى ») (٢) ٠

وهذه حملة أخرى لأن الصورة على ما فيها من شطحات الخيال على عادة القدامى الذين يلمحهم بشارة الخوري ، الا أنها لا تصل الى حد النفرة ٠ وأسباب الناقد متعسفة لأن تشبيهات الشاعر قصد بها المجاز لا الحقيقة ولو اتخذنا رأي الناقد مقياسا نقيس عليه لسقط معظم الشعر العربي ان لم يكن كله ٠

ومن عجب أن هذه الثلمات كلها لم ترد الناقد عن اعتبار بشارة الخوري (شاعر العرب) (٣) وكيف ؟ سله هو ٠٠ فعنده لا عندي الجواب ٠

وقد عاب الناقد على الشاعر تكرار الصور لأنه في تقديره يفقد

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٩١ ٠
(٢) الأخطل الصغير ص ٩٣/٩٤ ٠
(٣) الأخطل الصغير ص ٩٤ ٠

قصائده الغرار رواءها (ان التكرار واستعادة الصور والألفاظ في غرار قصائده يفقدها رواءها وجمالها كما يلبس الفنان صفة « ضيق الخيال والضعف الفني ») (١) .

ومع ما ينطوى عليه هذا القول من بعض الحق اذ خصب النفس خصب الخيال ، متجدد دائما ، الا أن تكرار الصورة قد يرجع الى عامل نفسي . فقد تكون هذه الصورة أو تلك لها ذكرى خاصة أو أثر خاص في نفس الشاعر فهو يكررها لينفض عنه ألمها هادفا بهذا الى راحة نفسية ، أو يكرر ليستعيد جوها المنعم . ومن النوع الأول الصورة التي استشهد بها الناقد (٢) فقد كرر الناقد في مواضع متفرقة من كتابه أن الشاعر مريض ضارع الجسم . حزين بل قال بالحرف الواحد وهو بصدد صورة « المسلول » « لكن قصيدة المسلول لم توضع لتصوير اللهو والخمر . بل لتصوير المرض والاعياء ، والرهبة والوحدة ، لقد وضعت لتكون صورة ناطقة للشاعر ومرضه ، وضعفه ، وانفراده ، ووحدته ، عنوانا للنفس الحزينة ، وأشياء أخرى ..)(٣) .

« أشياء أخرى » هذه هي التي أعنيها .. ان الشاعر اذن لا يكرر لمجرد التكرار فقط ولكن وراء هذا أسباب ذكرت بعضها .. والباقي يتمثل في قول الناقد « .. أشياء أخرى ... » .

على أن الناقد نفسه يجنح في هذا الكتاب الى التكرار فيبدىء ويعيد في مآخذ له على الشاعر .. وهو حتى ليس تكرارا لنوع واحد . **ولكنه المأخذ عينه يكرره في صفحات متفرقة من الكتاب .. فقد عاب الناقد مثلا على الشاعر قوله :**

ومن الدمع ما يهزك للعطف ومنه المدمدمات الهوادم

في الصفحات ٨١ ، ٩٩ . الخ .

وعند الناقد أن (أكبر عيوب بشارة هي غلوه في تقدير نفسه ، لأن هذا التقدير يفقده الميزة الفنية ويحط به عن سدرة الأبراج العاجية ، ألا فاسمعه يمدح نفسه (٤) :

ذرني وما زرع الزمان بمفرقي ما كنت أدفن في الثلوج صداحي

---

(١) الأخطل الصغير ص ٩٨

(٢) الصورة المشار اليها صورة السراج المتهافت الضوء والعليل المشفق .

(٣) الأخطل الصغير ص ٤٧ .

(٤) الأخطل الصغير ص ١٠٣ .

او قوله :

ورب أخ رأى فرجا بذمى   فقلت رضيت ذمك لو شفاكا
أتطمع أن تحـــلق للثريـــا   فتطفئها عدمت اذا حجـــاكا)

اترى غلوا فى تقدير النفس ؟ واذا كان :

ذرنى وما زرع ٠٠

غلوا فماذا يسمى السيد الناقد قول المتنبى ـ وهو شاعر اثير كما يبدو من حديثه عنه فى كتابه ٠٠ بماذا تسمى قول المتنبى :

وما الدهر الا من رواة قصائدى   اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

أما البيتان الآخران فان المسألة فيهما نفسية ٠ ان الشاعر يرد على غريم ينتقصه ٠٠ وان أشد الناس تواضعا اذا استهين به انتفض وألحق المهانة بصاحبها وهو ما يسمونه فى علم النفس « الاسقاط » ثم يستعلى بصفات ينسبها الى نفسه لأن فيها ما يشرف به ، أو لأنه يحب أن يوصف بها ٠ **وقد حمل الناقد نفسه البيتين محمل العذر للشاعر بعد قليل أى فى ص ١٠٤ حين قال :**

(نقدنا احتكرته عصبة لا عمل لها سوى حـرق البخور لأفرادها ومهاجمة كل غريب عنها ٠

هذه الأقلام لاحقت بشارة كما لاحقت سواه فكان أمره معها قوله :

ورب أخ رأى فرجـــا بذمى   فقلت رضيت ذمك لو شـــفاكا
أتطمـــع أنا تحلق للثريـــا   فتطفئها عدمت اذن حجاكا)

ومع أن الناقد يقول فى حديثه عن عيوب بشارة (فاننا نكتب عن الفن فيحتم علينا واجبنا اظهار الصور الشعرية البديعة والقبيحة سواء بسواء ٠٠) (١) الا أنه لم يتكلم عن محاسن الشاعر ٠٠ فهل النقـد الفنى اظهار عيوب فقط ؟؟

صه ٠٠ يبدو أن الناقد الفاضل قد أحس فجأة أنه قسا على الرجل فشام انصافه ٠٠ ومن ثم قرر فى آخر كتابه فى سمة المعترف ان شعر بشارة (لم يعرف قدره ولم تعرف قيمته بل بقى كالأرض البكر لا يعرف

---

(١) الأخطل الصغير ص ٩٠ ٠

غثها من سمينها ، وما على الراغب في دراسته سوى تناوله بأقلام صحاح وتجرد وايمان) (١) ٠

وهو رجوع الى الحق يحمد لصاحبه ٠

وعندي أن هذه الصفات التي تمناها الناقد ، صفات الصحة والتجرد والايمان تتوافر أكثر في البعيد منها في القريب ، لأن الأول لم يختلط فهو لم يتأثر بما ينجم عن الاختلاط والمعرفة القريبة من احتكاك وتصادم منافع وايحاءات الوسط المحيط به وفيه العدو والصديق ٠ ومن ثم يتنزه حكمه عن الغرض ؛ ويبرأ من الهوى . ويسلم من التعلات ، وينجو من التعصب ، ويسمو على الانتقاص ٠

البعيد ليس أمامه الا الأثر الأدبي فمآخذه في مواضع الضعف ٠٠ ، وهتافه في مواضع السبق أدنى ـ ولو الى حد بعيد ـ الى العدالة وأشبه بالنقد الفني ٠

ومن هنا أردت كمصرية أن أضيف الى رأى بعض أبناء لبنان في شعر الأخطل الصغير ، رأيا محايدا متجردا مبلورا للقيم الفنية والانسانية في ديوان الرجل في غير افراط وتفريط ٠

***

أما الكتاب الثاني « على المحك » فقد أوسع صاحبه . الشاعر نقدا٠ كان الأستاذ مارون عبود مع الشاعر بشارة الخوري كعادته مع منقوديه يتندر عليهم متوسعا في التندر والسخرية حتى كاد جده أن يغيب في طيات سخره ، وحتى كان نقده على صواب في بعض آرائه ، يحمل الطابع الشخصي ٠ وهو طابع يتهم دائما بالغرض ويتعارض ولو في الصورة على الأقل ٠٠ مع المنهج العلمي في النقد الفني ٠

وقد يكون عذر الأستاذ مارون عبود أن كتابه « على المحك » قام على مقالات متفرقة نشرت في الصحف ٠٠ والمقالة الصحفية ثرثرة بليغة ولا تزيد ٠٠ فلما جمعها في كتابه (على المحك) تخلف عنها العذر الأول وأصبح ينظر اليها ككتاب ٠٠ وهنا ظهرت لها عيوب أخرى منها التكرار والفضول وضياع المنهج ، وهدر النقد ٠

ولست بهذا أنتصر للشاعر ٠ أو أنتقص من الناقد ٠٠ فهما صنوان في وطن يجمع بينهما ـ وان اختلفت آراء ـ الكثير من وشائج

---

(١) الأخطل الصغير ص ١١٢ ٠

القرب حين تبعد بى على الضفاف الخضر فى مصر حدود من صنع الطبيعة أو صنع الانسان .

ان حديثى عنهما يحدوه العامل الأدبى وحده بحيث لا أتردد عن تقدير الحسنات عند كل منهما أو مناقشة نواحى الضعف .

ولست بهذا ألوم الناقد لنقده .. فالنقد توجيه أمين للأدب .. وما ذكره من مآخذ ذكرت أنا نظائر لهـــا توخيا للامانة العلمية التى لا تهون الجيد ولا تغفل الضعف ، بل تعطى لكل ناحية ما تستحقه من الدرس والاحتفال .

ولكن ما أختلف مع الأستاذ مارون عبـود فيه هو التمـادى فى السخر والامعـان فى التندر حتى ليكاد المنقود أن يمســخ أو يصـــير أضـــحوكة .

وقد لاحظت حين قراءاتى كتاب (على المحك) أن معظم ما أورده الأستاذ مارون عبود وتناوله بالنقد من شعر بشارة الخورى لم يرد بديوان (الهوى والشباب) . فهل نحاه الشاعر زهدا فيه ، أم أسقطه تحت ضغط النقد وهو غير يسير ؟ على أى حـال ان الشاعر لم تعزه اللباقة والذوق حين اختار لديوانه .

مناجاة رفيق

اسقنى من لماك أشهى من الخمـ ر ونـم ســاعة على راحتيــا
أنا ماض غدا مع الفجر فاسكب نغمات الحنـان فى أذنيــا

حنين

أترى يذكرونه أم نســوه هم سقوه الهوى وهم أسكروه
عللوه فكــان أقتــل شيء ذلك الصـد بعــد ما عللوه
قلت أهــواك يا ملاكى فردت مقلتــاه لـكن تلعثم فــوه

سهاد

أنــا ســاهر والكون نـا م وكل مـا فى الكون نـام
نـام الجميــع ومقــلتى يقظى تجـول مع الظــلام
حتى نجــوم الأفــق نـا مت فوق طيـات الغمــام
صـمت يقــزك فيــه خـ ب النمل فى ملس الرخــام
ما كان يخفق غــير قــلـ ب كــاد يتلفــه السـقام
قــلب تأكله الغـــرا م وظل يخفق للغــرام

شاعر الهوى والشباب

أنا وقد أبناء الصبابة ساجد من ترب عذرة فى أذل مكـان
استنزل الوحى الذى طفرت به شعراء عذرة فى الزمان الفانى
فتسوغ فى أذنى «جميل» رنتى وتطيب نفس « كثير » ببيــانى
مهد الغرام ومسرح الغـزلان حيث الهوى ضرب من الايمان

يتعانق الروحان فيه صبابة ... ويعف أن يتعانق الجسدان
فاذا سمعت بعاشقين فقل همسا ... ملكان متصلان منفصلان
ما دار ثم سوى الحديث كأنه ... راح يدير كئوسها الملكان
سل عروة بن خزام عن غصص الهوى ... تسمع جواب فتى الغرام العاني
تحنان ساجعة الحمائم فى الضحى ... وزفير أعواد الجحيم الثاني
وله حديث كالدموع اذا جرت ... جذبت نظائرها من الأجفان

صورة لعليل الرئة

هذا الفتى فى الأمس صار الى ... رجل هزيل الجسم منجرد
متلجلج الألفاظ مضطرب ... متواصل الأنفاس مطرد
متجعد الخدين من سرف ... متكسر الجفنين من سهد
عيناه عالقتان فى نفق ... كسراج كوخ نصف متقد
أو كالحباحب باخ لامعة ... يبدو من الوجنات فى خدد
تهتز أنمله فتحسبها ... ورق الخريف أصيب بالبرد
ويمج أحيانا دما فعلى ... منديله قطع من الكبد
قطع تقول له ، تموت غدا ... واذا ترق تقول بعد غد

حنين

قل للألى أحببت رحلة فيهم ... أنا لا أزال لهم محبا ذاكرا
لبكيتهم لو كنت أملك أدمعا ... وعطفتهم لو كنت أعطف هاجرا
يتمثل الأمس البعيد لخاطرى ... فأكاد أرشفه لمى ومحاجرا
ان السنين دقائق لمتيم ... ذكروا له الماضى فمل الحاضرا

سر الكأس

يا صارف الكأس عنا لا تضن بها ... ويا أخا الوتر المكسال لا تنم
أدر علينا من الصهباء أفتكها ... وخدر العصب المحموم بالنغم
قد يشرب الخمر من تغلو الهموم به ... وقد يغني الفتى من شدة الألم

موكل بالهوى :

كفانى يا قلب ما أحمل ... أفى كل يوم هوى أول
أفى كل وجه لنا مرتع ... وفى كل ثغر لنا منهل
عذرتك يا قلب من للهوى ... أنتركه بعدنا يذبل
سكتنا فما غرد العندليب ... وتبنا فما صفق الجدول

تقاليد الشراب :

يا ذابح العنقود خضب كفه ... بدمائه بوركت من سفاح

أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح
أدب الشراب اذا المدامة عربدت في كأسها أن لا تكون لصاحى

دعوة جريئة :

حكمة الدهر أن نعيش سكارى فاجمعا لى الكئوس والأوتارا
واجلواها دنيا ممتعة الحسن كما تجلوان احدى العذارى
هي كالورد تحمل الشوك والعطر و ان خير اللبيب اختارا
كلنا كلنا نجاذبها الوصل ونجنى اللذائذ الأبكارا
انما ذاك يرفع الصوت في النادي وهذا يلقى عليها ستارا
فانهب العيش لا أبالك نهبا واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غير جناح حط في الدوح لحظة ثم طارا

أسمهان :

هل الغناء اذا جرحت آهته سوى عصارة أكباد لأكباد
كأنه موجة بيضاء ناعمة يمشي الشراع به في بحره الهادى
تأوى الأغاريد منه حين ترسله الى وريف ندى الظل ممداد
وينشر الروض سكرانا براعمه كألسن الطير شقت نصف منقاد

الجابى :

من الناعب قبل الفجر من هذا على الباب
أعيذ القبح من قبح بأظفار وأنياب
أقبل الشمس في الآفاق والعصفور في الغاب
وما زار الكرى جفني ولم تعلقه أهدابى
ولا غذيت أطفالى سوى همى وأوصابى
فراشي يا وقاك اللـه منه بعض أعشاب
وهذى كوبتي الفخار ما فيها سوى صاب
فما تبغيه في بابى ومن أنت ؟ أنا الجابى (١)

---

(١) لقد وقفت عند هذه القصيدة وقفة مستأنية في الصفحات السابقة ولكن نفسى لا زالت ممتلئة بها ... ومن ثم ترانى أعود اليها مرة أخرى فاعرضها بين المختار من شعره لما فيها من صدق الواقع وصدق الفن وبشاشته وحرارة الروح فيه .

من مؤلفات الكاتبة :

- من عبقرية الاسلام
- أعيدوا كتابة التاريخ
- شخصية مصر
- النيل فى الأدب المصرى
- خصائص الشعر الحديث
- الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد
- أدب المازنى
- أحمد رامى (قصة شاعر واغنية)
- أم كلثوم وعصر من الفن
- الأدب والحضارة
- قمم أدبية
- مشروع هضبة الأهرام آخر اعتداء على مصر
- أزمة الشباب وهموم مصرية
- الاسلام وانسان العصر « العودة الى المنبع »
- رسائل الى ابنتى
- القاهرة فى حياتى
- رحلة الشرق والغرب « الانسان والزمان والمكان »
- التراث والحضارة
- فى بلادى الجميلة
- فى أدب الرافعى
- صناعة الجهل
- قبة الامام الحسين (قضية حكم)

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٢٢٦٨
ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٢٧٦ ـ ٣

إبراهيم ناجى　　أبو القاسم الشابى　　الأخطل الصغير

شعراء ثلاثة التقوا فى الحياة وفى هذا الكتاب ، على الغناء للجمال فى الطبيعة والإنسان . وقد وقفت الدراسة فى كل ديوان من دواوينهم بالتحليل والاستشفاف ، على الانسان ، فى الشاعر . . . وعلى الشاعر بين فنون القول ، وعلى دوره فى حياة الفنون والناس .

وفى عصر محموم يتصارع بعض أهله ، فى شرق وغرب ، على المادة إلى حد الخروج على الإنسانيات والقيم حتى تاجر فاقدو الضمير فى اللبن الملوث . . . يبيع المتمدينون الموت وهم يعرفون . . . يعرفون كل شئ إلا حق الحياة وحرمة الإنسان على أى أرض وفى أى مكان .

فى مثل هذا العصر ، تشتد الرغبة فى العودة إلى النقاء يلوذ به الإنسان المكروب . . . العودة إلى الفنون . . إلى دنيا أخرى يفىء إلى برد الظلال بعد وقدة السعير ، لا الهجير .

وهذا الكتاب واحة راحة .

ولمحة جمال . .

ونفحة صفاء .